نظرات جديدة في القرآن المعجز

تأليف

محمد عادل القلقيلي

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

مقدمـــــة

الحمدُ لله مُنزل الكتاب الحكيم، المتكفِّل ببيانه وحفظه إلى يوم الدين، والصلاة والسلام على محمد السراج المنير، المرسل رحمةً للعالمين.

وبعد؛ فهذا كتابي الثالث، أصدره بعد كتابيَّ السابقين «كشوف جديدة في إعجـاز القرآن الكريـم»، و «الهندسة الإلٰهية في سورة الكهف»، وأواصل فيه، بتوفيق الله وفضله، السير على نهج جديدٍ في تفهم السور القرآنية، وتدبُّرها طبقاً لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدَبَّرونَ القرآنَ؟ ولو كانَ مِن عندِ غيرِ الله لَوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢]، محاولاً اكتشاف ما في السور من ترابطٍ وتناسق وانسجام في المعـاني والألفـاظ، متـوسعاً بعض الشيء في النظر في آيات الله في هذا الكون، طبقاً لما جاءت به العلوم الحديثة.

إذ إن القـرآن العـظيم هو أول كتاب سماوي يتميَّز بلفت أنظار الناس، بإصرار وتكرار مدهشين، إلى استقراء ظواهر الكون لمعرفة خالقه الأعلى، وهذا هو الطريق السليم المستقيم الأمثل الموصل إلى الإيمان الراسخ: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ. الذينَ يَذْكُرونَ الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهم، ويتفكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ، ربَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً، سُبحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾.

كان الـرسل والأنبياء السابقون يعتمدون في تعريف الناس بربِّهم، على

المعجزات الحسيَّة، كقلب العصا حيةً، وشفاء مَن استعصت أمراضهم، وإحياء الموتى. وهي آيات تدلُّ على الله دلالة عابرة مؤقتة، تنتهي بزوال أصحاب المعجزة.

أما القرآن الكريم، فقد أُريدَ له أن يكون خاتم الكتب الإلٰهية، والمعجزة الباقية حتى قيام الساعة، ولذلك نراه ينهج في الدلالة على الله هذا النهج العلمي العقلاني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه.

وهذا في حد ذاته معجزة قرآنية بالغة الدلالة على أن هذا القرآن منزلٌ من لدن رب العالمين.

أليست المعجزات أموراً خارقة مخالفة لطبائع الأمور؟

إن كل دعـوة لا بدَّ أن تكـون ـ بحسب طبـائع الأمور ـ نابعة من ظروف الداعي إليها، وبيئته، متأثرةً تأثراً إيجابياً بها. فإذا دعا داعٍ إلى دعوة مناقضة كل المناقضة للظروف والبيئة التي نشأت فيها، فذٰلك أمر معجز.

لقد جاءت الدعوة الإسلامية ـ الممَثَّلة في القرآن الكريم ـ ثورة خارقة من ناحيتين:

أولاهما: أنها ثورة إيمانية أخلاقية اجتماعية، قلبت جميع المفاهيم الدينية والاجتماعية التي سادت الناس عربهم وعجمهم في وقت نزولها.

وثانيتهما: أنها ثورة علمية وأدبية، جعلت العلم اليقيني أساساً للحياة، مبنياً على استعمال العقل والحواس.

□ القرآن ثورة اجتماعية خارقة:

كانت البيئـة المكيَّة القُرشية تقوم على العصبية القَبَلِيَّة، وعلى التمييز الفـاحش بين الأغنياء والفقراء، وبين السادة والعبيد. وكان الرسول ينتمي إلى

الطبقة العليا في المجتمع، طبقة السادة الأشراف، فهو من أشرف أسرة في أشرف قبيلة عربية، وهي قريش، التي كانت من الناحية الإيمانية الدينية تؤمن بآلهةٍ متعددة كسائر العرب.

وكان من المفروض ـ بحسب طبائع الأمور ـ أن يدعو الرسول إلى تثبيت نظام العصبية القبلية، وإلى تعظيم شرف أسرته، وإلى دعم سيطرة الأغنياء على الفقراء، والسادة على العبيد؛ لأنه بذلك يثبِّت مقامه، وشرف أسرته، ومركزه المالي.

غير أن دعوته كانت ثورة على ذلك كله؛ فمن الناحية الإيمانية دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده، وترك عبادة الأصنام، والآلهة الأخرى، التي لم يترك منها شاردة ولا واردة، كعبادة الشيطان، وحتى عبادة هوى النفس: ﴿أَفَمَن اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؟ وهو أمر بالغ الدقة، لا يكاد يخطر ببال أعظم الفلاسفة والمفكرين.

كما أنه دعا إلى القضاء على العَصَبِيَّةِ القَبَلِيَّة، فجعل التكريم لمن اتَّقى الله، وليس للأنساب، ولا للشرف القبلي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم عندَ الله أَتْقَاكُم﴾.

ودعا إلى التآخي بين السادة والعبيد، وحُسن معاملتهم، ودعا إلى إكرام الفقراء، وجعل لهم حقاً مفروضاً في أموال الأغنياء، بل منع إيذاء مشاعرهم حين دفعِ المساعدات المالية إليهم بالمنِّ والاستعلاء عليهم، مفضِّلًا أن يتم الدفع لهم سِرًّا حتى لا تجرح كرامتهم أمام الناس.

ومما يدل على أن المجتمع القرشي الذي نشأ فيه الرسول، كان يقدِّس المال والشهوة والجاه، أن القرشيين لما خافوا دعوته، ورأوها خطراً يهدد سيادتهم، لجؤوا إلى إغرائه بأن يجمعوا له من الثروات ما شاء، وأن يزوجوه أجمل فتياتهم، ويجعلوه ملكاً عليهم، لا يقطعون بأمرٍ دون مشورته، على أن يترك دعوته إلى الله، ظناً منهم بأن هذا السيد القرشي العريق لا بدّ أن يستجيب إلى إغراء

علو المقام وذروة الشرف حين يصبح ملكاً لأشرف قبائل العرب.

لكنّ صوته علا مدوِّياً مجلجلاً ثابتاً، رافضاً للدنيا بأسرها: «والله لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه».

ولم تكن الدعوة الإسلامية معاكسةً لبيئة الرسول المحلية وحدها، وإنما جاءت مناقضة للبيئة الإنسانية الكبرى. فقد جاءت تصحح لأصحاب الأديان السابقة عقائدهم، فدحضت أن لله تعالى ولداً، وأنه ثالث ثلاثة، كما نقضت قول اليهود بأن الله إلٰههم وحدهم من دون البشر، فالله تعالى رب العالمين، رب الناس أجمعين.

فالقرآن صيحة عجيبة مخالفة لكل التوقعات البشرية، فهو لم ينبع من المصلحة المادية للرسول ﷺ، ولا من المصلحة الدنيوية لقبيلته وبلدته، ولم يمالىء عقيدة يؤمن بها الكثيرون من أهل عصره، وإنما هو صيحة الحق الخالص، لا تدع باطلاً إلا أزهقته، ولا تدع رشداً إلا أعلنته، ورفعته، فلا أصنام، ولا أوثان، ولا عصبية قبلية، ولا أنساب، ولا ولد لله، ولا بنات.

وانظر إلى نور الحق يشرق من الآية الكريمة التي نزلت حين سرت شائعة بعد انهزام المسلمين في معركة أُحُد تقول: إن الرسول قد قُتِل في المعركة. تقول الآية: ﴿وما مُحَمَّدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفإنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أَعْقابِكُم؟! ومَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئاً وسَيَجْزي الله الشاكِرينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أليس هذا صوت الله الحق، يعلو في الوقت المناسب، في الساعة الحرجة التي ظنَّ فيها المؤمنون أن الرسول قد قُتِل، مُعلناً أن الدعوة ليست دعوة محمد ﷺ، وأن محمداً لا يدعو من تلقاء نفسه، ولا من أجل نفسه، وإنما هو مجرد

واحد من الدعاة إلى الله، يجري عليه ما جرى عليهم؛ من موت، أو قتل، ثم تبقى دعوة الله قائمة على أيدي تلامذة الرسول، وتلامذة تلامذته إلى يوم الدين.

حقاً؛ إن هذه الآية من أروع آيات القرآن الكريم، وأعظمها دلالةً على صدق الرسالة، وصدق الرسول ﷺ.

□ القرآن ثورة علمية أدبية خارقة:

لقد وضع القرآن مبادىء العلم الحديث إذ لم يقبل حقيقةً من الحقائق دون برهان يثبتها: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُم إنْ كُنتُم صادِقينَ﴾، وإذ جعل العقل والحواس أساساً لإثبات الحقائق والاقتناع بها: ﴿ولا تَقْفُ ما لَيسَ لكَ بهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مَسؤولاً﴾، وإذ جعل اليقين، وليس الظنَّ، أساساً للعلم: ﴿ومَا لَهُم بهِ مِن عِلْمٍ، إنْ يَتَّبِعونَ إلا الظَّنَّ، وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئاً﴾، وإذ نظر إلى هذا الكون على أنه خاضع لسُنن وقوانين ثابتة لا تتبدل، ولا تتغير: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَبْديلاً، ولنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَحويلاً﴾.

والقرآن جعل الرياضيات والفلك علمين مطلوبين لذاتهما حين قال: ﴿هُوَ الَّـذي جَعَـلَ الشمسَ ضِياءً والقَمَـر نوراً، وقَـدَّرَهُ مَنـازِلَ لِتَعْلَمـوا عَدَدَ السِّنينَ والحِسابَ﴾ [يونس: ٥].

وأول كلمة نزلت من القرآن هي كلمة ﴿اقْرأْ﴾، تلتها كلمات تذكر التعليم والكتابة بالقلم.

أليس كل ذلك عجيباً إذا صَدَر من فم رجل أميّ ينتمي إلى أمة عريقة في الأمية؟!

والقرآن أول كتاب يصدر باللغة العربية على الإطلاق!

إنه فتح جديد بين العرب، فلم يكن للعرب ـ كما لغيرهم من الأمم ـ تقاليد

جارية في تأليف الكتب وتنظيمها وتبويبها. ورغم ذلك، فإن القرآن قد جاء كتاباً منظماً مرتباً، تنزيلاً من عليم حكيم، يضع كل كلمةٍ في مكانها المناسب، ويعرف كيف يبتدىء كتابه وكيف ينهيه.

إنه يفتتح كتابه بسورة (الفاتحة)، ذات الآيات السبع القصار، فهي لا بد أن تُعرِّف بمؤلف الكتاب في مقدمتها، فتذكر اسمه وصفاته الأساسية:

(بسم الله الرحمن الرحيم)، فاسمه (الله)، وصفاته الأساسية: الرحمن والرحيم، ثم رب العالمين، أي مُرَبِّي الناس وسواهم، ومن هنا دارت سورة الفاتحة من أولها إلى آخرها على فكرة (التربية).

ولا عجب في ذلك، فإن الرسالات الإلٰهية جميعها ليست إلا مناهج تربوية تعليمية، توضع لتربية البشر وتعليمهم، واضعها هو الله تعالى المربي الأعظم.

ومن هنا كانت الفاتحة - إذ يكررها المؤمن في صلواته اليومية مراراً - تربية للمؤمن وبرمجةً لقلبه - ذلك الكمبيوتر الإلٰهي المدهش - على معاني الحق والعمل الصالح، على معرفة ربه وخالقه، على الإحساس بالمسؤولية، وعلى العدل والرحمة والتفاؤل.

ولكن هذا التفاؤل يجب أن يكون حذِراً. فللإنسان عدوٌّ شديد الخطر، يجب على الإنسان أن لا ينساه. إنه الشيطان الوسواس الخناس، الذي يأتي الإنسانَ من داخله، ويحادثه حديثَ المرءِ لنفسه. وهو خطر عظيم، فقد أدت وسوسة الشيطان إلى إخراج آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض دار الشقاء والفتنة.

إنه يقوم ببرمجة سلبية مضادة لبرمجة سورة الفاتحة الإيجابية.

إنك إذا اشتريت جهازاً منزلياً، فلا بدَّ أن تجد مع الجهاز نشرة أو بياناً يبدأ

بذكر محاسن الجهاز ومميزاته وطريقة استعماله المثلى، ثم يختم قوله بالتحذير من أخطار إساءة استعماله.

وإذا اشتريت دواء، وجدت فيه أيضاً نشرة تبيِّن منافع الدواء، ومميزاته، وطرق استعماله. ثم تختتم النشرة بيانها بالتحذير من الآثار الجانبية السيئة للدواء.

وقلب الإنسان (الذي يُشبه الكمبيوتر)، جهاز زوَّد الله به كل إنسان، وأنزل القرآن بياناً لهذا الجهاز البديع، وذكر في بدء بيانه، في سورة الفاتحة، كيفية استعمال هذا الجهاز، وذلك ببرمجته على معاني سورة الفاتحة، وفصَّل في سائر السور كل ما يصلح لهذا القلب، ثم ختم بيانه، في سورة الناس، بالتحذير من خطر عظيم يتعرض له قلب الإنسان، وهو وسوسة الشيطان.

فهذا الابتداء بالتفاؤل والتبشير، والانتهاء بالإنذار والتحذير، يبيِّن أن القرآن الكريم قد رُتِّبتْ سُوَره على أساس منطقي.

أقول: ذلك مع ملاحظة أن سور القرآن لم تنزل بحسب ترتيبها الحالي في المصحف، بل كانت تنزل حسب الأحداث وما تقتضيه من إرشادات وتوجيهات ربانية، ثم تم وضع السُّور بشكلها الأخير، بحسب ترتيب خاص أمر به الوحي. وإن دراسة هذا الترتيب للسور القرآنية بكاملها أمر جدير بالاهتمام، ولا شكَّ أنه سيكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن.

وأرى أن أشير في هذا المقام إلى الحكمة من وضع سورة البقرة في موضعها الحالي من المصحف بعد سورة الفاتحة مباشرة، رغم أنها نزلت في زمن متأخر في المدينة المنوَّرة.

إن سورة البقرة تفصِّل كل ما يهم المسلم من موضوعات وتوجيهات رئيسية، وهي ـ كأي كتاب حديث ـ تمهد بمقدمة مناسبة، تبيِّن أنَّ قرَّاء الكتاب نوعان:

أ ـ طائفة تستفيد من قراءته، وتهتدي به، وهم طائفة ﴿المُتَّقينَ الَّذينَ يؤمِنونَ بالغَيْبِ﴾.

ب ـ وطائفة لن تستفيد من قراءته شيئاً. وهم طائفة الكافرين المصرِّين على الكفر: ﴿إنَّ الذين كفروا سَواءٌ عليهم أأَنْذَرْتَهُم أمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لا يؤمِنونَ﴾، أو طائفة المنافقين: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَقولُ آمَنَّا باللهِ وباليومِ الآخِرِ وما هُم بمُؤْمِنينَ﴾.

وبعد هذه المقدمة المعقولة تشرع السورة في عرض موضوع الكتاب الأساسي، وهو ﴿عبادة الله﴾، فتقول: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُم والذينَ مِن قبْلِكُم لعَلَّكُم تَتَّقونَ. الذي جعَلَ لكُم الأرضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً وأَنْزَلَ مِن السَّماءِ ماءً فأَخْرَجَ بهِ مِن الثَّمَراتِ رِزْقاً لكم﴾.

فعبادته تعالى واجبة على الإنسان لأنه خالقه ورازقه ومالك أمره.

فهنا فكرتان رئيسيتان؛ هما: (١) العبادة. (٢) الخَلق.

والثانية ملازمة للأولى، أي بما أن الله خلقنا، فيجب أن نعبده.

وتتناول السورة بالتفصيل قصة الخلق أولاً، أي تاريخ خلق الكون والإنسان وتاريخ الأمم السابقة، ذلك لأن حاضر الإنسان ومستقبله يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بماضيه.

فتذكر السورة خلق السماوات والأرض وما فيها.

ثم تذكر قصة خلق آدم ﷺ وما جرى بينه وبين الملائكة وعدوّه اللدود إبليس الذي أغواه فأخرجه من الجنة إلى الأرض دار الشقاء والتعب.

ثم تعرض السورة عرضاً تاريخياً مطولاً تذكر فيه أخبار بني إسرائيل، مبيِّنة انحرافاتهم وأخطاءهم الطائشة بالتفصيل، عسى أن يكون في ذلك عبرة للأمة

الإسلامية الناشئة، فلا تقع في مثل أخطائهم.

وبعد هذا العرض التاريخيّ، ومن خلالها، تعود السورة إلى ذكر الفكرة الرئيسية، وهي العبادة، مبيِّنة عبادات الإسلام الرئيسية، وهي الصلاة، وصيام رمضان، والحج، والزكاة، مشيرةً إلى جوانبها الروحية القلبية، ومؤكدة لها.

فتشير مثلاً إلى وجوب الخشوع في الصلاة، وإلى تجنب الرفث والفسوق والجدال في الحج، وإلى معنى التقوى في الصيام، وإلى ضرورة تجنب المن والأذى عند التصدق على الفقراء.

وتفصِّل السورة موضوعات مهمة جداً يتوقف عليها استقرار المجتمع، كالروابط بين الرجل والمرأة من خطبة وزواج وطلاق ومعاشرة زوجية، وكالمعاملات المالية، فتنهى عن الربا، وتأمر بتسجيل صكوك الديون لدى كاتبٍ بالعدل.

ويتخلل ذلك تعريف المسلمين بصفات الله الحسنى التي تستدعي عبادته تعالى، والتوجُّه إليه، فهو الحكيم، الواسع، العليم، المطَّلع على ما يسرّه الناس وما يعلنونه، وهو حي قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، وغيرها من صفاته تعالى.

كما يتخلل ذلك توجيه المسلمين إلى الأخلاق الكريمة من صبر وكرم وسعة أفق ووفاء وصدق.

كما أن السورة تتضمن أركان الإيمان، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

فالسورة بشمولها جميع الموضوعات، وأغزر التفاصيل، جديرة بأن توضع في مكان الصدارة من القرآن الكريم.

هذا نموذج من وضع السور في القرآن الكريم في أماكنها المناسبة

المعقـولـة، مما يشير إلى إنزال خبير عليم، هو مؤلف هذا الكون بأسره، جل جلاله، ولا يشير إلى مؤلف أميّ يجهل القراءة والكتابة. . !

وأمـا تفاصيل وجوه الإعجاز في كل سورة، من وحدة موضوع، وترابط، وتناسق، وانسجام بين الكلمات والمعاني، فيرى القارىء الكريم شيئاً منها في داخل هذا الكتاب، إن شاء الله.

وأودّ أن أوجه النظر إلى الأمور التالية:

١ ـ لقد بينت في مطلع معالجتي لكل سورة الأفكار الجديدة التي اختص بها كتابي، والتي لا أظن أحداً قد طرقها من قبل.

٢ ـ تعرضت في كتابي هذا إلى دراسة سورتين كريمتين تبدآن بالقَسَم، هما: سورة القيامة، التي تفتتح بالقَسَم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، وسورة المرسلات، التي تفتتح بالقَسَم بالمرسلات عرفاً، والعاصفات عصفاً. . .

وقد حاولت كشف ارتباط كل قسم منها بسائر أجزاء السورة.

وختاماً؛ أرجو من القارىء الكريم الصفح عما قد يجده من أخطاء وتقصير في كتابي هذا، فالكمال لله وحده، راجياً الله تعالى أن ينفع به كل من قرأه، كما أرجوه تعالى أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، إذ بيده وحده الخير كله والتوفيق، وأسأله سبحانه العفو والمغفرة.

وصلى الله على رسوله الأمين وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين.

□□□□□

شكر واعتراف بالجميل

لا بدَّ لي من الاعتراف بالجميل الذي أسداه إليَّ سماحة الأستاذ الفاضل عز الدين الخطيب، المفتي العام للمملكة الأردنية، إذ نظر في هذا الكتاب، ووجّهني توجيهات قيمة، فكرية ولغوية، وشجعني على المضيّ في نشر أمثال هذه الأبحاث والدراسات القرآنية.

فجزاه الله خيراً، وشكر له جهوده الطيبة.

□□□□□

سورة الفاتحة

سورة التربية والبرمجة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

□ الأفكار الجديدة في دراسة سورة الفاتحة :

قبل أن أشرع في تأمل هذه السورة الكريمة، أودُّ أن أبرز أهم الأفكار الجديدة التي أريد عرضها في دراستي لها، والتي لا أظن أحداً قد طرقها من قبل، وهي :

١ ـ سريان فكرة التربية في السورة، وقيام بنيانها عليها، وتسلسل أفكار السورة ومعانيها تسلسلاً منطقياً محكماً.

٢ ـ نظرة جديدة إلى معنى اسم «الرحمن»، والفرق بينه وبين اسم «الرحيم»، وذلك استناداً إلى آيات قرآنية عديدة.

٣ ـ الإيحاءات التي تُبرمجُ بها الفاتحة قلبَ المؤمن، فتغرس فيه الإيمان بالله وحده، والتفاؤل، والرحمة، وسعة الأفق، والتخلص من الأنانية، والتحلي بالروح الاجتماعية، وبالعدل، والتوسط.

٤ ـ غزارة الأفكار التي توحي بها كلمتا ﴿الصراط المستقيم﴾.

٥ ـ ربط ﴿الذينَ أنعمت عليهم﴾، و﴿المغضوب عليهم﴾، و﴿الضالين﴾ بما ورد في سور القرآن الأخرى عن «الإنعام»، و«الغضب»، و«الضلال».

□ أهميَّة السورة:

إن لسورة الفاتحة ـ كما لا يخفى على أحد ـ أهمية خاصة، تميزت بها على سائر السور، فلقد روى المفسرون أنها هي «السبع المثاني» التي امتنَّ بها الله على رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثانِي والقُرْآنَ العَظيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. وقد ورد ذلك في الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن أبي سعيد بن المعلى؛ قال: «كنت أصلي في المسجد، فدعاني النبي ﷺ، فلم أجبه حتى صليت، ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أصلي. قال: «ألم يقل الله: ﴿اسْتَجِيبوا لله ولِلرَّسولِ إذا دَعاكُم﴾»؟ ثم قال: «ألا أعلِّمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج، قلت: يا رسول الله! إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة من القرآن. قال: «﴿الحمد لله رب العالمين﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»

«مشكاة المصابيح» (رقم ٢١١٨).

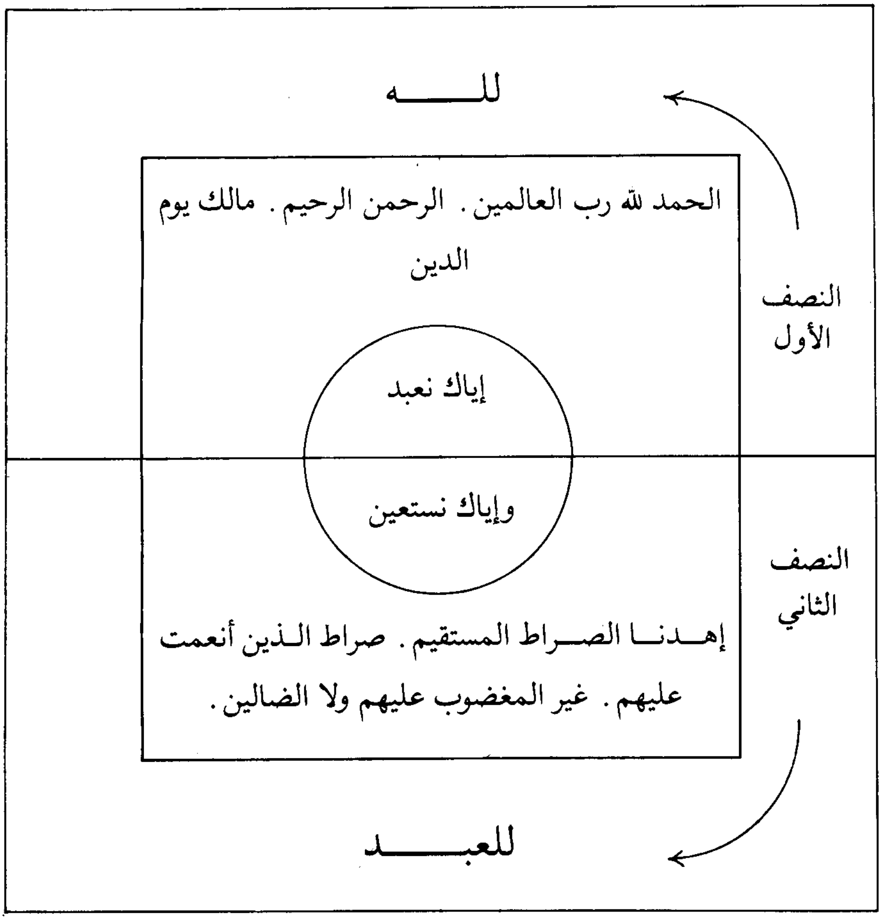
وقد سمِّيت بالسبع المثاني لأنها تتألف من سبع آيات تتكرر تلاوتها في كل ركعـة من ركعات الصلاة. قال ابن منظور في «لسان العرب» في مادة (ثني): «وهي (أي الفاتحة) سبع آيات، قيل لها: مثانٍ؛ لأنها يُثنى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة، وتُعاد في كل ركعة».

ومما يدل على أهميتها أيضاً أن الله تعالى قد وصفها بأنها «الصلاة»، وذلك في الحديث القدسي الذي رواه مسلم، دلالةً على أنها صلب الصلاة وقوامها.

فقـد ورد في هذا الحديث الشريف: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. قال الله: حمـدني عبـدي. وإذا قال: ﴿الـرحمن الرحيم﴾. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾. قال: مجَّدني عبدي. وإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿آهْدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمتَ عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل» «مشكاة المصابيح» (رقم ٨٢٣).

وهـذا الحديث يدل أيضاً على «هندسة إلٰهية» خاصة، تناسقت بها هذه السورة، فقد جعل الله الفاتحة نصفين: نصفاً لحمده تعالى وتمجيده، ونصفاً لعبده يطلب به من ربه أن يعطيه الخير ويدفع عنه الشر. وبحسب هذه الهندسة، فقد وضع الله في قلب السورة آية: ﴿إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ﴾، التي هي بدورها نصفان: أحدهما للذات المجيدة، والآخر للعبد (انظر الشكل).

كما يدل على أهمية الفاتحة أن الله قد افتتح بها كتابه العزيز، ومن هنا سميت «سورة الفاتحة»، فهي تتصدر القرآن، مقدمةً له وطليعة.


للـــــــه
الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين
النصف الأول
إياك نعبد
وإياك نستعين
النصف الثاني
إهـــدنـــا الصـــراط المستقيم . صراط الـذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين .
للعبـــــــد

ويدل على أهميتها أيضاً أن المسلم يكرر تلاوتها في الصلوات الخمس المفروضة كل يوم سبع عشرة مرة، فضلاً عن تلاوتها في ركعات السنن الرواتب، والنوافل، وغيرها.

وما ذلك إلا لأن الفاتحة تجمع أهم القضايا الأساسية التي تهمّ المسلم، فهي خلاصة ما يليها من السور جميعاً، وما باقي سور القرآن إلا تفصيل للفاتحة التي تحوي الأركان الأصلية التي ينبني عليها بنيان الإسلام الشامخ.

□ سريان فكرة «التربية» في الفاتحة:

إن في سورة الفاتحة فكرة واحدة تسري فيها، فتجعل السورة كلها قائمة عليها، دائرةً حولها، في ترابط وانسجام رائعين. تلك الفكرة هي فكرة «التربية».

وقد أشارت السورة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾، فمن معاني الرب: المربي. ولا غرابة أن تكون الفاتحة سورة التربية، إذ هي مقدمة القرآن الكريم، كتاب الرسالة الإسلامية، وما الرسالات الإلٰهية إلا رسالات تربوية، يربي الله تعالى في كل منها أحد رسله تربية مثالية، ثم يكلفه بتربيةَ أمته التربية السليمة.

وكلنا نعلم أن «المعلم» يربِّي طلابه، والتربية قسمان: أولهما تعليم الطلاب الحقائق الهامَّة، وثانيهما غرس الأخلاق الكريمة الفاضلة في قلوبهم.

كما نعلم أن المعلم يقوم بامتحان طلابه بعد أن يبيِّن لهم المواد العملية والنظرية التي سيمتحنون فيها، وأن هذا الامتحان تعقبه محاسبة الطلاب على أجوبتهم عن أسئلة الامتحان، وأنه بعد انتهاء الحساب، وظهور نتائج الامتحان، يصنِّف المعلم طلابه إلى صنفين اثنين: ناجحين، ومخفقين (راسبين).

والدين بأسره مواد علمية؛ نظرية وعملية، يكلف الإنسان بدراستها

وتطبيقها والالتزام بها في حياته كلها، ثم يمتحن بها، وما أفعاله وأقواله في حياته كلها إلا أجوبته على أسئلة هذا الامتحان العظيم، ثم يوم القيامة يُزاح الستار عن نتائج الامتحان، ويصنف الناس إلى قسمين: ناجحين مفلحين، وهم الذين ﴿أنعمت عليهم﴾، ومخفقين راسبين، وهم «المغضوب عليهم والضالون».

وما «الصراط المستقيم» إلا المنهج التربوي المبني على «إيديولوجية» الإيمان بأن هذا الكونَ بأسره مخلوق لله تعالى وحده، خاضع كل الخضوع لأمره، فهو رب العالمين وراحمهم.

والخلاصة أن سورة الفاتحة هي سورة التربية: فالله هو المربي، والناس هم المعرَّضون لهذه التربية، والصراط المستقيم هو منهج التربية ومبدؤها، والحياة الدنيا هي دار الامتحان، ويوم الدين هو يوم الحساب، وإعلان نتائج الامتحان، وتصنيف الناس إلى ناجحين ومخفقين.

ومن ناحية أخرى، فالسورة تترابط أجزاؤها ترابطاً منطقياً متسلسلاً كما يلي:

أ ـ تبدأ السورة بنسبةِ الحمدِ كلِّه لله.

ب ـ تبيِّن السورة جدارته تعالى بهذا الحمد، فهو يستحقه لأنه يتصف بالصفات التالية:

١ ـ أنه رب العالمين، فهو خالق المخلوقات جميعاً، ومربيها، وسيدها، ومالكها، ويتضمن ذلك أنه تعالى قدير عليم حكيم سميع بصير.

٢ ـ أنه الرحمن الرحيم الذي شمل المخلوقات بواسع رحمته.

٣ ـ أنه مالك يوم الدين، يوم يقيم العدل بين الناس، وينصف بعضهم من بعض، ويعطي كل ذي حق حقه، فهو لذلك جدير بالحمد.

جـ ـ ولما كان الله تعالى يتصف بهذه الصفات الحميدة؛ من رحمة، وقدرة، وعلم، وكان الإنسان معرضاً للتكليف والامتحان، ومخلوقاً ضعيفاً لا يقوم بذاته، فإنه جدير بأن يتوجه إلى الله القدير بالعبادة ﴿إياك نعبد﴾، وأن يسأله المعونة ﴿وإياك نستعين﴾، على حمل عبء المسؤولية التي ستعلن نتائجها ﴿يوم الدين﴾.

د ـ أعظم معونة يهديها الله إلى عبده هي هدايته إلى نهجه القويم ﴿الصراط المستقيم﴾، فليطلب هذه الهداية منه تعالى.

هـ ـ وهو الطريق الذي يسلكه من أنعم الله عليهم.

و ـ وهو الطريق الذي يتجنبه من يسيئون العمل فغضب الله عليهم، أو من ضلُّوا فهلكوا.

□ فاتحة الكتاب:

سُمّيت السورة باسم (فاتحة الكتاب) لأن كتاب الله يُفْتَتَحُ بها. وانتقاء فاتحة لكتاب أمر يحتاج إلى حكمة وذوق، فالناس يتأثرون أشد التأثر بالمنظر الأمامي للأشياء، والمقدمة من الكتاب كالوجه من الإنسان، ينبىء عما في داخله، فهو إما أن يجتذب المشاهد إليه، وإما أن ينفِّره منه.

وفاتحة الفاتحة هي البسملة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وما أعذبها من كلمات، تجتذب إليها القلوب بينبوع الرحمة المتفجر من ثناياها.

وقد بُدىء الكتاب كله بالبسملة للتعريف باسم صاحب الكتاب، جل جلاله، وهو أمر ضروري، يساعد على تقدير قيمة الكتاب. وما من كتاب قد أُلِّف قديماً أو حديثاً إلا ذُكر اسم مؤلفه في أوله.

والسورة أهل لأن تكون فاتحة للكتاب؛ لأنها تعرض مبادئه الأساسية بكل

وضوح، فتبيّن أن الكتاب قد أنزل لتربية الناس وتعليمهم ما ينفعهم ويوصلهم إلى السعادة الدائمة ويبعدهم عن الشقاء الدائم. وتبيّن أن لهذه التربية منهجاً خاصاً يجب الالتزام به، وإيدولوجية خاصة، تقوم على الإيمان بالله خالق هذا الكون، وأن على الإنسان مسؤوليات معينة يجب أن يتحملها. والسورة إنذار صريح للناس بمصيرهم السيىء إذا هم فرطوا في القيام بمسؤولياتهم.

□ ناحية إعجازية:

إن هذا التسلسل المنطقي في آيات الفاتحة، وهذا الاختيار البارع لافتتاح القرآن بها، لأمر معجز حقاً، لا يمكن صدوره عن رجل أمي نشأ في أمة أمية، وخاصة إذا تذكرنا أن القرآن هو أول كتاب وضع باللغة العربية على الإطلاق، فلم يعرف كتاب عربي قبله قط.

ولو كان من عند غير الله لجاء متأثراً بأفكار البيئة التي نشأ فيها، وبأساليبها. وما كان عند العرب من التأليف إلا القصائد الشعرية التي ما كانوا يسجلونها في كتاب، بل كانوا يحفظونها في صدورهم، ويتناقلونها بألسنتهم، أو يكتبون بعضها ليعلقوها على جدران الكعبة.

والقصائد عندهم ذات مواضيع معينة محدودة، تتناول الفخر والمدح والهجاء والرثاء والوصف، وكلها تنبع من العصبية القبلية التي سادت المجتمعات الجاهلية. وأما أسلوبها، فإنه يعتمد على افتتاح القصيدة دائماً بالغزل، ومناجاة أطلال ديار الحبيبة، وآثارها التي رحلت عنها، كما في قول امرىء القيس:

قِفا نَبْكِ مِن ذكرىٰ حَبيبٍ ومَنزِلِ
بسِقْطِ اللِّوىٰ بينَ الدَّخولِ فحَوْمَلِ

ثم يتحول الشاعر من هذا الغزل الاصطناعي المفتعل إلى موضوع آخر لا علاقة له بالغزل؛ كالفخر والهجاء وغيره.

ومن أساليب افتتاح القصيدة التقليدية أن يتخيل الشاعر صاحبين له يرافقانه فيخاطبهما، ويبثهما همومه ومشاعره، وذلك كما في البيت السابق، إذ يقول لصاحبيه الخياليين: «قفا لنبكي ذكرى الحبيب ومنزله».

هذا أقصى ما وصل إليه الإبداع في أسلوب افتتاح القصائد في زمن الرسول ﷺ، فلو كان القرآن من صنع البشر، لانعكست عليه هذه الأسلوب، وهذه المواضيع الجاهلية.

فأما من حيث المواضيع، فإنها كانت مقتصرة على تمجيد الشاعر لقبيلته، وتعصبه الأعمى لها، وهجائه للقبائل الأخرى، فجاء القرآن لينسف هذه العصبية القبلية من جذورها، معلناً أنه لا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى، رغم أن الرسول كان من أسرة هي قمة في الزعامة القبلية، فهو من قريش أشرف القبائل العربية، ومن بني هاشم أشرف بطون قريش، وكان جديراً ـ لو ألَّف كتاباً من تلقاء نفسه أو قام بدعوة خاصة به ـ أن يدافع عن الزعامة القبلية، وأن يتحدث بلسان عصبيتها.

ولكن المعجزة هي أن يقوم محمد الهاشمي القرشي بإلغاء المبادىء القبلية دفعة واحدة، وبإلغاء النظم التي قامت عليها حياة قريش الاقتصادية كنظام الربا وغيره، وذلك كله مضادّ لمصلحته ومصلحة أسرته وقبيلته.

إن الأفكار الثورية البشرية جميعها تنبع من البيئة التي كان يعيش فيها الثوار، وتتأثر بها كل التأثر. وعلى سبيل المثال، فإن الأفكار الاشتراكية ظهرت في القرن الماضي على يد كارل ماركس وغيره، متأثرةً بالثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا، والتي أدت إلى نشوء طبقة كبيرة من العمال، كانت تعاني من استغلال أصحاب المصانع.

ولكن أيّ دافع ـ غير الدافع الإلهي ـ يدفع الرسول الكريم إلى قلب أنظمة

قبيلته ذات العز والقوة والمنعة والرخاء الاقتصادي.

وأما الأسلوب الذي أتى به القرآن الكريم، فهو أيضاً أبعد ما يكون عن أساليب القصائد الجاهلية، التي تفتتح أبياتها بالغزل المصطنع لحبيب خيالي، وبمخاطبة صاحبين خياليين، مما لا ارتباط له قط بموضوع القصيدة الحقيقي.

فهذه سورة الفاتحة قد أتت خير افتتاح للقرآن الكريم، تبين مواضيعه الأساسية، وتمهِّد لها، وجاءت مترابطة الآيات، متناسقة المعاني، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بغيرها من السور، وذلك كله ثورة حقيقية على الأساليب السائدة، لا يمكن تفسيرها بالعوامل البشرية، بل هي آية إلٰهية واضحة، تتضافر مع غيرها من الآيات العديدة، لتؤكد صدق الدعوة المحمدية وانتمائها إلى الرسالات الإلٰهية.

□ الفاتحة والتربية والبرمجة:

سبق أن بيَّنت أن الفاتحة سورة تربية، إذ إن من أبرز معاني الرب (المربِّي)، والرب يخلق، كما في قوله تعالى في سورة العلق: ﴿اقرأ بٱسْمِ ربِّك الذي خَلَقَ﴾. والرب يعلِّم كما في قوله في نفس السورة: ﴿اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علَّمَ بالقلَمِ﴾.

والتربية والتعليم كما نعلم في أيامنا هذه، هما عملية «خَلْق»، فالمعلم أو المربِّي يتسلَّم الطفل «عجينة» ليِّنة، فيصوغ أو «يخلق» منها الرجل السويّ الفاضل.

ولا حرج علينا أن ننسب الخلق إلى غير الله تعالى، فقد نسب الله فعل «الخلق» إلى عيسى عليه السلام ـ وهو بشر مخلوق ـ في قوله تعالى: ﴿أنِّي قَدْ جِئْتُكُم بآيةٍ مِن ربِّكم؛ أنِّي أخلُقُ[1] لكُم من الطينِ كهيئةِ الطيرِ، فأنْفُخُ فيهِ فيكونُ

---

(١) ولكن الآية ربطت وقيدت الخلق بمشيئة الله وإذنه (الناشر).

طيراً بإذْنِ الله﴾ [آل عمران: ٤٩].

إن رب العالمين ـ المربي الأعظم ـ قد جعل سورة الفاتحة، إذ تتكرَّر على لسان المسلم في صلواته مراراً كل يوم؛ جعلها «برمجة» له، وما التربية إلا برمجة لكمبيوتر النفس البشرية، الذي أودعه الله في «قلب» كل إنسان.

وهذا القول يحتاج إلى بيان أفصِّله فيما يلي:

□ القلب والكمبيوتر:

إنَّ في جسم الإنسان قلباً واحداً، لكنَّ له وجهين اثنين:

أولهما: الوجه المادي، وهو الجهاز العضلي الذي يضخ الدم باستمرار إلى جميع أنحاء الجسم، حاملاً لكل عضو حصته من الغذاء، وطارحاً ما يتخلف عن تفاعلات الجسم من فضلات إلى أجهزة أخرى متخصصة في الطرح، كالجهاز البولي.

وثانيهما: وجه غير مادي، له ارتباط بالقلب المادي، وهو الوجه الذي تكرَّر ذكره في القرآن الكريم، وهو مستَقَرُّ الإيمان في الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُم﴾ [الحجرات: ٨].

وهو الذي قد يُصاب بالأمراض النفسية، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿في قُلوبِهم مَرَضٌ فَزادَهُم الله مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠]، وكما قال: ﴿فلا تَخْضَعْنَ بالقولِ فيطْمَعَ الذي في قلبِهِ مَرضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وهو الذي يطمئن بذكر الله: ﴿ألا بذكرِ الله تَطمئنُّ القُلوب﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا الوجه غير المادي له ارتباط بوجه القلب المادي: ألا ترى أن الخوف ـ وهو شيء نفسي غير مادي ـ إذا وقع في الوجه غير المادي، أثَّر في القلب المادي، فجعله يسرع في نبضه وخفقانه؟

أولا ترى أن الحياء إذا وقع في وجه القلب الغيبي، جعل القلب المادي العضلي يبعث بفائض من الدم إلى الخدَّين فيحمرَّان ويتورَّدان؟

ويسبب هذه العلاقة الوثيقة بين الوجه المادي والوجه الغيبي، فقد قرن الله بينهما كما في قوله تعالى: ﴿فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ، ولكنْ تَعْمى القُلوبُ التي في الصُّدُور﴾ [الحج: ٤٦]. فعمى القلب هنا عمىً معنوي، وليس عمىً مادياً، مما يشير إلى أن القلب المقصود هنا هو وجه القلب الغيبي لا المادي.

ووجه القلب الغيبي هو موطن العواطف من رعب ورحمة وحسرة وألفة. وذلك كما في الآيات التالية: ﴿سَنُلْقِي في قُلوبِ الَّذين كفرُوا الرعبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ﴿وجعلنا في قلوبِ الذينَ اتَّبَعوهُ رأفةً ورحمةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ﴿ليجعَلَ الله ذلك حسرةً في قلوبِهِم﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ﴿لو أنفقْتَ ما في الأرضِ جَميعاً ما ألَّفْتَ بينَ قُلوبِهِم﴾ [الأنفال: ٦٣].

□ القلب والعقل:

لما كان القلب مستقر العواطف الإنسانية، ولما كانت هذه العواطف هي الدوافع التي تدفع القلب إلى تسخير الجسد لمتطلباتها، فإن القلب يلجأ إلى جهاز متطور، يُعينه في معظم الأحيان على تحقيق أهدافه. هذا الجهاز المتطور هو العقل، الذي له ارتباط بالدماغ المادي.

ولأضرب مثلاً:

عندما يواجه الإنسان عدواً خطراً يهدِّد حياته أو رزقه، فإن الخوف الذي موطنه القلب، يدفع قلبه إلى البحث عن حل لهذه المشكلة التي تواجهه، وحينئذ يلجأ القلب إلى العقل مستنجداً به، لعله يجد عنده الحل المنشود، ويستثير ما اختزنه العقل من أحداث في ذاكرته، موازناً بينها وبين الموقف الحرج الذي يواجهه الآن، مستقرئاً ومستنتجاً، فإذا وجد العقل الحل المناسب، كان القلب

هو الذي (يعي) هذا الحل، ويقبله، أو يرفضه.

وما العـلاقة بين العقل والقلب إلا كالعلاقة بين الآلة الحاسبة والإنسان الـذي يستعملها، فيصحّ أن نقول: إن الآلة الحاسبة هي التي (تحسب) حين استعمالها في عملية حسابية، كما يصحّ أن نقول إن الإنسان هو الذي يحسب عن طريق الآلة الحاسبة. وبنفس الطريقة، يصحّ أن نقول: إن العقل هو الذي (يحلّ) المشكلة، كما يصحّ أن نقول: إن (القلب) هو الذي يحلها.

لذلك نجد كثيراً من الآيات القرآنية تذكر أن القلب هو موطن التفكير أو العقل أو الفقه. ذلك لأن العقل آلة مسخّرة للقلب، والقلب هو الكائن الواعي الحقيقي الذي يحرِّك العقل ويستثيره ليعمل على حل المشاكل. فقد قال تعالى: ﴿لهُم قُلوبٌ لا يَفْقَهـونَ بهـا﴾ [الأعـراف: ١٧٩]، وقـال: ﴿أفَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يعقِلونَ بها﴾ [الحج: ٤٦].

ويمكننا تشبيه الإنسان بما فيه من أجهزة رائعة، كالقلب والعقل وغيرها، بالآلة المذهلة التي اخترعت حديثاً، وهي الكمبيوتر، الذي يمكننا أن نخزن فيها معلومات هائلة بطرق الكترونية، وأن (نبرمجها) بالضغط على أزرار معينة، بحيث تجيب عن أسئلة معينـة تتعلق بهـذه المعلومات المختزنة، أو تصدر أوامر إلى أجهزة أخرى لتنجز عملاً ما أو توقف عملاً غير مرغوب فيه، وذلك في ظروف معينة يواجههـا الكمبيوتـر، بما له من أعضاء تشبه الحواس عند الإنسان. فلمراكب الفضاء مثلاً كمبيوتر خاص بها، يبرمج على توجيهها التوجيه الصحيح نحو الهدف المنشود، وعلى إرسال المعلومات الخاصة بأوضاعها إلى العلماء المقيمين على الأرض، كدرجة الحرارة وارتفاع المركبة عن الأرض ووجود أجسام أخرى على مقربة منها، فيصدر الكمبيوتر الأوامر إلى أجهزة أخرى معينة، لتبعد المركبة عن هذه الأجسام، حتى لا تصطدم بها.

وقد بدأ العلماء بعد اختراع الكمبيوتر، يعرفون عظمة خلق الله، إذ وازنوا الكمبيوتر بما خلق الله من كائنات حية، من بينها الإنسان، فوجدوا أن هذه المخلوقات إن هي إلا كمبيوترات رائعة، متطورة جداً، يمكن اختزان المعلومات والتجارب فيها، ثم استصدار ردود فعل معينة منها بعد التأثير فيها بمؤثرات معينة.

فهذا مقال عنوانه «أنظمة التحكم بواسطة الحيوانات»[1]، يذكر فيه الكاتب طرقاً حديثة لتلقين «الطائر مهارات عديدة، فيصبح آلة حاسبة (كمبيوتر) بيولوجية، يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كاملاً، ولا يتجاوز ثمنها مع ذلك دولارين». ويعرض فيه الكاتب طرق تدريب حمامة لتصبح (كمبيوتراً) يستخدم لتوجيه صاروخ نووي أو مركبة فضائية.

وهذا مقال آخر عنوانه «تعلّم الطفل وهو جنين»[2]، يفتتحه كاتبه بقوله: «طفلك؛ هذا الكمبيوتر الصغير».

فيمكننا القول ـ إذن ـ: إن الإنسان (كمبيوتر إلهي)، وهو الذي صنع الكمبيوتر المادي الآلي، الذي بدأ يسيطر على جميع المرافق في الأرض. ولكن؛ أين على التحديد يقع من الإنسان جهاز الكمبيوتر الحساس القابل للبرمجة؟

إنه وجه القلب الغيبي، الذي يقع تحت تصرفه القلب المادي العضلي، وسائر أعضاء الجسم.

وأرى أن وجه قلب الإنسان الغيبي من حيث البرمجة قسمان:

أ ـ قسم قد سبق أن برمجه الله بنفسه، فهو إذا تُرك على طبيعته يتصرف

---

(١) للمهندس وسيم عبد الله ـ مجلة العربي الكويتية (آذار ـ ١٩٨٥).

(٢) للدكتور نبيل سليم علي ـ مجلة العربي الكويتية (ايلول ـ ١٩٨٥).

بموجب هذه البرمجة، وهو ما يسمِّيه الله (الفطرة)، كما في قوله تعالى ﴿فأَقِمْ وجْهَكَ للدينِ حَنيفاً فِطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها، لا تَبْديلَ لخَلْقِ الله ذُلك الدينُ القَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وكما في قول الرسول الكريم المتفق عليه: «ما مِن مولـودٍ إلا يولـدُ على الفـطرةِ، فأبـواه يُهـوِّدانِـه ويُنصـرانِـه ويُمجِّسانِه» «مشكاة المصابيح» رقم (٩٠).

ب ـ والقسم الآخر من (الكمبيوتر) القلبي قد شاء الله للإنسان أن يبرمجه الإنسان بنفسه، وهو مكان الاختيار في الإنسان، وهو هو موضعُ التربية، وعليه يُحـاسَب الإنسـان يوم القيامـة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها . وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وعلى نفس الخطَّة قسم الله جسم الإنسان المادي، فهناك أعضاء جسمية قد برمجهـا الله منـذ خلقهـا، فتعمل دون أن تخضع لإرادة الإنسان، كالجهاز الهضمي الذي يتسلَّم الطعام من الفم، فيُلقي عليه من المواد الكيماوية ما يشاء الله أن يلقي ـ دون أن يتـدخل الإنسان في ذلك ـ فينهضم الطعام، ثم يقذف الجهاز الهضمي الطعام المنهضم إلى الدم، ويقذف فضلاته إلى خارج الجسم. وكذلك الجهاز التَّنفسي الذي يقوم بعملية التنفس، حتى ولو كان الإنسان فاقد الوعي، نائماً، أو مغمى عليه.

وهناك أجهزة جسمية قد وضعها الله تحت تصرف الإنسان وإرادته، فيمكنه برمجتها، كبرمجة اليدين لتطبعا على الآلة الكاتبة، فيصبح بإمكان الطابع القيام بالـطبـع على الآلـة دون تفكير في الطباعة، فتراه يحادث إنساناً آخر في أثناء الطباعة دون أن يخطىء.

□ الإيحاء والتلاوة أزرار برمجة القلب:

من المعـروف أن تلاوة عبارات معينة في أوضاع جسمية ونفسية معينة،

توحي إلى القلب ببرمجة معينة، وتكسبه نوازع قلبية معينة. ومثال ذلك الصلاة، فإن المصلي يتخذ إجراءات جسدية تساعد على هذه الإيحاءات المبرمِجة، فيتطهر ويتوضأ ويتطيب قبل الصلاة، ويخلي قلبه من المشاغل الدنيوية، ليكون مستعداً لتلقي الإيحاء، ثم يأخذ في تلاوة الفاتحة (أو يسمعها من الإمام)، التي تؤلف كلماتها «أزراراً» تبرمج القلب، مخزِّنةً فيه المعاني السامية، وموحيةً إلى قلبه بالعواطف الكريمة، وحاثَّة إياه على السلوك الصحيح الموصل إلى السعادة الأبدية.

ولنستعرض الآن المعاني التي تُبرمِج بها تلاوة الفاتحة قلبَ المصلي.

أ ـ الرحمن الرحيم؛ برمجة على التفاؤل والرحمة:

إن أول ما يقع من أسماء الله الحسنى في القلبَ المعرّض للبرمجة بالفاتحة هو الاسمان الكريمان: ﴿الرحمن الرحيم﴾، وذلك في البسملة. ثم يتكرران في الآية الثالثة، وهما مفعمان بالرحمة، وبذلك يتكرر إيقاع الرحمة على القلب أربع مرات في كل تلاوة للسورة، ويبلغ ذلك ثمانياً وستين مرة على الأقل في الصلوات الخمس اليومية المفروضة.

ولهذا التكرار أثران مبرمجان للقلب:

أولهما: برمجة قلب المسلم على الشعور بالرحمة تجاه الناس جميعاً، وهو من الأهداف الأساسية للدين الإسلامي. وتؤيد ذلك الأحاديث النبوية الشريفة التي منها قوله ﷺ: «لا يرحمُ اللهُ مَنْ لا يرحَمُ الناسَ». متفق عليه، «مشكاة المصابيح» (رقم ٤٩٤٧)، وقوله: «مَن فرَّجَ عن مسلم كُربة، فرَّجَ اللهُ عنه كربةً مِن كربات يوم القيامة، ومَن سَتَرَ مسلماً ستره الله يوم القيامة». متفق عليه، «مشكاة المصابيح» (رقم ٤٩٥٨)، وقوله: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء». «مشكاة المصابيح» (رقم ٤٩٦٩).

الثاني: وثاني هذين الأثرين، الثقة برحمة الله: ﴿إنَّ رحمَةَ الله قريبٌ مِن المُحْسِنينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهذا يبرمج قلب المسلم على التفاؤل الدائم، مهما ادلهمَّ ليل المصائب أو الفتن، ويصدّ اليأس عن التسرب إلى القلب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنَّهُ لا ييْأَسُ مِن رَوْحِ الله إلا القومُ الكافِرونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقوله: ﴿ومَنْ يَقْنَطُ مِن رحمةِ ربِّهِ إلا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقوله: ﴿لا تَقْنَطوا مِن رحمَةِ الله إنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿ورَحْمَتي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فليس في الإسلام مكان للتشاؤم، إنْ أخطأْتَ ـ والخطأ أمر طبيعي أصيل في الإنسان ـ فانهضْ من كبوتك فوراً، واعمل على إصلاح ما أفسدتَ، فالخطأ مردود، والله غفور رحمن رحيم.

ويؤكِّد سعة رحمة الله الحديث القدسي الشريف القائل: «إن رحمتي سبقت غضبي». متفق عليه. «مشكاة المصابيح» (٢٣٦٤)، كما يؤكدها قوله ﷺ: «إن لله مئةَ رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجنِّ والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر تسعاً وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة». متفق عليه. «مشكاة المصابيح» (٢٣٦٥).

*** الرحمن الرحيم: هل من فرق؟**

وهنا؛ لا بد من وقفة نناقش فيها الفرق بين صفتي الرحمن والرحيم.

لقد اختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ في ذلك، فبعضهم قال: إن «الرحمن» تعني أن الله يرحم الناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم؛ في الدنيا والآخرة. وأما الرحيم، فتعني رحمته تعالى للمؤمنين وحدهم في الدنيا والآخرة. ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وكانَ بالمؤمِنينَ رَحيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وينقض هذا القولَ قولُه تعالى: ﴿إنَّ الله بالنَّاسِ لرؤوفٌ رحيم﴾ [الحج: ٦٥]، فالرحيم يشمل الناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم.

ومن المفسِّرين مَن قال: إن أحد الاسمين «أرقّ من الآخر، أي أكثر رحمةً». ـ كما ذكر القرطبي ـ، أو أن «أحدهما أرفق من الآخر». ومنهم من قال: إن الله تعالى قد جمع بين الاسمين لمجرد (التوكيد). وكلها أقوال غير مستساغة.

*** الرحمن... المربي ذو الهيبة:**

وقد لاحظت فرقاً دقيقاً وواضحاً بين ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ حين استعراضي للاسمين الكريمين في كتاب الله، فصفة الرحمن ـ والله أعلم ـ تعني المربِّي الذي يرحم مربَّاه، لكنه لا يتركه يطمع طمعاً مطلقاً في رحمته، بل يتجلى عليه بصفات جلاله وعظمته، ليوقع في نفسه الخوف منه والمهابة له. وذلك من المبادىء العامة في التربية، التي تفيد أن المربي لا بدَّ أن يجمع بين الرحمة والهيبة، ليستطيع توجيه مربَّاه التوجيه السليم.

فكلمة ﴿الرحمن﴾ هنا تعني بمفردها، ما يعنيه قوله تعالى: ﴿نَبِّىءْ عبادي أني أنا الغَفورُ الرحيمُ، وأنَّ عَذابي هُو العذابُ الأليمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقد أوحت إلي بهذه الفكرة المواطن التالية في كتاب الله:

١ ـ ﴿يا أَبَتِ إنِّي أخافُ أن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِن الرَّحمٰنِ فتَكونَ للشَّيْطانِ وليّاً﴾ [مريم: ٤٥]. فهذه الآية التي وردت على لسان إبراهيم ﷺ، تفيد أن للرحمن عذاباً يوقعه بالعصاة، فلا تخلو صفة الرحمن من الشدة.

٢ ـ ﴿وخَشَعَتِ الأصْواتُ للرَّحْمٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، فهذه الآية تفيد أن أصوات الخلق جميعاً تخشع وتصمت هيبةً من (الرحمن)، وخوفاً من عظمته.

٣ ـ ﴿أأتَّخِذُ مِن دونِهِ آلِهَةً إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بضُرٍّ لا تُغنِ عَنِّي شَفاعَتُهم شَيئاً

ولا يُنْقِذونَ﴾ [يس: ٢٣]، فالرحمن يصدر عنه (الضُّر) لمن يشرك بربه آلهة أخرى.

٤ ـ ﴿إذا تُتْلى عليهِم آياتُ الرحمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾ [مريم: ٥٨]. فالأنبياء والصالحون عندما يستمعون آيات «الرحمن» يشعرون بالخوف والهيبة من «الرحمن»، فيخرّون ساجدين باكين.

٥ ـ ﴿قل مَن يكلَؤُكُم بالليلِ والنَّهارِ مِن الرحمٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، أي: مَن يحميكم من «عذاب الرحمن» بالليل والنهار؟

٦ ـ ﴿إنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ الرحمٰنَ بالغَيْبِ﴾ [يس: ١١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿هٰذا ما توعَدونَ لكُلِّ أوَّابٍ حفيظٍ . مَن خَشِيَ الرحْمٰنَ بالغيبِ وجاءَ بقَلْبٍ منيبٍ﴾ [ق: ٣٢ ، ٣٣]. فهاتان الآيتان تفيدان أنَّ في الرحمن ما يبعث على الخشية والخوف.

٧ ـ ﴿إنّي أعوذُ بالرَّحْمٰنِ منكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]. وقد وردت هذه الآية على لسان مريم، حينما شاهدت الملك الذي أرسله الله إليها، ليبشّرها بولادتها للمسيح عليه السلام، فخافت منه، ظانَّةً أنه يريد بها سوءاً، فاستعاذت منه «بالرحمن» لعلمها أن في اسم «الرحمن» ما يبعث الخوف في نفس هذا الرجل المقتحم عليها وحدتها، فيردعه عن إيذائها. ويؤيد ذلك قولها له: ﴿إنْ كنتَ تَقِيًّا﴾، أي: إن كنت تخشى الله، فالتقوى هي خشية الله، ومخافته، وما يترتب على ذلك من سلوك.

كما يتجلى عنصر «الرحمة» في الرحمن هنا أيضاً، إذ تطلب مريم من الرحمن أن يرحمها، فيحميها من ذلك الرجل المجهول.

٨ ـ ﴿أنْ دَعَوا للرحمنِ ولداً . وما يَنْبَغِي للرحمنِ أن يَتَّخِذَ ولداً﴾ [مريم: ٩١، ٩٢]. كيف يمكن للرحمن ذي الهيبة أن يتخذ ولداً؟ كيف يمكن له ـ جلت

عظمته ـ أن يشارك الحيوانات والحشرات في صفة التوالد والتكاثر. .!؟ التي هي من أبرز صفات الضعفاء؟ فهي تعني الموت والعجز: فما التوالد إلاّ وسيلة خلقها الله نفسه للمخلوق الميت الذي يموت ويفنى، فيخلفه ولده ليعمر هذه الأرض، ثم يموت الولد بدوره، فيخلفه أولاده.

وما يليق التوالد والولد إلا بالمخلوق الضعيف الذي يصيبه الهرم في أواخر حياته، فيحتاج إلى ولد يُعينه على أمور حياته بعد أن يقع في العجز والضعف.

أما الله ـ جل جلاله ـ فلا ينبغي له أن يكون له ولد، لأنه غنيّ عنه، وهو سبحانه يُعين ولا يُعان، ويحيي ويميت ولا يموت. فمن نسب له تعالى الولد، كان كمن يحاول إسقاط هيبة الله، وإنكار عظمته بتشبيهه بصفات الضعف والموت التي تصيب خلقه.

وهكذا نجد أن اسم «الرحمن» يتضمن ـ إلى جانب الرحمة ـ شيئاً من الشدة التي تبعث في النفوس الخشية والرهبة. ولا بدّ لكل مُرَبٍّ من الجمع بين الرحمة والهيبة لاجتذاب مَن يربيهم وردعهم عن العدوان في آن واحد.

أما اسمه تعالى «الرحيم»، فيشير إلى رحمته تعالى الصافية، الخالية من كل شدة، لذلك نراها في معظم مَواطن ورودها مقترنة بالمغفرة والتوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وتُبْ علينا إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرحيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقوله: ﴿واسْتَغْفِروا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿واسْتَغْفِروا ربَّكُم ثم توبوا إليهِ إنَّ رَبِّي رحيمٌ ودودٌ﴾ [هود: ٩٠].

والمؤمن يخشى ربَّه في الدنيا، ويلقى فيها بعض المصائب الأليمة، التي هي في باطنها رحمة حقيقية، إذ تصقل نفس المؤمن، وتطهّر قلبه لتؤهله لدخول الجنة، مستقر رحمة الله، التي لا خوف فيها ولا حزن: ﴿يا عِبادِ لا خوفٌ عليكُم اليومَ ولا أنتم تحزنونَ﴾.

ب ـ الحمد لله . . والتفاؤل أيضاً:

إن عبارة «الحمد لله» تعني أن الحمد، كل الحمد، لله وحده. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: (اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله)».

فنحن إن حمدنا إنساناً على صفة حسنة فيه، فإنما نحمد الله تعالى الذي وهبه هذه الصفة الحسنة، وإن حمدنا رجلاً على عمل صالح قام به، فإنما نحمد الله الذي آتاه التمييز بين العمل الصالح والعمل الطالح، وآتاه القدرة على فعل الصالح، فلا أحد إلّا الله يستحق الحمد الحقيقي.

والناس يحمدون الإنسان في حالتين:

الحالة الأولى: يحمدونه إذا قام بعمل نفع فيه غيره، كصدقة، أو مساعدة على شفاء مريض، أو إنقاذ من غرق، أو حريق. . إلخ.

الحالة الثانية: يحمدونه على صفات حسنة فيه، ولو لم يستفيدوا منه شيئاً، فيحمدونه مثلاً لجماله، أو حسن أخلاقه، أو لبراعته في علم من العلوم، فيذكرون ذلك دائماً في غدواتهم وروحاتهم.

وكذلك الله جل جلاله ـ ولله المثل الأعلى ـ فإنه يُحمد على إحسانه إلى خلقه، ورحمته لهم بصورة خاصة، أو بصورة عامة. ومثال حمده على رحمته الخاصة قوله تعالى في قصة نوح ﷺ: ﴿فَقُلِ الحمدُ لله الذي نَجَّانا مِن القومِ الظالِمينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقوله تعالى في قصة إبراهيم ﷺ: ﴿الحمدُ لله الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فهاتان رحمتان خاصتان بهذين النبيين الكريمين.

ومثال حمده تعالى على إحسانه إلى خلقه ورحمته لهم بصورة عامة، قول أهل الجنة: ﴿الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عنَّا الحَزنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالَمين﴾، أي: مربي الخلق كلهم وراعيهم وراحمهم.

ويُحمَد جل جلاله على صفاته الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿وقُلِ الحمدُ لله الذي لم يَتَّخِذْ ولداً ولَمْ يَكُنْ لهُ شَريكٌ في المُلْكِ ولم يَكُنْ لهُ وليٌّ من الذُّل﴾ [الإسراء: ١١١]، فهنا يُحمَد الله تعالى على وحدانيته المطلقة، التي هي من صفاته الحسنى. وكما في قوله: ﴿الحمدُ لله الذي لهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ [سبأ: ١]، فهنا نحمده تعالى على أنه مالك كل شيء. وكما في قوله: ﴿الحمـدُ لله الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فهنا يُحمد الله تعالى على قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض، وإبداعه في خلق الظلمات والنور.

إن كون ربنا جل جلاله حميداً مالكاً للصفات الحسنى جميعاً، يبعث في نفسنا كل الأمل والتفاؤل، ومجرد تلاوتنا لعبارة ﴿الحمد لله﴾ تبرمج قلوبنا على الثقة بالله صاحب الصفات الحسنى الكريمة، التي جاءت كلمة ﴿رب العالمين﴾ لتشير إليها. فكلمة الرب تتضمن مجموعة كبيرة من أسمائه تعالى وصفاته، فالرب هو السيد والمالك والمربي، وحتى يكون مربياً، فهو لا بدّ أن يكون «رحيماً» بمن يربّي، قديراً عليماً حكيماً براً رؤوفاً ودوداً كريماً لطيفاً صبوراً على أخطاء من يربيه، غفوراً له تواباً عليه، خبيراً بنفسه وما انطوت عليه من قدرات ونقائص.

فانظر كم من الأسماء الحسنى قد جمعتها كلمة «الرب»، وانظر كيف أتت كلمتا «رب العالمين» بعد «الحمد لله» لتشيرا إلى أن الله تعالى يستوجب الحمد كله لما تتصف به ذاتهُ العلية من أسماء حسنى عديدة حوتها كلمة «الرب» الجامعة، فَوَضْعُهما متتاليين من أبدع أمثلة الإحكام القرآني وأروعها..

جـ - ربّ العالمين . . وسعة الأفق :

وصفت السورة الكريمة الله تعالى بأنه ﴿رب العالمين﴾، ولم تصفه بأنه ﴿رب المسلمين﴾ وحدهم. وهذه برمجة لقلب المسلم على سعة الأفق، وعلى التحرر من ضيق النظر، فالخلق كلهم عيال الله. ومن نقائص اليهود أنهم يرون الله «إله إسرائيل» وحدهم، وأنهم وحدهم «شعب الله المختار».

وفيما يلي حديث شريف متفق عليه يدل على احترام الرسول ﷺ لغير المسلمين من أهل الذمة. فعن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: كان ابن حُنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمُرَّ عليهما بجنازة فقاما. فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: إن رسول الله ﷺ مرّت به جنازة، فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفساً»؟ «مشكاة المصابيح» (رقم ١٦٨٠).

فانظر كيف قام النبي الكريم عندما مرت به جنازة يهودي احتراماً لحادثة الموت التي تصيب كل نفس إنسانية مهما كان دينها، فهي إحدى رعايا ﴿رب العالمين﴾.

وفي الحديث المتفق عليه أن الرسول ﷺ قال: «لا يَرحم اللهُ من لا يرحم الناس» «مشكاة المصابيح» (رقم ٤٩٤٧). فانظر إلى استعماله ﷺ كلمة «الناس» التي لا يقتصر معناها على «المسلمين» وحدهم، بل هي تشمل غير المسلمين أيضاً.

وفي حديث آخر صحيح: «خير الجيران عند الله خيرهم لجاره» «مشكاة المصابيح» (رقم ٤٩٨٧)، فهنا لم يخصّص الجار بالجار المسلم، بل أطلقها لتشمل كل جار مهما كان دينه.

برمجة أخرى لقلب المسلم تقوم بها كلمة «العالمين» . . أي العوالم التي

خلقهـا الله، وهي كما يقول ابن كثير نقلاً عن ابن عباس تشمل «الخلق كله: السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم». ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿قالَ فرعَونُ وما ربُّ العالَمينَ؟ قال رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما إنْ كنْتُم موقنين﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

وينقـل ابن كثير عن بعضهم أن ﴿العـالمين﴾ تشمـل سبعـة عشر ألف عالم. . وهذا يذكِّرني بحديث علمي سمعته من إحدى الإذاعات، جاء فيه أن العلماء وضعوا قطرة واحدة، نعم واحدة فقط، من ماء البحر تحت المجهر، فرأوا فيها خمسين ألف نوع من الكائنات البحرية. .

إنها لفظة ﴿العالمين﴾ تبرمج قلب المسلم على اتساع الأفق، على توقع ظهور عوالم كانت خفية مستترة، فَخَلْقُ الله ليس له نهاية ولا حدود: ﴿ولَو أنَّ ما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِن بعدِهِ سبعَةُ أبحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلماتُ الله﴾ [لقمان: ٢٧].

وهذا تمهيد لقوله تعالى فيما بعد: ﴿مالك يوم الدين﴾، الذي يعني أن هناك عالماً آخر سيظهر ويتجلى يوم القيامة، هو عالم الآخرة الذي يُحاسَب فيه كل إنسان على عمله الدنيوي.

*** رب العالمين. . برمجة للحث على التفكير:**

إن في كلمتي ﴿رب العالمين﴾ وحدهما دعوة إلى الفكر الإنساني للتأمل في بعض هذه العالمين التي يراها أمامه. فإن العقل بعد أن يجيل نظره في هذا الكون الماثل أمامه، مستقرئاً ومستنتجاً، موازناً ومدققاً، لا بدّ له من الإيقان بأن لهذا الكون خالقاً مدبّراً ورازقاً مُسيّراً، أي «رباً»، فلا بدَّ للعالمين من «رب».

وهـذا الاتجـاه العقلاني للإيمان بالله، من خصائص الدين الإسلامي، ونجـد تفصيله في كثير من آيات القـرآن الكـريم كقوله تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ

السماواتِ والأرضِ لآياتٍ لأولي الألبابِ . الذينَ يَذْكُرونَ الله قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهم ويَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سبحانَكَ فقِنا عذابَ النارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

ادرس الكون دراسة علمية عقلية، ادرس جسمك وباطن نفسك: ﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقِنينَ . وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرونَ﴾؟ [الذاريات: ٢٠ ، ٢١].

انظر إلى قلبك كيف ينبض موزعاً الدم على جميع أجزاء الجسم لتغذيته، ثم باعثاً الدم، بعد تلوثه بغاز الكربون، إلى الرئتين لطرح هذا الغاز إلى الهواء واستبدال غاز الأوكسجين النافع به.. انظر إلى كل جهاز من أجهزة الجسم المعقدة: الجهاز الهضمي والجهاز العصبي والجهاز العضلي.. والغدد والحواس، ثم انظر إليها كيف تعمل منسجمةً في خطط مذهلة منسّقة لتؤدّي وظائف معينة، تجتمع كلها في هدف عظيم واحد، هو حفظ حياة الفرد فترة من الزمن، ثم حفظ حياة نسله من بعده..

لا بدّ لهذا الجسم المعجز التركيب من «رب» يدبّر شؤونه. وكل من يحاول الانحراف عن هذا الاستنتاج الحتمي اليقيني، فإنما يستهزىء بعقله، بل ينكر عقله، ويلغي فعله، فينحط بذلك إلى درجة الجمادات التي لا تعقل، أو الحيوانات التي لا تفكّر.

وهكذا، فإن كلمتي ﴿رب العالمين﴾ تبرمجان القلب أيضاً على إعمال الفكر في هذا الكون، وتؤججان نشاط العقل للبحث في حقائقه العلمية، وسنن الله التي لا تتبدّل فيه.

د ـ مالك يوم الدين.. برمجة للقلب على الشعور بالمسؤولية:

إن تلاوة ﴿مالك يوم الدين﴾، وهو اليوم الذي يحاسب الله فيه كلّ إنسان

على عمله، تزرع في القلب الإحســاس بالمسؤولية عن كل عمـل يعمله في الدنيا، وتبرمجه على الحذر من الوقوع في الخطأ، وعلى الاهتمام بإصلاح هذا الخطأ إذا وقع فيه، ومحو آثاره من صفحة حياته، ومن سجلّ أعماله، طبقاً لقوله تعالى: ﴿إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذٰلك ذكرى للذاكِرينَ﴾ [هود: ١١٤].

*** مالك يوم الدين.. برمجة على العدل:**

من المعلوم أن الله يحاسب الناس يوم القيامة حساباً عادلاً لا ظُلم فيه، فقد أعلن الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ووَجَدوا مَا عَمِلوا حاضِراً ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿ونَضَعُ المَوازينَ القِسْطَ ليوم القِيامَةِ فلا تُظْلَمُ نفْسٌ شيئاً وإنْ كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أَتَيْنا بها وكَفى بِنا حاسِبينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

لذلك، فإن ترداد عبارة ﴿مالك يوم الدين﴾، لا بدّ أن يبرمج القلب أيضاً على العـدل، فيعـدل المسلم بين أولاده ذكـوراً وإنـاثـاً، ويعـدل بين القريب والغريب، طبقاً لقوله تعالى: ﴿وإذا قُلْتُم فاعْدِلوا ولو كانَ ذا قُرْبى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا كُونوا قَوَّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ لله ولو عَلى أنفُسِكُم أو الوالدَيْنِ والأقرَبيـنَ. إنْ يَكُنْ غنياً أو فقيراً فالله أولى بهِما. فلا تَتَّبِعوا الهوى أن تعدِلوا﴾ [النساء: ١٣٥].

هـ ـ إياك نعبدُ.. والبرمجة على الحب والخوف:

إن صفة «الرب» حوت نوعين من الصفات الحسنى الإلهية، هما صفات الجمـال وصفات الجلال. فصفات الجمال، مثل الرحيم، الكريم، الخالق، المصوّر، بديع السماوات والأرض ـ تبعث في نفس الإنسان الحب لله، وخاصةً عندما يجيل نظره في «العالمين» الماثل بعضها أمامه، فيرى النجوم المتلألئة في السماء، ويشاهد الحدائق ذات البهجة وما فيها من أزهار فواحة الشذا، زاهية الألـوان، والأشجـار الخضراء اليانعة ذات الثمار الشهية، ويسمع أنغام الطيور

المتنقلة بين أغصانها ـ كل ذلك يملؤه إعجاباً بمبدعها وحباً له.

أما صفات الجلال، مثل: القوي، العظيم، الجبار، فتملأ النفس هيبة وخشية، وخاصةً عندما يشاهد الشموس الضخمة (النجوم)، وما يتبعها من كواكب وأقمار، وهي تسير بسرعات هائلة، لا تتصادم ولا يتعدى بعضها على بعض، ولا تختل مواقيت شروقها وغروبها، أو عندما يشاهد الإنسان القوارع والمصائب التي تصيب الناس من زلازل وبراكين وغيرها.

وكلا الباعثين الناتجين عن صفات الجمال وصفات الجلال الإلٰهية ـ وهما حب الله وخشيته ـ يسوق النفس إلى طاعة الله واتِّباع أمره. ففي الحب قال تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّون الله فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُم الله﴾ [آل عمران: ٣١]. فالاتباع والطاعة نتيجة لحب الإنسان لربه، وقديماً قالوا: «إنَّ المحبّ لمن يحبُّ مُطيعُ».

وأما خشية الله فتؤدّي أيضاً إلى اتِّباع أمره وطاعته. وقد قرن الله تعالى بين الاتباع والخشية في قوله عزّ وجل: ﴿إنَّما تُنْذِرُ مَن اتَّبَعَ الذِّكرَ وخشِيَ الرحمنَ بالغيبِ فبَشِّرْهُ بمغفِرَةٍ وأجرٍ كَريم﴾ [يس: ١١].

والخشية أو الخوف تدفع المؤمن إلى طاعة الله وعمل الصالحات، كما في الآية: ﴿يُوفونَ بالنَّذْرِ ويَخافونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطيراً. ويُطْعِمونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكيناً ويَتيماً وأسيراً. إنَّما نُطْعِمُكُم لوجهِ الله لا نُريدُ منكُم جَزاءً ولا شُكوراً. إنَّا نَخافُ مِن ربِّنا يوماً عَبوساً قَمْطَريراً﴾ [الإنسان: ٧ ـ ١٠].

فالحب لله والخوف منه يولدان في النفس شعوراً مشتركاً بالخضوع لله والطاعة لأمره، وهذه المشاعر كلها والأعمال الناشئة عنها هي حقيقة العبادة التي وردت في السورة ﴿إيَّاكَ نعبُدُ﴾، أي: لا نعبد أحداً سواك.

والعبادة في الأصل تنشأ عن التأمل في هذا الكون ـ في ﴿العالمين﴾ ـ مما

يؤدِّي إلى العلم بالله وخشيته: ﴿إنَّما يَخْشَى اللهَ من عبادِهِ العُلماءُ﴾، ومحبتهِ والإيمانِ به وبصفاته الحسنى.

أما مظاهر العبادة التي تنمّ عن تعظيم الله، فهي: الصلاة له، ودوام ذكره، والقيام بسائر العبادات؛ كالصيام، والزكاة، والحج. وهكذا نجد أن لفظة ﴿نعبد﴾ تتضمن أركان الإسلام الخمسة، فهي من جوامع الكلم التي امتازت بها سورة الفاتحة.

ومما يكمل العبودية لله، دعاؤه تعالى والاستعانة به: ﴿وإياكَ نستعينُ﴾.

وهذان الأصلان الكبيران ـ عبادة الله وحده والاستعانة به وحده ـ هما أصلا اتخاذه تعالى وحده إلٰهاً؛ قال تعالى: ﴿أمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاهُ ويَكْشِفُ السوءَ ويَجْعَلُكُم خُلَفاءَ الأرضِ؟ أَإلٰهٌ مَع الله؟ قليلاً ما تَذَكَّرونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وفي الآية التالية اقترن دعاء الله ـ أي الاستعانة به ـ بالألوهية: ﴿ومَن يَدْعُ مع الله إلٰهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لهُ بهِ فإنَّما حِسابُهُ عندَ ربِّهِ إنَّهُ لا يُفلحُ الكافِرونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وهكذا تبرمج الآية: ﴿إياك نعبدُ وإياك نستعين﴾ قلب المسلم على حب الله وخوفه واتباع أمره ودوام اللجوء إليه ودعائه.

و ـ إياك نعبد.. برمجة على الشعور الاجتماعي:

إن الآية نفسها ﴿إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ﴾ تبرمج القلب أيضاً على الشعور الاجتماعي، نافيةً منه الشعور الفردي الأناني الذي لا يُري الفرد إلّا مصلحة نفسه. ذلك أن الآية جاءت على صيغة الجمع: «نعبد، نستعين»، ولم تأتِ على صيغة المفرد: «أعبد، أستعين»، فهي توحي للمسلم بأنه جزء من جماعة، وبالشعور بأن مصلحته هي مصلحة هذه الجماعة، فهو يتكلم أمام ربه وربهم

بلسانهم جميعاً، معلناً خضوعهم جميعاً لأمره ﴿إياكَ نعبدُ﴾، وطالباً إليه تعالى أن يعين الجماعة كلها ﴿وإياكَ نستعينُ﴾. كما أن الآيات التالية ﴿اهْدِنا الصراطَ المستقيم﴾ تؤكد نفس هذا الشعور الاجتماعي.

وهكذا تبرمج الفاتحة قلب المؤمن على أنه جزء من جماعة، يشعر بشعورها، ويعمل على تحقيق مصلحتها. وهذا ما نحن أحوج إليه في مجتمعاتنا الحالية التي تسودها الأنانية الفردية، والتي قد يضحّي الفرد فيها بمصالح الأمة كلها في سبيل مصلحته الفردية، وقد يرتكب الخيانة العظمى، فيبيع قومه وأمته إذا قدّم له الأعداء الأموال المغرية، وقد يعطل مصالح الناس ـ إذا كان موظفاً ـ إلّا إذا قدّموا له الرشوة.

اهدنا الصراط المستقيم.. ونوعا الهدى:

للهدى معنيان: نظري وعملي. فالهدى النظري هو مجرد بيان الطريق الصحيح للناس، وأما الهدى العملي، فهو حمل طالب الهدى على سلوك الطريق الصحيح، ودفعه إلى ذلك دفعاً.

فمن نوع الهدى النظري قوله تعالى: ﴿وأما ثَمودُ فَهَدَيْناهُم فاسْتَحَبُّوا العمى على الهُدى﴾ [فصلت: ١٧]. فهنا بيّن الله لثمود على لسان رسولهم صالح ﷺ طريق الحق مجرّد بيان، وخيّرهم بين سلوكه أو تركه، فاختاروا هم تركه؛ ﴿فاسْتَحَبُّوا العَمى﴾.

ومن النوع الثاني قوله تعالى: ﴿فاهْدوهُم إلى صِراطِ الجَحيمِ﴾، فالملائكة لا يكتفون هنا طبعاً بمجرد بيان طريق الجحيم للكفار الذين استحقوا دخول النار، وإنما يجرونهم إليها جرّاً، ويقحمونهم إياها إقحاماً، كما في قوله تعالى: ﴿يومَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دعًّا﴾ [الطور: ١٣]، وقوله: ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمونَ بِسيماهُم فيؤخَذُ بالنَّواصي والأقدامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

فهنا تمسك ملائكة العذاب بالمجرمين من أقدامهم وشعر مقدّم رؤوسهم، ثم يقذفون بهم في النار.

ومن النوع الثاني العملي للهدى أيضاً قوله تعالى: ﴿وما أنتَ بهادي العُمْيِ عن ضَلالَتِهم﴾ [النمل: ٨١]، فالمعنى هنا أنك لن تستطيع عملياً أن تحمل الضالين على سلوك طريق الهدى حملاً، وقوله: ﴿ولَوْ شِئْنا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿ليسَ عليكَ هُداهُم﴾ [البقرة: ٢٧٢].

أيطلبون الهدىٰ.. وهم مهتدون؟!

وهنا يخطر سؤال يطرحه بعض السطحيين إذ يقولون: إذا كان بين يدي المسلم القرآن والسنة ـ وهما أساس الهدى وتفصيله ـ فهو مهتدٍ، فلماذا يطلب الهداية إذن قائلاً: ﴿اهدِنا الصراط المستقيمَ﴾.

وللإجابة عن هذا السؤال أعود بالقارىء إلى نوعي الهدى اللذين بيّنتهما قبل قليل، فالإنسان في حاجة ماسّة إلى كلا النوعين في أثناء كفاحه في خِضمّ هذه الحياة.

أما من حيث الهداية النظرية، فلقد بيّن الله لنا أساس العقيدة الصحيحة وتفصيلاتها، ولكن هناك أموراً عملية دينية مشتبهة، تطرأ على الإنسان، فيصعب عليه فيها الاهتداء إلى وجه الصواب، فهو في حاجة إلى هداية الله فيها، وبإلهام الله له يرى الحل الصحيح لما قد أشكل عليه.

كما أن هناك الشؤون الدنيوية من تجارة وصناعة وغيرها، التي قد يقف المرء فيها حائراً لا يدري أي طريق يسلك فيها، فهو يطلب من الله هدايته إلى الصواب في هذه الأمور، وخاصة لأن هذه الأمور الدنيوية قد يكون لها تأثير خطير في الأمور الدينية. فكم من فقر سبّب ضياعاً للدين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ومِن الناسِ مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ، فإنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطمأنَّ بهِ، وإنْ أصابتْهُ

فِتنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والآخرةَ، ذلكَ هو الخُسْرانُ المُبينُ﴾ [الحج: ١١].

ولذلك سنَّ رسول الله ﷺ صلاة الاستخارة لمن أراد أن يقوم بعمل ديني أو دنيوي مهم كزواج أو تجارة، فقبل القيام بمثل هذا العمل، فإنه يصلي ركعتين لله، يدعو بعدهما بدعاء خاص، يطلب فيه إلى الله أن يبيّن له طريق الصواب في الأمر الذي يهمّه؛ لأنه لا يعلم طريق الصواب إلا الله.

وأما من حيث الهداية العملية، فالمسلم يطلبها من الله، ويرجوه أن يحمله على طريق الهدى حملاً، ويجتذب قلبه وجوارحه إلى الإقبال عليه، وييسّر له سلوكه.

وهناك تفسير آخر لقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، وهو: «نسألك الثبات على الهدى»، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]. فهذه الآية معناها: (يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على إيمانكم).

ز ـ الصراط المستقيم.. والبرمجة على الالتزام:

هذا الكون الذي نشاهده، وهذه الحياة التي نعيشها، ظواهر، لا بد من تفسيرها ووضعها في إطار فكرة واحدة منسقة، أو «فلسفة» معينة، أو قل ـ إن شئت ـ «إيديولوجية معينة، تؤدّي بواضعها إلى رسم منهج معيّن، ينسجم مع هذه الإيديولوجية، داعياً الناس إلى سلوكه والعمل بتوصياته حتى تتحقق لهم السعادة، ويتجنبوا الشقاء.

وقد قدمت السورة في مطلعها هذه الإيديولوجية بأوجز عبارة، فبيّنت أن التفكير السليم يجزم بأن وراء هذه ﴿العالمين﴾ رباً واحداً هو خالقها ومدبّرها ومصلح أمورها، وأنه يُحمد على ذلك الحمد كله، فإن كل ذلك يصدُر عن صفاته

الحسنى، صفات الجمال والجلال، فهو لذلك جدير بأن نرتبط به أشد الارتباط وأوثقه، وأن نتقرب إليه كل التقرّب، إذ هو مالك أمرنا كله، وبيده وحده سعادتنا وشقاؤنا. فعلينا الالتزام بالمنهج الذي يخطّه لنا، والذي يطالبنا به، والذي يحقق لنا السعادة.

وهذا المنهج هو ﴿الصراط المستقيم﴾ الذي يجب علينا الالتزام به. وأول بنوده: ﴿إياك نعبد﴾؛ أي: عبادة الله وحده. والعبادات تفصّلها باقي سور القرآن الكريم، فالعبادات الرئيسية هي أركان الإسلام الخمسة من صلاة وصيام وزكاة وحج. وهناك عبادات أخرى تشمل طاعة الله في جميع ما أمر به، كالصدق والبر والإحسان والعدل بين الناس وغيرها، كما تشمل ترك ما نهى الله عنه من أكل الربا وارتكاب الفواحش وإيذاء الناس.

وهكذا فإن كلمتي ﴿الصراط المستقيم﴾ تبرمجان قلب المسلم على الالتزام بأبسط المناهج وأبعدها عن التعقيد وأقربها إلى العقل والفطرة، وأكثرها انسجاماً مع الواقع الحقيقي. الإسلام التزام، فليس فيه تسيّب ولا فوضوية، بل رجولة وتحمل مسؤولية.

أما الذين يعجزون عن وضع فلسفة حقيقية يفسرون بها ظواهر الكون والحياة تفسيراً علمياً واعياً، أو يتهربون من ذلك، بدافع أهوائهم الطاغية، وخوفاً من التقيّد بمنهج يُلجم نفوسهم المتسيّبة، فهؤلاء هم «المغضوب عليهم» و «الضالون» المنفلتون من قيود الأخلاق، الذين يظنون واهمين أن هذه القيود تعوق سعادتهم.

وها هي الوقائع العملية الصارخة تثبت أن التحلل من القيود الخلقية يؤدي إلى الشقاء. ونظرة إلى واقع الدول التي يسمونها متقدمة أو متحضرة، ترينا ما هم فيه من شقاء فعلي. فالمخدرات والمسكرات وانتشار الزنا في هذه المجتمعات،

أصبحت لعنة تحيق بها، وتقضّ مضاجع القائمين على تلك المجتمعات، إذ يحاولون إصلاحها، فلا تزيد إلا فساداً وانهياراً.

ويكفي للدلالة على ذلك أن أنقل بعض ما ورد في العدد ٣٢٢ من مجلة العربي الكويتية (أيلول ١٩٨٥) تحت عنوان «حرب شعواء على الخمر»، إذ قالت: «يخوض الاتحاد السوفييتي حالياً، ومنذ منتصف شهر مايو الماضي ١٩٨٥ حرباً واسعة النطاق ضد المشروبات الروحية وضد المدمنين عليها.. وحسبك أن عدد الوفيات بسبب الخمرة بلغ ٥١٠٠٠ نسمة سنة ١٩٧٨».

ما توحيه كلمة «المستقيم»:

إن كلمة «المستقيم» وحدها تثير في النفس وفي الذهن أفكاراً توجيهية خاصة، أفصّلها فيما يلي:

١ ـ إن «الصراط المستقيم» توحي إلى الذهن بالخط المستقيم، وهو هندسياً أقصر بُعد بين نقطتين. فالإنسان إذا سلك طريقاً مستقيماً بين مدينتين، فإنه يصل إلى المدينة التي يقصدها بأسرع وقت ممكن وبأقل جهد ممكن، فيوفّر على نفسه الوقت والجهد والمشقة. فكأنّ الآية الكريمة توحي إلى المسلم بالاقتصاد في حياته الدنيوية ومحاولة بلوغ أهدافه من أقرب طريق وأسرعه، وهو هدف تربوي أصيل.

٢ ـ إن الطريق الذي على الإنسان أن يسلكه لا بدّ له من هدف يصل إليه في نهاية الطريق. ومن مزايا الطريق المستقيم غير الملتوي أن سالكه يظلّ ناظراً إلى هدفه الذي في نهاية طريقه، إذ يبقى هذا الهدف مكشوفاً له دائماً، لا تحجبه أية التواءات.

أما هدف المسلم من سلوك الطريق فهو رضا الله تعالى: ﴿ففِرُّوا إلى الله إنّي لكُم مِنهُ نذيرٌ مُبينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

٣ ـ إن كلمة «المستقيم» توحي إلينا بالضوء، فإنّ من طبيعة الضوء أن يسير في خط مستقيم. فالنور والاستقامة متلازمان، فكأن «الصراط المستقيم» توحي إلى النفس بالخروج من الظلمات إلى النور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللهُ وليُّ الذينَ آمَنوا يُخرِجُهم من الظُّلُمات إلى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٤ ـ إن الخير يهبط إلينا من السماء إلى الأرض على خط مستقيم. فالمطر الذي هو سبب الحياة بأسرها في الأرض، يهبط بفعل قوة الجاذبية الأرضية على خط مستقيم. فكأنّ عبارة ﴿اهدِنا الصراطَ المستقيم﴾ تعني: «اهدنا طريق الخير والحياة والبركة».

٥ ـ والمستقيم يوحي بالثبات والاستقرار. فالّذي يسلك طريقاً مستقيماً «يثبت» على اتجاه «واحد» نحو هدفه، لا يغيّره قط. أما مَن يسلك طريقاً معوجّاً، فلا ينفك يغيّر اتجاهه بزوايا مختلفة. فكأن الآية تعني «اهدنا طريق الثبات والاستقرار».

ولا شك أن الثبات من الأخلاق والخصائص التربوية الأصيلة. وقد ورد معنى الثبات في كثير من آيات الكتاب الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ نزَّلَهُ روحُ القُدُسِ مِن ربِّكَ بالحقِّ ليثبِّتَ الذينَ آمَنوا﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿يُثَبِّتُ الله الذينَ آمَنوا بالقولِ الثابِتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إذا لقيتُم فِئةً فاثبُتوا﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقوله: ﴿كذلك لِنُثَبِّتَ بِهِ فؤادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

٦ ـ وبما أن السالك على صراط مستقيم يظل على اتجاه واحد لا يغيره، فإن ذلك يوحي بالوحدانية؛ وحدانية الله تعالى، وهي صفة عظمى من صفات الله الحسنى.

٧ ـ إن المستقيم يوحي أيضاً بالأسطر المستقيمة التي في الكتب، وخاصة

«الكتاب المسطور» الوارد في سورة الطور، وهو القرآن الكريم. فكأن الآية تعني: «اهدنا نهج القرآن الكريم».

٨ ـ من المعلوم أن الصلاة عماد الدين، وأن من شروط إقامتها أن يقف المسلمون في أثنائها في صفوف مستقيمة لا عوج فيها، وإن اختلاف صف المسلمين قد يؤدي إلى اختلاف قلوبهم، واستقامته تؤدي إلى اتحاد قلوبهم. فكأن الآية تحث المسلمين على توحيد قلوبهم وصفوفهم في جميع نواحي الحياة. ومن أمثلة ذلك توحيد صفوف المسلمين حين يقاتلون أعداءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِهِ صفّاً كأنَّهم بُنيانٌ مَرصوصٌ﴾ [الصف: ٤]. وتوحيد الصفوف في القتال من أسباب النصر، فكأن الآية تعني: «اللهم اهدنا صراط النصر على الأعداء».

٩ ـ إن المستقيم يوحي إلى المسلم بقوله تعالى: ﴿وزِنوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، أي: بالميزان الحق، وذلك يوحي إليه بأن يزن أعماله وأقواله كلها قبل أن تصدر عنه، أي أن يكون محاسباً لنفسه على كل قول أو عمل، وهو هدف تربوي عظيم.

١٠ ـ إن السير على صراط مستقيم يعني عدم الانحياز يميناً أو يساراً، وهذا يعني أحد أمرين:

أولهما: الالتزام بالحق والعدل.

وثانيهما: التوسّط في الأمور، وترك الإفراط والتفريط فيها. وقد عرّف الحكماء الفضيلة بأنها «وسط» بين رذيلتين متطرفتين. فالشجاعة مثلاً وسط بين التهور والجبن، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وكذٰلِكَ جَعَلْناكُم أُمَّةً وسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويتجلى ذلك في الموقف الإسلامي من المسيح عليه السلام، فهو موقف

التوسط والاعتدال والحق والعدل، فالإسلام يضع المسيح في موضعه الصحيح، إذ يراه نبياً ورسولاً كريماً: ﴿إِذْ قالتِ الملائكَةُ يا مَريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكَلِمَةٍ منهُ اسمُهُ المسيحُ عيسىٰ بنُ مريمَ وَجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المقرَّبين﴾ [آل عمران: ٤٥]، لكنه يراه بشراً كغيره من الرسل: ﴿ما المسيحُ بنُ مريمَ إلا رَسولٌ قد خلتْ مِن قبلِهِ الرسُلُ وأمُّهُ صدِّيقةٌ كانا يأكلانِ الطَّعامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وليس المسيح إلٰهاً أو ابن إله، كما غلت إحدى الطائفتين، وليس كذّاباً دجالاً كما ادّعت الطائفة الأخرى، وهم اليهود، الذين أنكروا نبوّته ورسالته ومعجزاته بالرغم من معرفتهم بها، وأرادوا قتله، وزعموا أنهم صلبوه، واتهموا أمه بالزنا.

كما أن الإسلام وسط بين الروحية المتطرفة التي تنكر حق الجسم المادي، والمادية المتطرفة التي تنكر حق الروح، فهو وسط بين من نادوا بالرهبانية، واتخذوها سبيلهم إلى الله، وبين اليهود الذين قاسوا الأمور كلها بالمقاييس المادية: فهم لا يؤمنون بالله تعالى إلَّا إذا رأوه بأعينهم المادية: ﴿وإذْ قُلْتُم يا موسى لَنْ نؤمِنَ لك حتى نرى اللهَ جهرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. كما أن اليهود كانوا يقيسون الرجال بمقياس الأموال والثروات المادية. فالغنيّ عندهم هو أولى من غيره بالزعامة. فقد اعترضوا على موسى ﷺ عندما أخبرهم بأن الله قد جعل طالوت ملكاً عليهم قائلين: ﴿أنَّى يكونُ لهُ المُلْكُ علينا ونحنُ أَحَقُّ بالمُلْكِ منهُ، ولم يُؤتَ سَعَةً مِن المالِ؟﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ولقد أجمع المفسرون على أن ﴿المغضوب عليهم﴾ هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى، وقد بينت سابقاً غلو هاتين الطائفتين، وتطرفهما بالنسبة إلى قضية نبوة المسيح، وبالنسبة إلى قضية الروحية والمادية. وأما الإسلام صاحب ﴿الصراط المستقيم﴾ فقد توسّط واعتدل بين ﴿المغضوب عليهم﴾ و

﴿الضالين﴾. وهذا من الترابط الرائع بين معاني هذه السورة الكريمة.

وقد عملت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على توعية المسلمين توعية تامة واضحة صريحة، وتحذيرهم من الانزلاق في هوة تأليه رسولهم ﷺ، كما انزلقت الأمم السابقة. فأكّدت بشرية الرسول ﷺ، وصدور بعض الأخطاء الرمزية عنه. وبيّن الكتاب الحكيم أن الرسول ﷺ لا يملك للناس ضراً ولا رشداً، فقال: ﴿قُل إنِّي لا أملِكُ لكمْ ضراً ولا رَشداً﴾ [الجن: ٢١]، بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً: ﴿قلْ إني لا أملِكُ لنَفْسي نَفعاً ولا ضَرّاً إلا ما شاءَ اللهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولقد أوضحت الفاتحة نفسها نفي الألوهية عما سوى الله، ووجوب عبادته وحده في الآية التي تتوسطها: ﴿إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين﴾، فلا عبادة إلا لله.

١١ ـ توحي كلمة «المستقيم» بدين إبراهيم الحنيف، أي: المستقيم، كما ورد في «تفسير ابن كثير». وقد قال تعالى: ﴿وقالوا كونوا هُوداً أو نَصارى تَهْتَدوا، قُلْ بَل مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِن المُشْرِكين﴾ [البقرة: ١٣٥].

وكأنَّ الآية تعني: «اهدِنا صراط إبراهيم الحنيف». وبذلك يربط الإسلام المسلم بأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ، بل بجميع الأنبياء والرسل وأتباعهم، فتطمئن نفسه إلى أن الشرائع السماوية جميعها سابقها ولاحقها صادرة عن مصدر واحد هو الله تعالى، وأن الإسلام يعمّ الرسل وأتباعهم كافة، كما قال تعالى: ﴿إذْ قالَ لهُ ربُّهُ: أَسْلِمْ، قال: أسْلَمْتُ لِربِّ العالَمينَ. ووَصّى بها إبراهيمُ بَنيهِ ويَعقوبُ: يا بَنِيَّ إنّ اللهَ اصْطَفى لكُم الدينَ فلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُم مُسْلِمونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢].

١٢ ـ كذلك توحي كلمة «المستقيم» بالذين «القيّم»، أي: المستقيم، كما في قوله تعالى: ﴿فأَقِمْ وجْهَكَ للدِّينَ حَنيفاً فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها، لا تبديلَ لخَلْقِ اللهِ ذلكَ الدينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فهنا ربط الله تعالى ألفاظ: «فأقم، حنيفاً، الدين القيّم»، بفطرة الله التي فطر الناس عليها. وهذه الألفاظ الثلاثة تعني الاستقامة، أي أن الاستقامة تعني «نهج الفطرة البشرية»، فكأن الآية تعني: «اهدنا طريق فطرتك التي فطرت الناسَ عليها».

خلاصة إيحاءات «الصراط المستقيم»:

وهكذا، تبيّنت لنا غزارة المعاني والأفكار التي توحي بها آية ﴿اهدِنا الصراطَ المستقيم﴾، فكأنها تعني في آنٍ واحد: اهدنا إلى أقرب الطرق إليك وأسرعها بحيث يكون هدفنا الأسمى ـ وهو أنت ـ واضحاً أمامنا لا يغيب عن بصائرنا. اهدنا إلى الطريق المنير، طريق الخير والبركة والحياة، طريق الثبات والاستقرار، طريق محاسبة النفس على أفعالها وأقوالها، طريق الوحدانية، طريق نهجك المسطور في كتابك الكريم، طريق توحيد قلوبنا، طريق النصر على أعدائك، طريق الحق والعدل والاعتدال والتوسط، طريق أبينا إبراهيم الحنيف، طريق فطرتك التي فطرتَ الناس عليها.

فاعجبْ لكلمات ثلاث أوحت بكل هذه المعاني السامية، مبرمجةً القلبَ على استيعابها والعمل بها.

ط ـ صراط الذين أنعمت عليهم: البرمجة بالترغيب:

لقد بيّنت سابقاً أن سورة الفاتحة وثيقة الاتصال بفكرة التربية، والتربية تقوم على الترغيب والترهيب، وهنا ذكرت السورة الذين أنعم الله عليهم على سبيل ترغيب المسلم بالاقتداء بهم. فلفظة ﴿أنعمت﴾ توحي بالنعيم ونعومة العيش الذي يلقاه الناجحون في امتحان الحياة بأسرها يوم القيامة.

فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟ ولماذا استحقوا هذا الإنعام؟

أنواع النعم الإلٰهية:

إن النعم الإلٰهية أنواع: فمنها الدنيوي المشترك بين جميع البشر؛ كالسمع، والبصر، والعقل، والرزق من أغذية حيوانية ونباتية وبيوت وملابس ودروع، وغيرها. وقد ورد ذكر هذه النعم في سورة النحل، في قوله تعالى: ﴿والله أخْرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعْلَمونَ شيئاً، وجَعَلَ لكُم السمعَ والأبصارَ والأفئِدَةَ لعلَّكُم تَشْكُرونَ. . والله جَعَلَ لكُم من بيوتِكُم سَكَناً، وجعَلَ لكُم من جُلودِ الأنعام بُيوتاً تَسْتَخِفّونَها يومَ ظَعْنِكم ويومَ إقامَتِكُم، ومن أصْوافِها وأوْبارِها وأشعارِها أثاثاً ومَتاعاً إلى حينٍ. والله جَعَلَ لكُم ممَّا خَلَقَ ظِلالاً، وجعَلَ لكُم من الجِبالِ أكْناناً، وجعَلَ لكُم سَرابيلَ تقيكُم الحرَّ وسَرابيلَ تقيكُم بأسَكُم، كذٰلك يُتِمُّ نعْمَتَهُ عليكُم لعلَّكم تُسْلِمون﴾ [٧٨ - ٨١].

ومن ذلك أيضاً جعله للناس أزواجاً وبنين وحفدة: ﴿والله جَعَلَ لكمْ من أنْفُسِكُم أزْواجاً، وجَعَلَ لكُم من أزواجِكُم بَنينَ وحفَدَةً ورزَقَكُم من الطَّيِّباتِ. أفبالباطِلِ يؤمِنونَ وبنِعْمَةِ الله هُم يَكْفُرونَ؟﴾ [النحل: ٧٢].

تلك هي النعم العامة لجميع البشر.

أما النعم الخاصة التي يختصّ الله بها بعض عباده، فهي أنواع: نعم دنيوية، ونعم أخروية، ونعم نفسية تصلح أن تكون دنيوية أو أخروية.

النعم الدنيوية:

ومنها حماية المسلمين من الأعداء، كما في الآية: ﴿اذْكُروا نعمةَ الله عليكُم إذْ هَمَّ قوْمٌ أنْ يَبْسُطوا إليكُم أيْدِيَهم فكَفَّ أيْدِيَهم عنكُم﴾ [المائدة: ١١]، وقوله: ﴿اذكروا نعمةَ الله عليكُم إذْ أنجاكُم مِن آل فرعون﴾ [إبراهيم: ٦]، وقوله: ﴿إنَّا أرسَلْنا عليهِم حاصِباً إلاّ آلَ لوطٍ نَجَّيْناهُم بسَحَرٍ. نِعْمَةً مِن عندِنا كذٰلِكَ نَجْزي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا أنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً

ويُتَخَطَّفُ الناسُ مِن حَوْلِهِم؟! أفبالباطِلِ يؤمِنونَ وبنعمةِ الله هُم يكفُرونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

النّعم النفسية:

وذلك مثل توحيد قلوب المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿واذْكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذْ كنتُم أعْداءً فألَّفَ بينَ قلوبِكُم فأصبحْتُمْ بنعْمَتِهِ إخواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فتوحيد القلوب يؤدّي إلى التعاون على البرّ والتقوى، وهي نعمة تؤدي إلى كسب الآخرة، كما أنّ توحيد القلوب يؤدي إلى الاتحاد في محاربة الأعداء والانتصار عليهم، وهي نعمة تؤدي إلى خيرات دنيوية.

النعم الأخروية:

وهي أهم أنواع النعم لخلودها، وهي كثيرة، وعلى رأسها الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ولكنَّ الله حبَّب إليكُم الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قلوبِكُم، وكَرَّهِ إليكُم الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصْيانَ، أولئكَ هُم الراشِدونَ. فَضْلاً مِن الله ونِعْمَةً والله عليمٌ حكيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ومنها إرسال الآيات لتثبيت المؤمنين، كما في الآية: ﴿سَلْ بَني إسرائيلَ كَم آتَيْناهُم من آيةٍ بيِّنَةٍ ومَنْ يُبَدِّلْ نعمةَ الله مِن بعدِ ما جاءَتْهُ فإنَّ الله شَديدُ العقابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

ومنها تيسير الدين وإسقاط الحرج عن المؤمنين وتطهيرهم، كما قال تعالى في ختام آية الوضوء: ﴿ما يُريدُ الله ليجعَلَ عليكُم مِن حَرَجٍ ولكنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُم وليُتِمَّ نعمَتَهُ عليكُم لعلَّكُم تَشْكُرونَ﴾ [المائدة: ٦].

ومنها هداية المسلمين إلى شعائر دينهم، كاستقبال الكعبة في الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿ومِن حيثُ خرجْتَ فوَلِّ وجْهَكَ شطرَ المسجِدِ الحَرامِ

وحيثُما كُنْتُم فوَلُّوا وجوهَكُم شَطْرَهُ لئلاّ يكونَ للناسِ عليكُم حُجّةٌ إلا الذينَ ظَلَموا منهُم، فلا تَخْشَوْهم واخْشَوْني ولأُتِمَّ نِعمَتي عليكُم ولعلَّكُم تَهْتَدونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ومنها جعل خوف الله في قلب المؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿قالَ رجُلانِ من الـذينَ يَخافونَ أنْعَمَ الله عليهما﴾ [المائدة: ٢٣]. وكذلك جعل طاعة الله والخضوع له في القلب: ﴿ومَن يُطِعِ الله والرَّسولَ فأولئكَ مَع الذينَ أنْعَمَ الله عليهِم مِن النَّبيِّينَ والصِّـدِّيقينَ والشُّهـداءِ والصـالحينَ وحَسُنَ أولئـكَ رَفيقـاً﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿أولئكَ الذينَ أنعَمَ الله عليهِم من النَّبيِّين من ذُرِّيَّةِ آدمَ ومِمَّن حَمَلْنا مَع نوحٍ ومن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّن هَدَيْنا واجْتَبَيْنا إذا تُتْلَى عليهِمْ آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وإذا عدنـا إلى الآيات السابقة لهذه الآيةِ الأخيرة، وجدنا صفات هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم، وهي: الحنان، والبرّ والتقوى، وهي من صفات يحيى ﷺ: ﴿وحناناً مِن لَدُنَّا وزكاةً وكانَ تَقِيّاً . وبَراً بوالديهِ ولم يكُنْ جباراً عصِياً﴾ [مريم: ١٣، ١٤]، وكذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهي من صفات عيسى ﷺ. ﴿وأوْصاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حيّاً﴾ [مريم: ٣١]، وصدق اللسان: ﴿ووَهَبْنا لهُ إسْحاقَ ويعقوبَ وكُلاًّ جَعَلْنا نبيًّا. ووَهَبْنَا لهمْ مِن رحمَتِنا وجعلنا لَهُمْ لسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وصدق الوعد: ﴿واذكُرْ في الكِتابِ إسماعيلَ إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ وكانَ رَسولاً نَبيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، والتأثر لسماع آيات الكتاب، ﴿إذ تُتْلى عليهِم آياتُ الرحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وبكيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

والخلاصة أننا حينما نتلو قوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ في صلاتنـا، فإننـا نبرمج قلوبنا على جميع هذه الصفات الحميدة التي تنقلنا إلى النعيم الأبدي، وكأننا ندعو قائلين: اللهم اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بنعم

الدنيا والآخرة، من رزق وأمن وإيمان وطاعة وتقوى وبر الوالدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطهارة والخلاص من الحرج والحماية من الأعداء وصدق الوعد والحنان.

غير المغضوب عليهم: البرمجة بالترهيب:

يقول أغلب المفسرين: إن المغضوب عليهم هم اليهود، وهناك صفات وأعمال تستوجب غضب الله على من يتصف بها ويقوم بها. ويمكن استقراء هذه الصفات والأعمال من آيات كثيرة من كتاب الله. فأهم أسباب غضب الله تعالى هي:

أولاً: انشراح الصدر بالكفر والجدال بالباطل دفاعاً عن الكفر وشدة العداوة للمؤمنين، وخاصةً الأنبياء، وقتلهم، وذلك كما في الآية: ﴿وَلكنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً فعليهِم غَضَبٌ مِن الله﴾ [النحل: ١٠٦]، والآية: ﴿والذينَ يُحاجُّونَ في الله مِن بعدِ ما اسْتُجيبَ لهُ حُجّتُهم داحِضَةٌ عندَ ربِّهم وعليهِم غَضَبٌ ولهم عَذابٌ شديد﴾ [الشورى: ١٦]، والآية: ﴿وباؤوا بغَضَبٍ مِن الله ذلكَ بأنَّهم كانوا يكفُرونَ بآياتِ الله ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بغيرِ الحق، ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدونَ﴾ [البقرة: ٦١].

ثانياً: الشرك بالله، كما في الآية: ﴿إنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجْلَ سَيَنالُهم غَضَبٌ مِن رَبِّهم وذِلَّة في الحياةِ الدنيا﴾ [الأعراف: ١٥٢]، والآية: ﴿قد وَقَعَ عليكُم مِن ربِّكُم رِجْسٌ وغَضَبٌ أتُجادِلونَني في أسْماءٍ سَمَّيْتُموها أنتُم وآباؤكُم ما نزَّلَ الله بها من سُلْطانٍ؟﴾ [الأعراف: ٧١].

ثالثاً: ارتكاب الكبائر، مثل قتل المؤمن عمداً: ﴿ومَن يقتُلْ مؤمِناً مُتَعَمِّداً فجزاؤهُ جَهَنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ الله عليهِ ولَعَنَهُ وأعدَّ لهُ عذاباً عظيماً﴾ [النساء: ٩٣]، ومثل الفرار من الزحف: ﴿ومَنْ يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو مُتَحَيِّزاً

إلى فِئَةٍ فقدْ باءَ بغَضَبٍ من الله﴾ [الأنفال: ١٦]، ومثل إنكار المرأة لجريمة الزِّنا: ﴿والخامسَةَ أنَّ غَضَبَ الله عليها إنْ كانَ مِن الصادقينَ﴾ [النور: ٩]، ومثل الطغيان في الرزق: ﴿كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم ولا تَطْغَوا فيهِ فيحِلَّ عليكُم غَضَبي﴾ [طه: ٨١].

وأما الطغيان في الرزق، فلعله يعني الإسراف فيه، أو التبذير، أو كسبه من الحرام، أو حرمان الفقراء حقوقهم في أموال الأغنياء، كما حدث لأصحاب الجنة (البستان) المذكورين في سورة القلم، الذين منعوا المساكين حقهم من ثمار بستانهم، فعاقبهم الله فوراً، فأصاب بستانهم بغضبٍ من عنده، فيبست أشجارهم، وبادت ثمارهم.

والخلاصة أننا عندما نتلو الآية: ﴿غير المغضوب عليهم﴾، فإننا نبرمج قلوبنا على الرهبة والنفور من جميع الأعمال والصفات التي تستوجب غضب الله، وكأننا ندعوه تعالى قائلين: اللهم لا تجعلنا من الذين شرحوا بالكفر صدراً، ولا من المشركين الذين عادَوا المؤمنين، ولا من قَتَلة المؤمنين، ولا من الفارّين من جبهة القتال، ولا من الزناة الشاهدين شهادة الزور، ولا مِمَّن يطغون في الرزق.

﴿ولا الضَّالِّينَ﴾:

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين المغضوب عليهم والضالين، فإنّ الضالّ إذا تمادى في ضلاله، وأوغل فيه، يصبح مغضوباً عليه، ويعجل له العذاب الشديد في الدنيا، وذلك كمثل من مسخهم الله وجعل منهم القردة والخنازير كاليهود، ومنهم مَن دمّرهم بالريح كقوم هود.

وهناك أنواع كثيرة من الضالين، غير أنهم يجتمعون جميعاً في سبب الضلال الرئيسي، وهو اتباعهم لأهوائهم، وإخلادهم إلى الحياة الدنيا وزينتها وترفها. قال تعالى: ﴿قُلْ لا أتَّبِعُ أهْواءَكُم، قدْ ضَلَلْتُ إذاً وما أنا مِن المُهْتَدين﴾

[الأنعام: ٥٦]. وقال: ﴿ولا تَتَّبعِ الهَوى فيُضِلَّكَ عن سَبيلِ الله﴾ [صٓ: ٢٦]، وقال: ﴿الذينَ يَسْتَحِبّونَ الحياةَ الدُّنْيا على الآخِرَةِ ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله ويَبْغونَها عِوَجاً أولئِكَ في ضَلالٍ بَعيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وينتج عن اتِّباع الضال لهواه:

١ ـ أنه يتخذ أعداء الله أولياء: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا عدُوِّي وعدُوَّكُم أوْلياءَ تُلْقونَ إليهِم بالمَوَدَّةِ وقدْ كَفَروا بِما جاءَكُم مِن الحقِّ.. ومَن يَفْعَلْهُ مِنكُم فقد ضلَّ سَواءَ السَّبيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

٢ ـ أن يقسو القلب الضالّ من ذكر الله: ﴿فوَيْلٌ للقاسِيَةِ قُلوبُهُم مِن ذكْرِ الله. أولئكَ في ضَلالٍ مبينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

٣ ـ أن يقتل الضالون أولادهم، ويُحَلِّلوا الأرزاق ويُحَرِّموها بحسب أهوائهم: ﴿قدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلوا أوْلادَهم سَفَهاً بغيرِ علْمٍ وحَرَّموا ما رَزَقَهُم الله افْتراءً على الله، قد ضَلُّوا وما كانوا مُهْتَدين﴾ [الأنعام: ١٤٠].

٤ ـ أن يُفسّر الضالون أحداث هذا الكون بالسحر بدلاً من إرجاع جميع ظواهر هذا الكون إلى الله تعالى وحده. قال تعالى: ﴿إذْ يَقولُ الظالِمونَ إنْ تَتَّبِعونَ إلا رَجُلاً مَسْحوراً. انظُرْ كيفَ ضَرَبوا لكَ الأمْثالَ فَضَلُّوا فلا يَسْتَطيعونَ سَبيلاً﴾ [الإسراء: ٤٧، ٤٨].

٥ ـ أن يتلاعبوا بحُرُمات الله وأشهره الحُرم: ﴿إنَّما النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفَروا يُحِلُّونَه عاماً ويُحَرِّمونَه عاماً لِيواطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله، فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ الله، زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهِم والله لا يَهْدي القومَ الكافِرينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

٦ ـ أن يعطّل الضال عقله وحواسّه التي أنعم الله بها عليه، وهو نتيجة

مباشرة للاستسلام للأهواء والظنون. قال تعالى: ﴿ولقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كثيراً مِن الجِنِّ والإنسِ لهُم قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها ولهُم أعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بها ولهُم آذانٌ لا يَسْمَعونَ بها، أولٰئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ، أولٰئكَ همُ الغافِلونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٧ ـ أن يتحاكم الضالون فيما اختلفوا فيه إلى الأصنام والآلهة المزيّفة بدلاً من الاحتكام إلى كتاب الله: ﴿ألَم تَرَ إلى الذينَ يزعُمونَ أنَّهُم آمَنوا بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ مِن قبلِكَ يُريدونَ أنْ يَتَحاكموا إلى الطاغوتِ وقدْ أُمِروا أنْ يَكْفُروا بهِ ويُريدُ الشيطانُ أنْ يُضِلَّهُم ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: ٦٠].

وهذا «الضلال البعيد» هو الذي يستوجب الغضب، وبه يصبح الضال تام الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. قال تعالى: ﴿ومَن يَكْفُرْ باللهِ وملائكَتِهِ وكتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: ١٣٦].

والخلاصة أننا عندما نتلو قوله تعالى: ﴿ولا الضالين﴾، فإننا نبرمج قلوبنا على النفور من الصفات والأعمال التي تؤدي إلى الضلال، وكأننا ندعوه تعالى قائلين: اللهم لا تجعلنا من الذين اتبعوا أهواءهم وظنونهم وأخلدوا إلى الحياة الدنيا وزينتها وزخارفها وترفها، وعطلوا حواسهم وقست قلوبهم من ذكر الله، واتخذوا أعداءه أولياء، وقتلوا أولادهم خشية الفقر، وتلاعبوا بالحلال والحرام في الأرزاق والأشهر الحرم، وآمنوا بالسحرة من دون الله، واحتكموا إلى الطاغوت.

الترغيب والترهيب في السورة:

إن سورة الفاتحة مفعمة بمعاني التربية ومبادئها، ومن ذلك ـ كما سبق ـ استعمال أسلوبي الترغيب والترهيب في تربية الناس، لحفظ التوازن النفسي لديهم، فهما كالجناحين للطائر اللذين يوازن بهما الطائر نفسه حين يطير في الهواء.

ولنستعرض الآن عبارات السورة الكريمة متأملين فيها معنيي الترغيب والترهيب:

ففي افتتاح السورة نجد في البسملة اسمي الرحمن الرحيم. أما الرحمن ففيه ترغيب؛ لأنه مشتق من الرحمة، كما أن فيه ترهيباً؛ لأنه ـ كما بينت سابقاً ـ لا يخلو من الشدة، وأما الرحيم، فيثير في النفس الترغيب لانطوائه على الرحمة الخالصة.

وقوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾، يبعث في النفس الترغيب، فالحمد يكون على الصفات الحسنة الطيبة.

و ﴿ربِّ العالمين﴾، تشمل الترغيب والترهيب معاً، إذ الرب هو المربي والمصلح، والإنسان يحب مربيه لشعوره بعطفه عليه، كما أنه يهابه لتفوقه عليه في القدرة والعلم.

و ﴿مالك يوم الدين﴾، تبعث في النفس الرهبة من ذلك اليوم العظيم الذي يقف فيه الإنسان متهماً بين يدي الله، يُناقَش فيه الحساب ويُسأل عن كل صغيرة وكبيرة.

و ﴿إيّاكَ نَعبدُ﴾ تبعث في النفس الرغبة والاطمئنان، فالعبادة لجوء إلى الله واستظلال بظل رحمته. وكذلك ﴿إياك نستعين﴾، تثير الرغبة في معونة الله في الدنيا والآخرة. وكذلك ﴿اهدنا الصراطَ المستقيم﴾ فهي تثير الرغبة والطمع في هداية الله. ومثلها ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ التي تبعث في النفس الأمل بالفوز بالنعيم المقيم.

أما ذكر ﴿المغضوب عليهم﴾ و ﴿الضالين﴾، فتثير في النفس الرهبة من مصيرهم التعس.

وهكـذا يتعـاقب التـرغيب والترهيب حين تلاوة الفاتحة، مُبَرْمِجَيْنَ قلب المؤمن على الإقبال على الله تعالى، وكل ما يقرّب إليه، وعلى النفور من كل ما يبعد الإنسان عن ربه، وعن طاعته، والفوز برضاه.

قصة البداية والنهاية:

سورة الفاتحة هي قصة البداية والنهاية:

البـداية من عنـد الله ﴿الـذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه﴾؛ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، أما النهاية فهي الحياة الآخرة التي تبدأ بيوم الدين؛ يوم الحساب.

وما بين البداية والنهاية تمتدّ طرق عديدة متشعبة، أقصرها وأسعدها طريق نهج الله المستقيم؛ الصراط المستقيم.

ونهـاية الآخرة إما دخول الجنة بالنسبة للمنعم عليهم، وإما دخول النار بالنسبة لمن ضلوا عن الصراط المستقيم وتعرضوا إلى غضب الله.

مواضيع القرآن ومواضيع الفاتحة:

إن الموضوعات التي تتضمنها سور القرآن الكريم هي أربعة أنواع رئيسية هي:

أولها: ذكر الله تعالى، والتعريف بصفاته الكريمة، وأسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ لا إلَهَ إلا هُو الحَيُّ القَيُّومُ، لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ..﴾.

ونجـد ذلـك في سورة الفـاتحـة: ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين﴾.

ثانيها: العبادات والتشريع، كالآيات العديدة التي تتناول أحكام الصلاة والزكاة والحج وغيرها.

ونجد ذلك في الفاتحة في قوله تعالى : ﴿إياكَ نعبُد وإياكَ نستعين . اهدِنا الصراطَ المستقيمَ﴾ .

فالصراط المستقيم يشمل نهج الشريعة الإسلامية وما تضمنه من عبادات، أُشير إليها بقوله ﴿إياك نعبدُ﴾ .

ثالثها: قصص الرسل والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي وردت في أماكن متعددة من كتاب الله .

ونجد الإشارة إلى ذلك في الفاتحة في قوله تعالى : ﴿صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم . غير المغضوبِ عليهم ولا الضالينَ﴾ . فالذين أنعم الله عليهم هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، والمغضوب عليهم والضالون هم أعداء الأنبياء الظالمون الطاغون كاليهود وفرعون وثمود وعاد .

رابعها: ذكر يوم القيامة، ووصف أحوال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم، والقرآن مليء بذلك .

ونجد الإشارة إلى ذلك في سورة الفاتحة في قوله تعالى : ﴿مالكِ يومِ الدينِ﴾ وفي ذكر ﴿المغضوبِ عليهم﴾ و ﴿الضالين﴾ .

وهكذا أشارت الفاتحة إلى جميع المواضيع الرئيسية التي تناولها كتاب الله بالتفصيل، فحُقَّ لها أن تسمّى «أمّ الكتاب» .

لقد تبيَّن لنا من هذه الدراسة أن سورة الفاتحة هي أعظم فاتحة لأعظم كتاب .

إنها حمدٌ لله وثناء وتمجيد وتوحيد .

إنها تربية للإنسان .

إنها عبودية الإنسان لربه وطلبه لمعونته بخشوع واستسلام .

إنها قصة بداية الإنسان ونهايته، والطرق الممتدة بينهما.

هي تخيير وإنذار، هي بشارة برحمة الله.

هي موجز مبارك لكتاب الله.

هي عزف رحيم على أزرار قلب المؤمن يبرمجه على التفاؤل والاستبشار وتحمل المسؤولية والتربية الفضلى.

□□□□□

سورة العلق

سورة البُنى الثلاث والصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ
الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ
الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن
لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ
﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

الأبحاث الجديدة في دراسة سورة العلق :

١ ـ تحلل السورة كيان الإنسان إلى بُنى ثلاث : جسمية، وعلمية، ونفسية .

٢ ـ ارتباط الصلاة بالبُنى الثلاث.

٣ ـ معجزة قرآنية في إطلاق (العلق) على الإنسان في مطلع حياته في الرحم.

٤ ـ ارتباط اسم الله (الأكرم) بالتقدم العلمي وبالقلم والكتابة.

٥ ـ الإصرار على القراءة في تكرار جبريل لكلمة (اقرأ)، وارتباطه بالإصرار على قيام الرسول بالصلاة رغم تهديد أبي جهل.

هذه السورة هي أول ما نزل من القرآن الكريم، لذلك فإن لها أهمية خاصة. وقد نزلت في ظروف مثيرة، أبرزها مفاجأة المَلَك جبريل عليه السلام للرسول ﷺ في غار حراء منفرداً، بظهوره له، ثم بقوله له: «اقرأ»، ثلاث مرات، وقوله الرسول ﷺ في مرتين: «ما أنا بقارىء»، وكان جبريل في كل مرة يغُطّه ـ أي يضمّه إليه ويعصره عصراً شديداً ـ حتى يبلغ منه الجهد.

ثم قال له جبريل في المرة الثالثة: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ. . . ـ إلى قوله ـ ما لَمْ يَعْلَم﴾.

ولئن كانت سورة الفاتحة بداية القرآن بوصفه كتاباً، فإن سورة العلق بداية له بوصفه تنزيلاً، لذلك لا بد للسورتين من أن تتشابها في بعض الوجوه: فكلتاهما بدأت بذكر صاحب الكتاب ومُنزله والتعريف به، فبدأت الفاتحة بقوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، وبدأت سورة العلق بالآية: ﴿اقرأْ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ﴾، فكلتاهما ذكرت اسم «الرب»، أي: المربّي والسيد والمالك والمصلح، فهما تشتركان في موضوع التربية، الذي قدمت له دراسة في سورة الفاتحة، وسنرى ـ إن شاء الله ـ كيف عالجت سورة العلق تربية الإنسان بإنقاذه من الطغيان؛ ﴿إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى﴾ بالصلاة: ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾، وبالعلم: ﴿الذي علَّمَ بالقَلَمِ﴾.

إلا أن سورة العلق كانت موجهة ـ في ظرف تنزيلها ـ إلى النبي ﷺ بمفرده، لذلك أضافت السورة اسم الرب إلى ضمير الخطاب (الكاف)، فقالت: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، إيناساً له ﷺ، وطمأنةً له، بعد أن أصابه الاضطراب والخوف من مفاجأة جبريل له.

ولما كانت سورة العلق أول ما نزل من القرآن، فمن المناسب أن تُعرّف القارىء بمُنزِّله، أي تعرّف الإنسان بربه، ثم تعرِّف الإنسان بنفسه.

فالسورة تعرّف الإنسان بالله، فهو الرب المقتدر الخالق المعلم..

وتعرِّف الإنسان بنفسه، فهو «العلق» الضعيف العاجز الجاهل الطاغي..

إنها دعوة لطيفة إلى هذا الإنسان العاجز الجاهل، أن يترك طغيانه، ويلجأ إلى الرب، ويعتمد عليه وحده في إمداده بالعلم والقوة، وفي إنقاذه من طغيان نفسه، استعداداً ليوم ﴿الرجعى﴾.

وهذا وجه شبه آخر بين سورتي الفاتحة والعلق، فقد حدَّدت كلتاهما بداية الإنسان ونهايته، فالبداية خلق الإنسان من علق، والنهاية هي يوم ﴿الرجعى﴾، يوم الدين، يوم القيامة.

وأول وسيلة لهذا اللجوء وأهمها وأنجعها هي العلم؛ ﴿علَّمَ الإنسانَ ما لَم يَعْلَمْ﴾، والصلاة؛ ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾. ففي الصلاة يقف العبد أمام ربه خاشعاً طامعاً راغباً وراهباً، متذللاً له بالسجود، وهذا وجه شبه آخر بين سورتي العلق والفاتحة، فالفاتحة هي «الصلاة» نفسها، كما قال تعالى في حديثه القدسي، وسورة العلق تخصص معظم آياتها لتأكيد أهمية الصلاة ووجوب الإصرار عليها.

وتزيد السورة الإنسان تعريفاً بنفسه، فتقوم «بتشريح» الكيان الإنساني، مبيّنةً أنه يتركّب من ثلاث بُنىٰ (جمع بُنْية)، وهي: البنية الجسمية المادية، والبنية

العلمية العقلية، والبنية النفسية الأخلاقية.

ويلاحظ هنا أن افتتاح السورة بكلمة ﴿اقرأ﴾ إشعار ببدء نزول (قراءات) أخرى يكون مجموعها (القرآن)، الذي اشتُقَّ اسمه الكريم من (القراءة)، فهناك توافق لطيف بين اسم الكتاب (القرآن)، وبدايته بلفظ: ﴿اقرأ﴾.

كما يلاحظ أن وصف السورة للرب بقولها: ﴿الذي خلق﴾... هكذا بلا تحديد لمفعول ﴿خلق﴾، يدل على أنَّ ما خلقه الله غير محدود، أي أنه خلق كل شيء وحده، ولم يشاركه أحد في ذلك. وبذلك تشير السورة إلى ركن الإسلام الأول، وهو توحيد الله عز وجل.

ثم يتكـرَّر فعـل ﴿خلق﴾ في الآية التالية: ﴿خلقَ الإنسانَ من عَلَقٍ﴾، ليلفت نظر الإنسـان إلى نفسـه: كيف خُلِقت من علقة مهينة ضعيفة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعاً.

نعم، لقد خلق الله كل شيء، وهو يطلب إلى الإنسان أن يتفكر في جميع خلقه، ليعرّف عظمة الخالق من مخلوقاته، غير أنه طلب إليه أن يبدأ بالتفكير في أقرب شيء إليه، وهو نفسه، فمن عرف نفسه عرف ربه: ﴿وفي أنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرونَ﴾؟

البُنَى الثلاث تَبدأ من الصِّفر:

لقد أبرز الله البُنى الثلاث التي يتركب منها الكائن الإنساني، وهي:

١ ـ البنية الجسمية المادية، التي أشار إليها بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ﴾. وتشارك الحيوانات الإنسان في هذه البنية.

٢ ـ البنية العلمية العقلية، وأشار إليها بقوله: ﴿الذي علَّمَ بالقَلَمِ . علَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾. ويشترك المؤمنون والكافرون في هذه البنية.

٣ ـ البنية النفسية الأخلاقية، وأشار إليها بقوله: ﴿كلَّا، إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى . أنْ رآهُ اسْتَغْنى﴾. ويتميز المؤمن ذو الهدى والتقوى في هذه البنية عن الكافر الطاغي.

وتبيِّن السورة أن كلًّا من هذه البُنى الثلاث تبدأ من الصفر، من العدم، من القلة، من النقص، ثم تأخذ في التزايد والنمو بكرم الله وحده ﴿آقْرَأْ وربُّكَ الأكْرَمُ﴾ الذي يجعلها تتزايد بطريقتين:

الأولى: تتزايد البُنى الثلاث بقدرة الله المباشرة، دون تدخُّل إرادة الإنسان، إذ أودع الله هذا المخلوق قوىً تُنَمِّيهِ وتصنع بعوامل الوراثة التي أبدعها الله جسماً مؤلفاً من أجهزة كاملة متكاملة، كالجهاز الهضمي، والعظمي، والدوراني، والتنفسي، والعصبي، والغُدد، والحواس.

الثانية: تتزايد هذه البنىٰ بقدرة الله عن طريق الإرادة الإنسانية، التي أودعها الله هذا الإنسان، وجعل منها أداة للاختيار بين الخير والشر، بين ترقية هذه البُنى أو تأخير نموّها واكتمالها.

فالبنية الجسمية المادية بدأت من الصفر، من النطفة، فالعلقة، وهي كائن لا وزن له ولا قوة، وهو في حاجة ماسَّة إلى حفظ الله ورعايته.

والبنية العلمية العقلية بدأت من الصفر أيضاً ﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾، ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿والله أَخْرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعْلَمونَ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٨].

وكذلك بدأت البنية النفسية الأخلاقية من الصفر، من الطغيان ﴿إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغَى . أنْ رآهُ اسْتَغْنى﴾، والطغيان نقص نفسي فادح، وفقر مشين، ترافقه الغفلة عن مراقبة الله؛ ﴿ألَمْ يَعْلَمْ بأنَّ الله يرى﴾، والانغماس في الكذب والخطأ: ﴿ناصيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ﴾.

موحيات اسم الله ﴿الأكرم﴾ :

إن اسم الله ﴿الأكرم﴾، هكذا بصيغة (أفعل التفضيل)، يوحي بتزايد كرم الله تعالى في عطائه للإنسان، فقد أعطاه البنى الثلاث: الجسمية، والعقلية، والنفسية، فجعلت هذه البنى تتزايد بعد قلة، وتكتمل بعد نقص، وتشتدّ وتقوى بعد ضعف.

أ ـ تزايد البنية المادية :

تبدأ البنية المادية من خلية واحدة، تنشأ من تلقيح الحيوان المنوي الذكري للبويضة الأنثوية، ثم تأخذ هذه الخلية بالانشطار والتكاثر بأمر الله ﴿الأكرم﴾ وحده، حتى تكتمل إنساناً سوياً بعد الولادة وبعد المرور بمراحل الطفولة والشباب، وبعد مقارعة الأمراض المختلفة والجراثيم المتعددة التي تهاجم الإنسان، فيقاومها بما أودع الله في جسمه من كائنات دفاعية (كالكريات البيضاء)، وبما يتخذه الإنسان بإرادته من أدوية وعلاجات، ومن محافظة إرادية على صحته في الاعتدال في المأكل والمشرب ﴿وكُلُو واشْرَبوا ولا تُسْرِفوا﴾.

وهنا لا بد من وقفة عند وصف السورة للإنسان بأنه ﴿مِن عَلَقٍ﴾.

يقول المفسرون: إن معنى العلق هو (الدم المتجمد). وحقاً لقد خلق الله الإنسان من الدم كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ غير أننا إذا بحثنا عن معنى (العلق) في المعاجم اللغوية، وجدناها تعني أيضاً: «الدُوَيبّة السوداء تتعلق بجسم الإنسان وتمتص دمه»، وهي دودة معروفة كانت تستعمل قديماً في الطب لاستخراج الدم من الجسم..

ويلاحظ أن الآية تقول: ﴿مِن عَلَقٍ﴾ بالتنكير، ولو قالت من (العلق) بالتعريف، لكان المعنى أن الله قد خلق الإنسان من دودة العلق المعروفة، وإنّما قالت: ﴿من علق﴾ موحيةً بأنَّ الإنسان يُخْلَقُ من شيء يشبه العلق المعروف في

صفات مهمة.

فما هي هذه الصفات المشتركة بين دودة العلق، وبين الإنسان وهو في طور العلق؟

إن دودة العلق إنَّمـا سُمِّيت بهذا الاسم لأنها تتعلق بجسم الإنسان، ثم تمتص منه الدم لتتغذى به؛ لأنها من الكائنات الطفيلية.

والإنسان يتصف وهو في مرحلة العلق بنفس هاتين الصفتين الأساسيتين: فهو يتعلق بجدار الرحم، ويمتص من دم أمه، ليتغذىٰ بما يجده فيه من أغذية ضرورية لنموه؛ لأنه يكون حينئذ كائناً طفيلياً لا يستطيع أن يصنع أغذيته بنفسه.

وهذه مقتطفات من كتاب «مقدمة في علم الخلية وعلم الجنين» للدكتور هاني خليل رزق، وقد ألّفه ليدرِّس في جامعة دمشق.

يقول الدكتور:

«إنه في اليوم السابع من الإلقاح، يتوجّب على الجنين في هذه المرحلة أن يحقق الارتبـاط اللازم بجدار الرحم، ليستطيع أن يأخذ المواد الغذائية من دم الأم، التي تمكِّنه من إنجاز حادثات التشكل التي ستعقب هذه المرحلة الهامة. ويُطلق على حادثـة التصـاق الحويصل الأصلي بجدار الرحم وارتباطه به اسم «حادثة الانغراس Implantation».

إنّ خلايا الـطبقة الأصلية المغذِّية التي أشرنا إليها سابقاً هي التي تنجز حادثة الانغراس.. ويتم في هذا النمط انغراس الحويصل الأصلي عميقاً في جدار الرحم» (ص ٤٨٧).

ويكـون الجنين في هذه المـرحلة صغيراً جداً، لا يكـاد يُرى بالعين المجردة، فقد ذكر المؤلف في (ص ٤٧٠) من الكتاب المذكور أن طول الجنين

عندما يكون عمره ثلاثة أسابيع يساوي (٢,٣) مم، أي حوالي رُبع السانتيمتر، ولا شك أنه يكون أصغر من ذلك بكثير في بدء مرحلة «العلقة»، حينما يكون عمره أسبوعاً واحداً فقط.

معجزة قرآنية:

أليست تسمية الإنسان في تلك المرحلة بـ ﴿علق﴾ معجزة قرآنية رائعة؟

إنه سرّ علمي لم يُكشَف عنه إلا حديثاً بعد اختراع المجهر، وإمكان مشاهدة العلقة الإنسانية التي تبلغ بضعة أجزاء من الميليمتر وهي متعلقة بالرحم.

ب ـ تزايد البنية العلمية:

تبدأ البنية العلمية من العدم، ثم تتزايد بتجلي اسم الله ﴿الأكرم﴾ على الإنسان، فيتزايد علمه، هذا وقد تزايدت علوم الإنسان بصورة عامة بقدرة الله المباشرة، ثم بسعي الإنسان لتنمية علومه ومعارفه وترويض عقله، تزايدت حتى بلغت مرحلة عظيمة في العلوم المادية من كيمياء وفيزياء وفلك وطب ورياضيات.

ونلاحظ بركة اسم الله ﴿الأكرم﴾ على القلم الوارد في قوله تعالى: ﴿الذي علَّمَ بالقلَمِ﴾، فنجد أن القلم المستعمل للكتابة بدأ ـ كما نعلم ـ بمراحل صعبة، فكان يُصنع من القصب، ويُكتَب به بالحبر على الأحجار والعظام، ثم على ورق البردي، ثم تقدمت عملية الكتابة بكرم الله باختراع الورق العادي، وفي هذا العصر أصبحت الكتابة أكثر سهولةً باختراع الأقلام الحديثة، ثم باختراع الآلات الكاتبة والمطابع، وغيرها من الآلات الالكترونية، التي أراحت النساخين من عملية النسخ المضنية، ووفرت لملايين البشر مطالعة الكتب المختلفة بيسر وسهولة تامة.

جـ ـ تطوّر البنية النفسية الخلقية:

أما البنية النفسية الأخلاقية فتبدأ من حالة النقص، من الطغيان النفسي، من حالة أبي جهل عمرو بن هشام الطاغية، الذي أراد منع الرسول المكرم من الصلاة: ﴿أَرَأَيْتَ الذي يَنْهَى . عَبْداً إذا صَلَّى﴾.

لكنّ هذه البنية ـ بتوفيق الله ـ تتخطى هذه المرحلة، بمجرّد أن يعرف الإنسان ربّه العظيم ويتوجه إليه طالباً معونته، فيتحول من مرحلة النفس الأمارة بالسوء، إلى مرحلة النفس اللوّامة التي تنقذ نفسها بنفسها، ثم تغدو نفساً مطمئنة، كنفوس الصديقين والأنبياء، التي اتبعت سبيل الهدى والتقوى، والتي أشير إليها في السورة بنفس النبي ﷺ، حيث قالت: ﴿أَرَأَيْتَ إنْ كانَ على الهُدَى أَوْ أَمَرَ بالتَّقْوى﴾.

ولا بدّ لوصول الإنسان إلى مرحلة النفس المطمئنة من الثبات على جهاد النفس والصبر على فعل الطاعات وترك المعاصي، رغم النكسات والعثرات.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن كل إنسان في أصل خلقته ميّال إلى الطغيان والهوى، فقد قال تعالى: ﴿إنَّ النَّفس لأمَّارةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال: ﴿وكانَ الإنسانُ كَفوراً﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿إنَّ الإنسانَ لَظلومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال: ﴿وأُحْضِرَتِ الأنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً . وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنوعاً﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١].

وإنَّ تطوير البنى الثلاث وإقامة التوازن بينها هو مهمة (التربية) التي تشترك فيها سورتا الفاتحة والعلق.

وقد ذكرت السورة هذه البنى الإنسانية الثلاث، وتركت لباقي القرآن الكريم تفصيل الإرشادات الخاصة بتنميتها وصيانتها وتربيتها، فمن ذلك:

صيانة البنية الجسمية:

تُصان هذه البنية بالاعتدال والتوسط في الطعام والشراب: ﴿وكُلُوا واشْرَبوا ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، والابتعاد تماماً عن كل ما يضر الجسم كشرب الخمر التي تضرّ بالبنيتين العقلية والنفسية أيضاً. ويساعد الصيام على صحة الجسم بإراحته للمعدة، وتساعد النظافة والتطهر على حفظ الصحة وتجنب الأمراض، وقد أوصى الله بذلك في قوله: ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المتَطَهِّرينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. كما أن الصلاة لا بدّ لأدائها من الوضوء والطهارة، والصلاة هي الحدّ الأدنى من الحركات الجسمية الضرورية لتنشيط الدورة الدموية.

والزكاة تنقذ أجسام الفقراء من المرض والموت جوعاً، وكذلك ذبح الأضاحي، والتصدق بها على المحتاجين.

صيانة البنية العقلية العلمية وتنميتها:

حث الكتاب الكريم على استعمال العقل وطلب العلم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوي الذينَ يَعْلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ﴾؟ وقال: ﴿وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً﴾، وقال: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ﴾ [آل عمران؛ ١٩٠].

كما بيَّن أنه سبحانه وتعالى قصد من خلق الليل والنهار والشمس والقمر إلى تحريك قدرات الناس العقلية بإجراء العمليات الحسابية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ، فمَحَوْنا آيَةَ الليلِ وجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لتَبْتَغوا فَضْلاً مِن رَبِّكُم ولِتَعْلَموا عدَدَ السنينَ والحِسابَ وكُلَّ شيءٍ فَصَّلْناهُ تَفصيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

ولا شك أن للقلم (وهو رمز للكتابة) أثراً كبيراً في تنمية العلوم البشرية،

وتطويرها، إذ لولا الكتابة لما وصلت العلوم البشرية إلى ما هي عليه الآن.

ومن هنا أشادت السورة بالقراءة والكتابة، إذ جعلت أول كلمة من القرآن الكريم هي كلمة ﴿اقرأْ﴾، ثم ذكرت أن من كرم الله العظيم التعليم بالقلم: ﴿اقْرَأْ وربُّكَ الأكرمُ . الذي علَّمَ بالقلَمِ﴾.

صيانة البنية النفسية الأخلاقية:

لقد شرع الله العبادات جميعها لصيانة البنى الإنسانية الثلاث. غير أنَّ أهم هذه البنى هي طبعاً البنية النفسية الأخلاقية، التي تعمل العبادات الرئيسية على صيانتها وصقلها، وخاصة الصلاة التي خصصت لها السورة معظم آياتها.

إن البنية الجسمية مشتركة بين جميع الأحياء من بشر ونباتات وحيوانات، ويختلف البشر عن سائر الحيوانات بالبنية العقلية العلمية، التي هي مشتركة بين جميع البشر، وإن تفاوَتَ الأفرادُ فيها كثيراً أو قليلاً.

غير أن البنية النفسية الخُلُقية هي مقياس الرقي الحقيقي للبشر. فأرقاهم هم الذين نمت قدراتهم النفسية الأخلاقية فخافوا ربهم وخشعوا له وأطاعوه مضحّين بكل شيء في سبيله: ﴿إنَّ أَكْرَمَكُم عندَ الله أتْقاكُم﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿إنَّ الله اشْتَرى مِن المُؤْمِنينَ أنْفُسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لهُم الجنَّةَ، يُقاتِلونَ في سَبيلِ الله فيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ وعْداً عليهِ حَقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١].

من أجل ذلك جاءت العبادات تطهيراً للنفس من طغيانها، فالصوم كبت للشهوات، وتقوية للإرادة التي هي السلاح الفعال ضد الأهواء النفسية الطاغية.

والزكاة تطهير للنفس من الشح: ﴿خُذْ مِن أموالِهِم صَدَقَةٍ تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِم بِها﴾ [التوبة: ١٠٣]. ولكن السورة أبرزت الصلاة وحدها من بين العبادات،

لماذا أبرزت السورة الصلاة؟

لقد خصّصت السورة معظم آياتها للصلاة، فجعلت لها إحدى عشرة آية من أصل تسع عشرة آية من آياتها، مؤكدةً ضرورة إصرار الرسول الكريم على القيام بها، رغم تهديد أبي جهل له بالقتل إن رآه يصلي عند الكعبة: ﴿كلّا لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾.

فما السرّ في ذلك؟ وما ارتباط الصلاة بالبنى الثلاث التي تصدَّرت السورة؟

لقد ذكرت سابقاً أن البنية النفسية هي أهم هذه البنى، لكنَّ ذلك لا يقلّل من أهمية البنيتين الجسمية والعلمية للإنسان.

وفي الصلاة نجد هذه البنى الثلاث تتجمع في انسجام تام، وتوافق عجيب، ذلك أن الصلاة عمل جسمي علمي نفسي في آن واحد. فالصلاة لا تتم إلا بشروط مادية جسمية معينة كالتوضؤ بالماء وتطهير النجاسات واستقبال الكعبة، والحركات الجسمية الخاصة من قيام وركوع وسجود وقعود وتحريك اللسان بالقراءة، وجعل صفوف المصلين مستوية في صلاة الجماعة. وقد أشارت السورة إلى هذه الأعمال المادية التي في الصلاة بذكر السجود منها، فقالت: ﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾.

والصلاة لا تتم إلا بشروط علمية عقلية معينة، فالمصلي يجب أن يحفظ أو «يتعلم» بعض القرآن ليقرأه في صلاته. كما أنه «يتعلم» كثيراً من أصول العقيدة الإسلامية والآداب والأحكام الشرعية حين سماعه لتلاوة الإمام شيئاً من آيات القرآن في الصلوات الجهرية، التي تشمل أيضاًت حثاً على العلم بجميع أنواعه.

وقد ذكرت السورة حقيقة علمية إيمانية أساسية يجب على المصلّي أن يستشعرها بقلبه وجوارحه، وهي أن الله تعالى مطّلع على نفسه وقلبه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بأنَّ الله يَرَى﴾؟ وقد ورد في الحديث الشريف أنَّ الإحسان: «أن تعبدَ الله كأنك

تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والصلاة لا تتم إلا بشروط نفسية خاصة، الهدف منها نقل النفس البشرية من حالة الطغيان وسيطرة الهوى إلى حالة النفس المطمئنة. فالمصلّون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والمصلّون الذين ينهون أنفسهم عن الفحشاء والمنكر، والمصلّون هم الذين يطهّرون أنفسهم من الهلع والجزع والشح: ﴿إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلوعـاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً . وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنوعاً . إلا المُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

وقـد أشارت السورة إلى كل هذه المعاني بقولها: ﴿أرأَيْتَ إنْ كانَ على الهُـدَى أو أَمَـرَ بالتَّقْـوى﴾، فالهـدى هو السلوك الصحيح في جميع الميادين الجسمية والعلمية والنفسية، والتقوى خاصة بالحالة النفسية، فهي السلوك النابع من الخوف من الله.

الإصرار على القراءة في أول السورة وآخرها:

سبق أن بيَّنت أن جبريل عليه السلام ألحّ على رسول الله بالقراءة بتكرار كلمـة «اقـرأ»، ثلاث مرات، عند نزول السورة، بالرغم من علمه بأن الرسول الكريم أميّ لم يتعلم القراءة ولا الكتابة.

ويلاحظ أيضـاً أن آخر السورة ﴿كَلَّا لا تطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾، هو أمر للرسول بالإصرار على الصلاة، وعدم إطاعة أبي جهل الذي هدّد الرسول بالقتل إذا واصل الصلاة في الكعبة: ﴿أَرَأَيْتَ الذي يَنْهى . عبداً إذا صَلَّى﴾؟

ومن المعلوم أن القراءة هي أحد أركان الصلاة، وقراءة القرآن التي كان يقوم بها الرسول في الصلاة هي التي كانت تغيظ أبا جهل وغيره من كبار المشركين، ذلك أن كثيراً من المشركين كانوا يمرّون بالرسول وهو قائم يصلّي، فيستمعون إلى تلاوته للقرآن، فيأخذ القرآن بمجامع قلوبهم، وتهزّهم حلاوته وطلاوته، ويبهرهم

ما فيه من دعـوة إلى التفكـر في خلق الله، والتعـرف إليه عن طريق النظر إلى الشمس وضحـاهـا، والقمـر إلى تلاهـا، والسمـاء والنجـوم، والليل والنهـار، فيجتذبهم ذلك إلى الإسلام، فيؤمِنون بالله ورسوله، وهو ما كان أبو جهل يحاول منعه.

لكنَّ الله أمر رسوله بالإصرار على الصلاة، والإصرار على القراءة، وبذلك يتبيَّن الانسجام التام بين أول السورة وآخرها، فكأن أول السورة يقول للرسول الكريم: «اثبت على قراءة القرآن لنفسك»، وكأن آخرها يقول له: «اثبت على قراءة القرآن في الصلاة لنفسك، ولتسمع غيرك».

سورة العلق وزماننا هذا:

كأن سورة العلق قد نزلت لزماننا هذا..

زمـان أعرض أهله عن التفكير العلمي الصحيح بالرغم من غزارة علومه المادية، وتضخم بُنيته العلمية تضخماً هائلاً..

زمان سيطر فيه الطغيان النفسي مستخدماً أكثر الأسلحة تطوراً..

كأن السورة تقول لأهل هذا الزمن: تأملوا، إنكم خُلِقتكم من العدم، من لا شيء، فأصبح لكم جسم، بعد أن لم يكن، وأصبح لكم سمع وبصر وغيرها من الحواس والقدرات..

ألا تسألون أنفسكم جادِّين: كيف حدث هذا؟ وما السرّ الكامن وراءه؟

إن أحد علمائكم إذا عثر على قطعة من الحجر في صحراء، فإنه يأخذها، ويعتني بها، ويدرسها، ثم يجزم بأن وراء هذه القطعة الحجرية عقلاً مدبِّراً قد صنعها في العصر الحجري، لتكون سِكِّيناً يستعملها لذبح الحيوانات، أو ما شابه ذلك..

يستنتج ذلك مؤمناً به كل الإيمان، رغم أن شكل قطعة الحجر هذه من البسـاطـة بحيث يُحتمل أن يكون حدوثها ناشئاً عن تفتتات في إحدى صخور الجبال بسبب تعاقب البرودة والحرارة عليها، أو عن زلزال. . إلخ.

فكيف لا يهزّ عقولكم هذا الجسم الإنساني البالغ التطور، المخلوق من علق، من ماء مهين؟ بل عقولكم هذه التي بها تتباهون وتفخرون، هل أنتم صانعوها؟!

لقـد وفّق الله علمـاء هذا العصـر إلى اختراع الكمبيوتر وصنعه، ليلفت أنظارهم إلى هذه الكمبيوترات الرائعة التي تملأ الكون، ألا وهي الأحياء جميعاً، وعلى رأسها الإنسان.

إن البعوضة ـ مثلاً ـ كمبيوتر رائع، مُبَرمج على القيام بردود فعل معينة على مؤثرات معينة. إنه كمبيوتر حي بالغ الصغر، لا يستطيع بشر أن يصنع كمبيوتراً ميتاً في مثل حجمه الصغير: ﴿إنَّ الله لا يَسْتَحْيي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعوضَةً فَما فَوْقَها. فأمَّا الذينَ آمَنوا فيَعْلَمونَ أنَّهُ الحقُّ مِن ربِّهِم، وأمَّا الذينَ كَفَرُوا فيَقُولونَ ماذا أَرادَ الله بهٰذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ويَهْدِي بِهِ كَثيراً وما يُضِلُّ بِهِ إلا الفاسِقينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

هذا الكمبيوتـر الصغير يستـطيع مثلاً أن يعرف مصادر غذائه الذي يُمِدُّه بالطاقة والقدرة على الحركة والطيران والتوالد، فيغزو هذه المصادر ـ ومن بينها جسم الإنسان ـ ويستطيع أن يسرق من دمائها ما شاء من الغذاء.

بل إن الجرثومة كمبيوتر مبرمج بالغ الصغر، لا تراه العيون، يقوم بأعمال مذهلة، فبعض الجراثيم يتغلب على جسم الإنسان، فيمرضه، ويميته، وبعضها يفيد الإنسان، فيخمِّر له العجين، ويصنع له من الحليب اللبن الرائب. وقد سخَّر العلماء بعض أنواع هذه الجراثيم أو الكمبيوترات الجرثومية، في توليد الكهرباء!!

ألا ترون الإبداع المتجلي في هذه الكمبيوترات الجرثومية والحيوانية والحشَرية؟!

ألا ترون يد الله وحكمته وقدرته وراء هذه المخلوقات المتقنة الصنع؟!

توازن البنى الثلاث:

لقد خلق الله الإنسان من بنى ثلاث: جسمية وعلمية ونفسية، وهي تكون مستقرة متوازنة عندما تتولى قيادتها البنية النفسية الأخلاقية، فحينئذ تستفيد من البنيتين الجسمية والعلمية وتنسجم معهما.

وأما إذا اختل توازن البنى الثلاث بحيث تزايدت البنيتان الجسمية والعلمية وتضخَّمتا، وبقيت البنية الأخلاقية منحطة بطغيان الأهواء ـ كما هو واقع الآن في الدول المتقدمة ـ فإنَّ كيان الإنسان بأسره يتزعزع، وتصيبه الدواهي التي قد تقضي عليه وعلى جميع الأحياء، ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً.

لقد تقدمت التكنولوجيا، فاخترعت القنابل النووية، التي تمتلكها الآن دول متصارعة منحطة أخلاقياً، لا تعرف رحمةً ولا إنسانية، بل تضع مصلحتها الأنانية فوق كل اعتبار. وقد انتشرت الصواريخ النووية في جميع الجبهات، وقد تبدأ الحرب النووية في أية لحظة بطريق الخطأ، كما يقول الخبراء، وحينئذ تقع الطامّة الكبرى.

أضف إلى ذلك انتشار المخدرات بشكل هائل، والتحلل الأخلاقي الذي يسود الدول المتقدمة، مما هدم الأسرة ـ لبنة المجتمع الأولى ـ وسبَّبَ انخفاض نسبة الولادات إلى درجة تهدد المجتمعات الغربية بالفناء.

ومن ظواهر التحلل الأخلاقي ظاهرة الشذوذ الجنسي التي انتشرت في أميركا وغيرها، وأدت إلى ظهور مرض (الإيْدز) الجديد الخطير الذي يهدم مناعة

الجسم، ويتركه عرضة للأمراض القتالة.

ولا ننسَ أيضاً الأزمات المالية، والتخبطات الاقتصادية التي تقضّ مضاجع جميع الدول؛ كبيرها وصغيرها. ولنذكر أيضاً ما يدعونه «الجريمة المنظمة»، التي تعيث فساداً في المجتمعات الحديثة «المتطورة»، فتسلب الناس ممتلكاتهم بأساليب علمية متقنة.

كل ذلك يذكرنا بالآية الكريمة: ﴿ولا يَزالُ الَّذينَ كَفَروا تُصِيبُهُم بما صَنَعوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قريباً مِنْ دَارِهِم حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ الله﴾ [الرعد: ٣١].

فإن أعمال هؤلاء الطغاة لن تمرّ دون عقاب معجل في هذه الدنيا، وهو ما يشبه معاقبة الله لأبي جهل بالقتل والهزيمة في معركة بدر، بعد أن تحدَّى هذا الطاغية دين الله، وبعد أن تحدَّى الرسول ﷺ وهدده بالقتل إذا هو صلى في الكعبة، فهدده الله بالزبانية، أي: ملائكة العذاب: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَه. سَنَدْعو الزَّبانِيَه﴾.

وها هي «زبانية» الأمراض الخطيرة الفتاكة والاضطرابات الاقتصادية المدمرة والمجاعات والحروب الماحقة تهدد العالم بأسره بالفناء، جزاءً وفاقاً، بعد سماح العالم باختلال توازن البنى الإنسانية فجعل الطغيان والأهواء هو المسيطر عليها.

□□□□□

خلاصة جدولية لسورة العلق

التأكيد على القراءة في أول السورة
كرّر جبريل (اقرأ) ثلاث مرات

بداية الإنسان
خلق الإنسان من علق

تنزيل القرآن باسم الربّ الخالق المعلم الأكرم
الذي ركبّ الإنسان من:

نهاية الإنسان
إن إلى ربك الرجعى

البُنى الثلاث

البنية الجسمية المادية خلق الإنسان من علق	البنية العلمية العقلية علّم الإنسان ما لم يعلم	البنية النفسية الأخلاقية إنَّ الإنسان ليطغى
البدايات: من علق	من جهل	من طغيان :النهايات
طهارة الجسم بالوضوء وتحريك الدورة الدموية بالركوع والسجود	قراءة القرآن في الصلاة تحث على العلم ودراسة الظواهر الكونية	تطهير النفس من الفحشاء والمنكر والهلع والجزع والشح

فوائد الصلاة للبُنى الثلاث

التأكيد على القراءة في آخر السورة بتأكيد طلب الصلاة
كلّا لا تُطِعْهُ وَاسجُدْ واقترِب

سورة الرحمٰن

الرب ، ذو الجلال والإكرام . . والميزان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ
وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ
﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ
وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ
وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ
ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ
مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ
﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ
أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ
تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ
زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ
بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ
وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ
وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ
ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ
مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

الأفكار الجديدة في السورة

١ ـ الربط بين أسماء الله الحسنى: الرحمن ـ الرب ـ ذي الجلال والإكرام، على أساس أسلوبي التربية: الترغيب والترهيب.

٢ ـ سريان فكرتي «الميزان» و«التوازن» في السورة.

٣ ـ تعليل ذِكر النِعَم (الآلاء) بعد ذكر الفناء وآيات إدخال الكفار جهنم.

٤ ـ إزالة الإشكال في آية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾.

٥ ـ تعليل إعطاء المؤمن جنّتين، لا جنّة واحدة.

٦ ـ بحث واف عن التوازن في الشريعة الإسلامية والتوازن في الظواهر الكونية، وربط التوازن بالجمال والتساوي.

* * *

نجد في هذه السورة الكريمة من أسماء الله الحسنى الأسماء التالية:

أولاً ـ الرحمن.

ثانياً ـ الرب، الذي تكرّر مراراً عديدة في الآية ﴿فبأي آلاءِ ربِّكما تُكذّبان﴾، وفي الآية ﴿ربُّ المَشرقَيْن وربُّ المَغربَيْن﴾ والآية ﴿ويبقى وجهُ ربِّكَ ذُو الجلالِ والإكرام﴾ والآية: ﴿تباركَ اسم ربك ذي الجلالِ والإكرام﴾.

فما الذي يربط بين هذه الأسماء الحسنى الثلاثة؟ وكيف تهيمن هذه الأسماء الثلاثة على معاني السورة بكاملها؟

لنبدأ بآسمه تعالى (الرب) الذي هو أكثر هذه الأسماء تكراراً في السورة. فمن أهم معاني الرب، المربّي والمعلم. ومن أهم الصفات التي يتحلّى بها

المربّي أن يجمع بين الرحمة والهيبة، بين الإحسان والشدة الرادعة، هكذا تقتضي طبيعة البشر التي فطرهم الله عليها. فالرحمة ـ وحدها ـ بلا شدّة، تجعل الإنسان يطمع في المربّي، فيتهاون في تنفيذ أوامره، فيقع في التَسيُّب والانفلات، مما يؤدي به إلى الهاوية.

يجب أن يكون هناك توازن بين رحمة المربي وشدته، أي أن يستعمل أسلوبي الترغيب والترهيب، وذلك كما وصف الله أنبياءه الكرام بقوله: ﴿ويَدْعونَنا رَغَباً وَرَهباً﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وإن لله تعالى نوعين من الصفات الحسنى: صفات الجلال وصفات الجمال. فصفات الجمال كمثل: الكريم، الرحيم، الغفور، الودود، الرزاق، اللطيف، الحنّان، المنّان.

وصفات الجلال كمثل: الجبّار، العظيم، القوي، القهار.

وقد اجتمع هذان النوعان في سورة الرحمن في قوله: ﴿ذُو الجَلالِ والإكرام﴾. فذو الجلال يدل على صفات الجلال، التي تبعث في نفوس المخلوقات الرهبة والهيبة، بينما ﴿ذو الإكرام﴾ إشارة إلى صفات الجمال التي يتجلى الله بها على خلقه فيرزقهم ويتلطف بهم.

وهكذا نجد أن صفتي الله تعالى ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ تنسجمان مع صفتي (الرب) وهما الرحمة والهيبة، المتضمنتان في قوله تعالى: ﴿نَبّىء عِبادي أنّي أنا الغَفورُ الرحيمُ، وأنَّ عذابي هُو العَذابُ الأليم﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]. فصفتا الجلال والإكرام يتوازن فعلهما في خلق الله الذي أسس الكون كله على أساس من التوازن: ﴿والسّماءَ رفَعَها وَوَضَعَ الميزان﴾.

وأما صفة الله (الرحمن) فتجمع بين الرحمة والهيبة أيضاً، كما مرّ سابقاً في سورة الفاتحة، فهي لا تخلو من الشدة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يا أَبَتِ إنّي

أَخَـــافُ أنْ يَمسَّـــكَ عَذابٌ مِنَ الـــرحمن﴾ [مـريم: ٤٥]، فالـرحمن يصيب المخلوقات بالعذاب.

وهكـــذا تنسجم هذه الصفـات الثـلاث: الـرب والـرحمن وذو الجـلال والإكـرام، وتتفق في أنها تجمع بين الرحمة والهيبة، بين الترغيب والترهيب. ولننظر الآن كيف تسري فكرة الترغيب والترهيب في السورة الكريمة.

الترغيب والترهيب في سورة الرحمن:

أولاً ـ في قوله تعالى: ﴿الرحمنُ علَّم القُرآن﴾ نجد أن الله قد أنزل القرآن وعلّمه للناس، وما القرآن الكريم إلا كتاب للتبشير والإنذار، للترغيب والترهيب، وهو طافح بالقصص التي ترغب القارىء في فعل الخير، وترهبه وتحذّره من فعل الشر.

ثانيـاً ـ ﴿الشمسُ والقمـرُ بِحُسْبَـان﴾: إن التفكير في الأجرام السماوية الضخمـة من شمس وقمر ونجوم لا تحصى تملأ السماء اللامتناهية يبعث في النفس الرهبة، كما أن منظر القمر حين اكتماله ومنظر النجوم المتلألئة ليلاً تبعث في النفس الحب لمبدعها وترغب في التقرب إليه.

ثالثاً ـ إن ذكر النِعَم (الآلاء) التي يُغدقها الله على الإنس والجن، من فواكه ونخيل وحب وريحـان، وبحـار وسفن ضخمة تمخر عبابها، محمّلةً بالبضائع الـوافرة التي منها وسائل الزينة، كاللؤلؤ والمرجان، كل ذلك يبعث في النفس المحبة للمنعم سبحانه، ويرغّب في طاعته.

ومن ناحية أخرى فإن ذكر البحر ﴿مَرَجَ البحرينِ يَلتَقيان﴾ يبعث في النفس الرهبة، وأي منظر أرهب من منظر أمواج البحر الهائج العالية المتلاطمة؟ وأي خطر أفزع من خطر الغرق فيه أو التعرض إلى أذى أسماكه وحيتانه المفترسة؟

رابعاً ـ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ﴾ : إنّ ذكر تَوجُّـه سكـان السمـاوات والأرض إلى الله تعالى بالسؤال والدعاء طالبين قضاء حاجاتهم، يوحي بأنه تعالى كريم يجيب الدعوات، ويحث الناس جميعاً على دعائه، مما يبعث في النفس الأمل والترغيب.

خامساً ـ ﴿كـلُّ مَنْ عَلَيْهـا فانٍ﴾ : إن ذكـر هذا الفنـاء الجماعي ليبعث في النفس الرهبة، وما أرهب الفناء والموت وما وراءه!

سادساً ـ ﴿يا مَعْشَـرَ الجِنِّ والإنْسِ إنِ اسْتَـطعتُم أنْ تَنْفُـذوا مِنْ أقْـطارِ السمـاواتِ والأرضِ فَانفُـذوا لا تنفُـذونَ إلَّا بسلطان﴾ : إنّ تحدّي الله للإنس والجن بمحاولة الهروب من أقطار السماوات والأرض، وما ينتج عن هذه المحاولة مِن قذفهم بشواظ من نار ونحاس، هو أمر يبعث في النفس الرهبة.

سابعاً ـ إن ذكر انشقاق السماء وما يليه من أحوال أصحاب النار يبعث في النفس الرهبة.

ثامناً ـ ﴿ولمن خَافَ مقامَ ربِّه جنَّتان﴾ : إن ذكر أحوال أهل الجنة ونعيمهم يبعث في النفس الرغبة في العمل الصالح الموصل إلى الجنة.

هل جهنم نعمة؟ :

ربما يتساءل بعض الناس: لقد ذكر الله آلاءه ونعمه على الإنسان من فاكهة ونخـل وحب وريحان وسفن كالأعلام ولؤلؤ ومرجان وغيرها، وكان بعد ذكر كل نعمة يذكّر القارىء بها قائلاً: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان؟﴾.

ولكن ذكر نفس هذه الآية، آية الآلاء والنِعم، بعد ذكر جهنم وغيرها من الأهـوال، فقـال: ﴿هٰذِهِ جهنمُ الّتي يُكذِّبُ بِها المجْرِمونَ، يَطوفونَ بَيْنَها وبَيْنَ حَميمٍ آنٍ، فبِأَيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذبان؟﴾، فهل جنهم والحميم من الآلاء والنعم

التي يذكّر الله بها خلقه؟

طبعاً، ليست جهنم نعمةً على أحد من خلق الله، بل هي أعظم نقمة. فما المقصود إذن من ذكر الآية ﴿فبأيِّ آلاءِ ربّكما تُكذبان؟﴾ بعد ذكر جهنم؟.

أرى أنه من الممكن إزالة الإشكال إذا تذكرنا أن آية الآلاء تتضمن عنصرين رئيسيين، هما: النعم (الآلاء) من الله، والتكذيب بها من الإنسان. فأما النعم فذكرها يستدعي ترغيب القارىء، وأما التكذيب، فذكره يعني التهديد والإرهاب والإنذار بعقاب من يكذب بنعم الله، فكأن الآيتين تريدان أن تقولا: «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، وهي جزاء لهم لأنهم كذبوا بها وكذبوا بنِعَم ربهم وآلائه وجحدوا بها»، فلا تناقض ولا تضارب في المعنى.

هل الفناء نعمة؟:

قال تعالى: ﴿كلُّ مَنْ عَلَيها فانٍ ويَبقىٰ وَجْهُ رَبِّك ذو الجلالِ والإكرام، فَبِأَيِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبان؟﴾.

وهنا أيضاً ذكر الله الآلاء بعد الفناء، فهل الفناء نعمة؟

يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال، كما قدّمت قبل قليل، بأن الفناء تهديد وإرهاب للناس، وأن ذكر التكذيب بنعم الله أيضاً تهديد للمكذبين الكافرين بنعمه تعالى، فهناك تجانس وانسجام بين الموضوعين.

غير أننا يمكننا أن نعدّ الفناء ـ أي الموت ـ نعمة حقيقية، قد ينساها الكثير من الناس: تصوّر أن الفناء ـ أي موت جميع البشر وسائر الأحياء ـ قد توقّف، وظلت هذه الأحياء تتوالد وتتكاثر دون أن يأخذها الموت، إن الكرة الأرضية حينئذٍ ستمتلىء بالأحياء من بشر ودواب وحشرات لا تُحصى بحيث لا يبقى سنتمتر مربع واحد خالياً من الأحياء، وسيصبح الناس طبقات بعضها فوق بعض كلما تقادم

الزمن، وسيعاني الجميع من أعظم الضيق والكرب.

لكن المـوت جاء نعمة لسكان الأرض جميعاً، ينقذهم من هذا الكرب العظيم ويعيد إلى الحياة توازنها، فالحياة والفناء كفّتا ميزان لا بدّ منهما لصلاح الدنيا واستقرارها.

وهذا يقودنا إلى بحث التوازن والميزان في سورة الرحمن:

الرحمن والميزان:

سبق أن قلت أن صفـة الرحمن تتضمن عنصرين متوازنين يلزمان لتربية الإنسان ويجعلان منه شخصية متوازنة، وهما عنصرا الرحمة والشدة، أو الترغيب والترهيب، وهذا ينسجم مع ذكر السورة للميزان، وقد ذكرت الميزان ثلاث مرات لتؤكد أن الميزان والتوازن من المعاني الأساسية للسورة. وكأنّ السورة تريد أن تقول للناس: انظروا إلى ما حولكم من الكائنات، تجدوها رغم اختلافها وتعدّدها متـوازنـة في ظل رحمـة الـرحمن وهيبتـه: ﴿والسماءَ رفَعَها ووضع الميزان﴾، فلتنسجموا مع هذا الكون المتوازن، ولتوازنوا أعمالكم: ﴿ألّا تَطغَوا في الميزانِ وَأَقيمـوا الـوَزْنَ بِالقِسطِ ولا تُخسِـروا الميزانَ﴾، فذلـك هو السبيل الوحيد إلى السعادتين الدنيوية والأخروية.

ثم استنتجـوا من توازن جميع أجـزاء الكـون أن وراءها رباً عظيماً قديراً حكيماً هو الذي أحكم توازنها، ولولاه لما بقي كون ولما بقيت كائنات.

إن فكرة (الميزان) من الأفكار التي تسري في سورة الرحمن ـ كما تسري فيهـا فكـرة الترغيب والترهيب التي عرضتها سابقاً ـ فتجعلان من السورة وحدة متماسكة منسجمة: ﴿ولو كانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللهِ لوَجَدوا فيهِ آخْتلافاً كثيراً﴾.

وقبل أن أعرض أين تسري فكرة (الميزان) في السورة، لنسأل أنفسنا:

ما الميزان:

الميزان بمعناه الخاص هو آلة معروفة تستعمل لقياس وزن الأجسام المادية. غير أن كلمة (الميزان) كثيراً ما تُطلق على غير ما وُضِعت له في الأصل. ففي تفسير ابن كثير أن الميزان في قوله تعالى: ﴿والسَّماءَ رفَعَها وَوَضَعَ الميزانَ﴾ تعني (العدل)، وهو أمر معنوي غير مادي يتعلق بالأخلاق الإنسانية.

وكذلك فإن للأجسام المادية خواص أخرى غير الثقل يحتاج الإنسان إلى قياسها. فللأجسام مثلاً طول، يحتاج باعة القماش إلى قياسه عند بيعهم القماش، وللأجسام حجم يحتاج باعة الزيت إلى قياسه، وللأجسام درجة حرارة يحتاج الأطباء إلى قياسها حين يفحصون المرضى، وللأجسام المتحركة سرعة يحتاج سائق السيارة إلى معرفتها حينما يقود سيارته، وللأجسام بُعد زماني يحتاج جميع الناس إلى قياسه لضبط أوقات عملهم، وللكهرباء صفات لا بدّ من قياسها كشدة التيار والتوتر والمقاومة.

ويمكن اعتبار كل الآلات التي تقيس هذه الخواص المختلفة (موازين): فالساعة اليدوية أو الجدارية ميزان للزمن، وآلة قياس درجة الحرارة تُعرف بين الناس بآسم (ميزان الحرارة)، وآلة قياس السرعة هي (ميزان) للسرعة، وبعض الأدوات الهندسية التي يستخدمها الطلاب هي (موازين) كالمسطرة والمنقلة، بل إنّ للكلام موازين، كالأوزان العَروضية التي توزن بها القصائد الشعرية.

وهناك أيضاً موازين لقياس قدرات الإنسان الذهنية. وما الامتحانات المدرسية إلّا (ميزان) يقاس به ذكاء الطالب ومقدار علمه. وهناك موازين لقياس أخلاق الإنسان وامتحانها، وما المصائب التي تصيب الإنسان إلا (ميزان) تقاس به أخلاق الإنسان من صبر ووفاء، وذلك كما قال الشاعر:

جزى الله الشدائدَ كلَّ خيرٍ ... عَرَفْتُ بها عَدُوّي مِن صديقي

ويمكن تعريف الميزان بأنه كل آلة مادية أو لفظية أو ذهنية تستعمل لقياس كميات الأشياء أو تميّز درجات صفاتها.

ولننظر الآن كيف تسري فكرة (الميزان) في سورة الرحمن:

١ ـ القرآن ميزان:

إن ثاني آية من السورة هي ﴿عَلَّمَ القرآن﴾، والقرآن الكريم هو أعظم (ميزان) نقيس به الأعمال لنعرف أهي حق أم باطل، ونميز به الحلال من الحرام. فالله بموجب الميزان القرآني هو الحق، والأصنام هي باطل، والبيع حلال والربا حرام. وقد قرَنَ الله الميزان بالقرآن في قوله تعالى: ﴿الله الّذي أَنْزَلَ الكتابَ بالحقِّ والميزان﴾ [الشورى: ١٧].

٢ ـ الإنسان ميزان:

ذكر الله الإنسان في مطلع السورة فقال: ﴿خَلَقَ الإنْسانَ﴾ ثم في قوله: ﴿خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالفَخّارِ﴾. والإنسان ميزان، بل عدة (موازين) مادية ومعنوية مشهورة. فيمكن اعتبار جلد الإنسان ميزان حرارة، فبيَدهِ يلمس الأجسام، كالماء مثلاً، فيقيس ـ ولو بصورة تقريبية ـ درجة حرارته.

ويد الإنسان ميزان للأثقال يبلغ درجة عالية من الدقة، وخاصة عند بعض الباعة المتمرسين في بيع الأشياء الموزونة، كبائع الخضار الذي يعرف وزن كيس مملوء بالخضار بمجرد حمله بيده. والمثل السائر يقول: (يدُ الحُرّ ميزان).

وعقل الإنسان ميزان، يقدّر به قيم العمليات الحسابية كالضرب والجمع والطرح والقسمة، فهو آلة حاسبة تُقدِّم للمسألة أرقاماً محدودة.

وعين الإنسان ميزان يقدّر به الأطوال والمسافات والمساحات والحجوم، كما يميّز به شدة الإضاءة، ويميز الألوان ابتداءً من اللون الأحمر وصعوداً إلى

البرتقالي فالأصفر. . وانتهاء بالبنفسجي.

وأُذن الإنسان ميزان يزن به شدة الأصوات ونوعها.

وحاسّة الذوق عند الإنسان ميزان يقيس به شدة الحموضة أو الحلاوة أو المرارة كما يميّز به أنواع الأطعمة.

والإنسان المدرّب على أي عمل مادي أو علمي عقلي أو خلقي أو نفسي، يكون ميزاناً ممتازاً في مجال اختصاصه. فسمسار العقارات مثلاً يمكنه أن يقدّر قيمة ما يربحه من عقار معروض للبيع بمجرد إلقاء نظرة عليه. والمدير الخبير لشركة يمكنه أن (يزن) شاباً طالباً للوظيفة في شركته، بمجرد رؤيته والتحدث قليلاً إليه، وهو ما يسمّى بالفراسة.

هذا هو الإنسان (الميزان) بل (الموازين)، فاعجب لقدرة الخالق العظيم الذي حمّله مع هذه الموازين مسؤولية عظيمة ضخمة، وهذه الموازين جميعها حُجّة عليه، وهو مطالَب باستعمالها حق الاستعمال، وإن أهملها وقع في كارثة عظيمة طبقاً لقوله تعالى: ﴿ولقد ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كثيراً من الجِنِّ والإِنْسِ لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بها، وَلَهُم آذانٌ لا يسمَعونَ بِها. أولئِكَ كَالأنعامِ بَلْ هم أَضَلُّ، أولئِكَ هُمُ الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٣ ـ البيان ميزان:

قال تعالى: ﴿خَلقَ الإنسانَ عَلَّمهُ البَيانَ﴾، والبيان في اللغة يعني (الكشف). والكشف نوعان: أولهما الكشف عما في داخل النفس من أفكار ومشاعر، أي تعبيراً بالكلام عن ذلك. وثانيهما الكشف عن أسرار الظواهر الكونية وقوانينها التي ألزمها الله بها، كالظواهر الفلكية والفيزيائية والكيماوية وغيرها.

ولقد سمّى الله كتابه (بياناً) فقال: ﴿هذا بيانٌ للنَّاسِ﴾ [آل عمران:

١٣٨]، فالقرآن الكريم كشف لجميع الحقائق المادية والمعنوية والنفسية التي تنفع الناس.

والبيان بمعنى التعبير بالكلام عما في نفس الإنسان من أفكار يمكن اعتباره ميزاناً يكشف درجة ذكاء الإنسان وعلمه، فالمرء ـ كما قيل قديماً ـ مخبوء تحت لسانه، فإذا نطق ظهرت حقيقته. وفي العصر الحديث نجد (البيان) أي الكلام الشفوي أو المكتوب، خير ميزان يُستعمَل في الامتحانات المدرسية لقياس مقدرة الطلاب العقلية والعلمية. فإن ما يكتبه الطالب في أوراق الامتحان أو ما يتفوّه به أمام الفاحصين هو ميزان يقيس ذكاءه وعلمه، وهو الأساس في نجاحه أو رسوبه.

٤ ـ الشمس والقمر ميزانان:

قال تعالى: ﴿الشّمسُ والقَمَرُ بِحُسبانٍ﴾، إن الشمس ميزان للزمان، فما هي إلّا ساعة كبرى تدور دورة ظاهرية، وبدورتها هذه يمكن معرفة الزمن. فبدء اليوم يُعـرَف بشـروقهـا، وانتهاؤه يُعرَف بغروبها، ويمكن تقدير أجزاء النهار أو ساعاته بصورة تقريبية بالنظر إلى الشمس، وهي ميزان بالغ الدقة، لا تختل أوقاته أبـداً، ومـا السـاعات التي يصنعها البشر إلا أثر من آثار هذه الساعة الشمسية الكبـرى. وكانوا قديماً يلجؤون إلى الظلال التي تلقيها الشمس وراء الأشياء، فيعرفون ساعات النهار بحساب أطوال تلك الظلال. وهناك إشارة إلى ذلك في قولـه تعالى: ﴿ألَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكناً ثم جَعَلْنا الشمْسَ عَلَيْهِ دَليلاً، ثمَّ قَبَضناهُ إلينا قَبْضاً يَسيراً﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

والشمس أيضاً ميزان زمني تعرف به الفصول الأربعة بدلالة ميل الشمس الظاهري عن سمت المكان.

والقمر (ميزان) للوقت أيضاً، فهو يقيس الشهر بتغير حجمه من هلال إلى بدر وبـالعكس، وبذلك يعطينا عدد أيام الشهر التي مضت. وقد جعله تيسيراً

للناس لمعرفة أوقاتهم، كما قال: ﴿وَيَسْأَلونَك عَن الأهِلّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ لِلنَّاسِ والحج﴾ [البقرة: ١٨٩].

٥ ـ النجم والشجر ميزان:

قال تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، لقد اكتشف العلم الحديث من النجم (وهو النبات الذي لا ساق له) والنباتات الأخرى، مواد معينة تصلح للكشف بدقة عن وجود صفات معينة في بعض المركَّبات، كمثل صبغة عبّاد الشمس التي تحدّد درجة حموضة المركبات أو قلويتها، ومادة (تيروزيناز) المستخرجة من البطاطا والتي تكشف درجة الحموضة PH.

وأبسط (ميزان) يؤخذ من الشجر هو (الذراع) أو (المتر) الخشبي الذي يستعمله باعة القماش لقياس طول أقمشتهم.

٦ ـ الأرض ميزان:

إن قوة جاذبية الأرض هي أساس جميع موازين الأثقال المعروفة، ومغناطيسيتها هي أساس ميزان الجهات الذي يسمى البوصلة المغناطيسية.

٧ ـ السماء ميزان:

قال تعالى: ﴿والسماء رفعها﴾، إن أبرز ما في السماء هو الشمس والقمر والنجوم. وقد سبق أن بينت كيف تُستعمل الشمس أو القمر ميزاناً لقياس الزمان. أما النجوم ـ التي هي جزء بارز من السماء ـ فيمكن استعمالها أيضاً لقياس الزمان، كما أنها تستعمل لقياس الجهات ـ وكان ذلك قديماً عند العرب ـ كما قال تعالى: ﴿وَعَلاماتٍ وبِالنَجْمِ هُمْ يَهْتَدون﴾ [النحل: ١٦].

٨ ـ النار ميزان:

قال تعالى: ﴿وخلقَ الجانَّ من مارج من نار﴾، إن الحرارة يمكننا أن نعرف

بها صحة الإنسان أو درجة مرضه، فهي ميزان المرض والصحة. فمن زادت درجة حرارته عن الدرجة ٣٧° مئوية أو نقصت عن ذلك كان مريضاً.

كما تستخدم الحرارة في أجهزة علمية كثيرة للقياس، منها الأجهزة التي تقيس تمدد الأجسام، وهناك أجهزة تقيس شدة التيار الكهربائي استناداً إلى ظاهرة تمدّد الأجسام بالحرارة الناتجة عن مرور التيار الكهربائي من خلالها.

٩ ـ الماء ميزان:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ البَحْرَيْنِ يلتقيان﴾، ومادة البحرين العَذْب والمِلح هي الماء. ويمكن صنع أجهزة كثيرة من الماء لقياس الأشياء، فكثافات الأجسام جميعها تقاس بالنسبة إلى الماء.

١٠ ـ السّيما ميزان:

﴿يُعرَفُ المجرمونَ بِسيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنواصي والأقدام﴾، هذه الآية تصف ما يحدث في إحدى مراحل يوم القيامة، فإن المجرمين ـ في بعض مراحله ـ يُسألون عمّا فعلوا لإحراجهم باعترافهم بذنوبهم ولإيقاعهم في حالة الخزي والمهانة. وفي مرحلة أخرى يُمنَعون من الكلام والاعتذار: ﴿هٰذا يَومُ لا يَنْطِقونَ وَلا يُؤْذَنُ لهُم فَيَعْتَذِرونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

والآية تقول: ﴿فيَوْمئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ ولا جانٌّ﴾، بل تعرفهم الملائكة بعلامات على وجوههم، وهي المُسّماة بالسيما. فالملائكة تستخدم هذه السيما لمعرفة المجرمين من المتقين، أي (تزن) درجة صلاح الإنسان.

١١ ـ الجنّة والنار ميزانان:

إن للجنة درجات وللنار درجات، ووجود إنسان في إحدى هذه الدرجات يدلّ على درجة إكرام الله له أو على درجة إهانته له. قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ

دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضيلاً﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال: ﴿إنَّ المُنافِقينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد ذكرت السورة درجتين من درجات أهل الجنة فقالت عن أصحاب الدرجة العليا ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ ربه جَنتان﴾، ثم قالت عن أصحاب الدرجة الدنيا: ﴿وَمِنْ دونِهما جَنّتان﴾.

وهكذا فإذا أردتَ أن تعرف درجة صلاح إنسان وحُسْنِ أعماله في الدنيا، فانظر إلى موقعه من الجنة أو النار.

فالسورة إذن، يسري فيها ذكر الميزان دالَّةً على نعمة الله الكبرى بتيسير جميع أنواع هذه الموازين للناس، وإننا لنعرف نعمة الله هذه إذا تذكرنا ما تقوم به الموازين من خدمات أساسية جليلة للناس، لا يمكنهم الاستغناء عنها، فالموازين العادية تملأ جميع أسواق الكرة الأرضية لتستعمل في البيع والشراء، وموازين الحرارة تملأ المستشفيات وعيادات الأطباء، ومقاييس السرعة تملأ السيارات والقطارات والطائرات والبواخر، ومقاييس الزمن (الساعات)، لا تكاد تخلو منها يد إنسان بالغ، ومقاييس الضغط والرطوبة ومقاييس الإشعاعات النووية . . . الخ تملأ المصانع وغيرها.

الكون المتوازن:

والآن، وبعد أن تم بحث فكرة الميزان في سورة الرحمن، لنبحث ما عرضته السورة من أفكار عن التوازن المنتشر في هذا الكون.

والتوازن أنواع، الغرض منها جميعاً حفظ مصلحة الإنسان (والجان).

والأشياء ليست متوازنة توازناً دائماً، بل يختل توازنها بعض الوقت، ثم تسرع العوامل الحافظة، بقدرة الله، إلى إعادة التوازن. وأبسط مثال على ذلك

الميزان العـادي، فإنّ كفتيه لا تبقيان متـوازنتين باستمـرار. فالبـائع يبدأ عملية (الوزن) بوضع الثقل (كالكيلو غرام مثلاً) في إحدى الكفتين، فتهبط هذه الكفة وتعلو الكفة الأخرى (وهذا وضع عير متوازن)، وعندما يضع المادة الموزونة في الكفة الفارغة وبالكمية الصحيحة، يعود التوازن إلى كفتي الميزان.

ومن أمثلة ذلـك أيضـاً مهـاجمة الجراثيم لجسم الإنسان، فيختل توازنه الصحي وتـظهر عليه أعراض المرض وآلامه، ثم تقوم عوامل الجسم الحافظة بالقضاء على الجراثيم، فيعود الجسم إلى التوازن ويصح بعد مرضه.

أنواع التوازن:

إنّ للتوازن أنواعاً عديدة متداخلة، منها:

١ ـ **التوازن الساكن**: ومثاله وصول كفتي الميزان العادي إلى حالة السكون بعد وضع ثقلين متساويين في الكفتين.

٢ ـ **التوازن الحركي**: ومثاله خضوع جسم ما إلى عدة قوى مختلفة الشدة والاتجاه بحيث تكون محصلة هذه القوى جميعاً قوة واحدة تسير بالجسم بحيث تحقق المصلحة. فالسيارة مثلاً تخضع لعدة قوى، كقوة ثقلها (الجاذبية الأرضية) وقوة محركها، وقوة الاحتكاك االتي تقاوم بها الأرض حركة العجلات. فإنْ نتج عن جميع هذه القوى سير السيارة في الطريق الآمن المرسوم لها، فإن السيارة تكون حينئـذ (متوازنة)، وإن كانت متحركة غير ساكنة. أما إذا كانت محصلة القوى انحراف السيارة عن طريقها الآن وسقوطها في أحد جانبيها، فإن السيارة تكون قد فقدت توازنها.

٣ ـ **التوازن الجاذبي**: وهو يعتمد على قوة الجاذبية الأرضية، ومثاله توازن كفتي الميزان.

٤ ـ **التوازن الكثافي**: إن لكل مادة كثافة معينة، وتزيد كثافة بعض المواد عن بعض. فالخشب أقل كثافة من الماء، فهو يطفو عليه. فإذا وضعنا قطعة خشب بالقوة في أسفل حوض مليء بالماء، ثم تركناها، فسرعان ما تصعد إلى أعلى سطح الماء لتطفو عليه، وبذلك يتحقق التوازن الكثافي بعد اختلاله.

٥ ـ **التوازن النفسي الإنساني**: إن الإنسان يتركّب من ثلاث بُنى رئيسية هي: البنية الجسمية المادية، والبنية العقلية العلمية، والبنية الأخلاقية. فإذا سيطرت المثل الأخلاقية العليا على جميع هذه البُنى، فأخضعت أهواء النفس وطغيانها لهذه المثل كان الإنسان متوازناً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهىٰ النَّفْسَ عَنِ الهَوى، فإنَّ الجنّةَ هِيَ المأْوى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. وإذا سيطرت الأهواء وطغت على الإنسان، فقدَ الإنسانُ توازنه، وهوى في حفرة الشقاء: ﴿فَأَمّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الحياةَ الدنيا فإنَّ الجحيم هي المأوى﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤٠].

٦ ـ **التوازن الغذائي الإنساني**: وهو خاصّ بأغذية الإنسان التي تكون متوازنة حينما تحوي جميع العناصر الغذائية الضرورية لصحة الجسم كالمواد البروتينية والسكريات والنشويات والدهنيات والفيتامينات وغيرها.

٧ ـ **التوازن الوظيفي**: وهو قيام كل عضو من جسم الإنسان بوظيفته التي خُلق من أجلها. فقيام العين بمشاهدة المحسوسات، والأذن بأخذ حظها من سماع الأصوات، والأنف بأخذ حظه من شم الروائح، والفم بأخذ حظه من تذوق الأطعمة ـ وكل ذلك ضمن حدود الاعتدال وبعيداً عن التطرف ـ يؤدي إلى توازن الإنسان جسمياً ونفسياً وعقلياً.

٨ ـ **التوازن الأحيائي**: وهو يتم بين مختلف أنواع الأحياء، فتتعايش دون أن ينقرض أحدها بسبب طغيان النوع الآخر.

٩ ـ **التوازن الجزائي**: وهو أهم أنواع التوازن، وبه يتم إعطاء العامل جزاءه

بقدر عمله، بحيث إذا وُضِع عمله في كفة، ووضع جزاء هذا العمل في الكفة الأخرى حدث التوازن بينهما. وهذا التوازن هو أساس العدل.

والآن لنبحث في أنواع التوازن التي أشارت إليها سورة الرحمن، ملاحظين أن هدف السورة من وراء ذلك هو بيان أن التوازن المسيطر على جميع أجزاء هذا الكون الفسيح إنما هو دليل ساطع على وجود الله وقدرته وحكمته ورحمته.

أ ـ القرآن أعاد التوازن النفسي للإنساني:

لقد اختلّ توازن الإنسان في العصر الجاهلي، بعد أن سيطرت عليه الأهواء والإيحاءات الشيطانية، وبعد أن آلت الديانات السماوية السابقة إلى الانهيار وفقدت تأثيرها في المجتمعات بسبب انحرافها عن الحق وتحريف كتبها المقدسة. فأراد (الرحمن) أن يعيد إلى الإنسان توازنه النفسي، فأنزل القرآن الكريم ﴿إنَّ هٰذا القرآن يَهْدي لِلّتي هِيَ أقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فذلك قوله تعالى: ﴿الرحمن عَلّمَ القرآن﴾.

ب ـ البيان حفظ التوازن بين الإنسان والحيوانات:

﴿خَلَقَ الإنْسانَ عَلَّمَهُ البَيانَ﴾، هناك كثير من الحيوانات الشرسة التي تفوق الإنسان في ضخامة أجسامها وقوة عضلاتها وسرعة حركتها، وكان من المنتظر أن تقضي هذه الحيوانات العاتية على الإنسان، لولا أن علّم الله الإنسان البيان، أي التعبير عن أفكاره بالكلام وكشف أسرار خواص المواد بعقله وذكائه. فباستعمال الكلام (البيان)، يخبر أحد أفرادهم الباقين بوجود خطر من أحد الحيوانات وبمكانه، فيحذرونه ويستعدّون له، ويصنعون بذكائهم أسلحة مضادة تعجز سائر الحيوانات عن صنع مثلها. وبذلك يتم حفظ التوازن الأحيائي بين الإنسان والحيوانات القوية.

جـ ـ التوازن الأحيائي بين الإنسان والنبات :

ذكرت السورة خلق الإنسان ثم ذكرت نعمة الله عليه بخلق الشجر والفواكه والحبوب وغيرها من النباتات. والإنسان يتوازن مع النباتات بطريقتين رئيسيتين:

الأولى: أنه يشعر بحاجته إلى هذه النباتات، فلا يفنيها، بل يستبقيها ويحافظ عليها بزرعها ويحفظها من الآفات، وبذلك يتعايش معها ويتوازن.

الثانية: أن الإنسان عندما يتنفس الأوكسجين من الهواء، فإنه يحوّله إلى غاز ثاني أكسيد الكربون، بعد استعماله في حرق الأغذية المتوافرة في دمه من أجل إمداده بالطاقة الحرارية والطاقة الحركية. ولو استمر الإنسان ومعه سائر الحيوانات في أخذ الأوكسجين من الهواء وتحويله إلى غاز الكربون، لنفد هذا الأوكسجين وانتهى، وأصبح الجو من غاز ثاني أوكسيد الكربون وغاز الآزوت اللذين لا يصلحان للتنفس ولا نقرضت جميع الحيوانات والإنسان.

غير أن يد القدرة الإلهية تدخلت، فجعلت النباتات تحتاج إلى غاز ثاني أوكيسد الكربون هذا، فتسلبه عنصر الكربون لتركّب به أغذيتها في عملية التركيب الضوئي (الكلوروفيلي)، وتطلق عنصر الأوكسجين في الهواء بكميات غزيرة، وبذلك تعيد التوازن إلى محتويات الهواء، ويتمّ حفظ النوع البشري وغيره من الحيوانات.

إنه تكامل أحيائي وتوازن عجيب!. إنه يحفظ حياة كلا الجانبين الحيواني والنباتي، وليس له إلا تفسير واحد: إرادة الله وقدرته وحكمته ورحمته.

د ـ التوازن الأعظم : توازن النفس :

﴿وَالسَّمـاءَ رَفعَهـا ووضعَ الميزان. ألَّا تَطْغَوْا في الميزان. وأَقيموا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ولا تُخسِروا الميزان﴾، خلق الله الإنسان وخلق معه نوازع نفسية متصارعة

من أمل ويأس، ورغبة ورهبة، وحُبّ وبُغض. ولو تُركت هذه الأهواء على حريتها لأوقعت الإنسان في حبال المصائب، ولأوردته المهالك. لكن الله آتى الإنسان إرادة وعقلاً ليضبط بهما هذه الأهواء، ويوازن بها هذه النوازع الطاغية، ناظراً إلى عواقبها الوخيمة إن تُركت تقذف به ذات اليمين وذات الشمال.

ومما يزيد المرء رغبة في حفظ هذا التوازن النفسي علمه بأنه مُعرّض إلى المحاسبة على أعماله بمقتضى دستور إلهي، يبيّن الأعمال التي سيكافأ عليها بالخير، وتلك التي سيجازى عليها بالعقاب.

والدنيا والآخرة كفّتا ميزان، فلا يجوز أن تطغى كفة الدنيا على كفة الآخرة، ولا يجوز عكس ذلك. وهذه هي الخاصة الأساسية لدين الله، وهي أن يعمل الإنسان للدنيا والآخرة معاً، فلا رهبانيةَ في الإسلام، ولا انفلات شهواني مادي، بل توازن كامل وتكامل بين الدنيا والآخرة، فلا طغيان لإحداهما على الأخرى.

ومن مظاهر هذا التوازن النفسي أن يعطي الإنسان الحقوق لأصحابها، فإن كان بائعاً فوزن لأحد زبائنه شيئاً فإنه لا ينقص من الوزن شيئاً، وإن كان مشترياً فإنه لا ينقص من الثمن شيئاً: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِروا الميزان﴾.

ومن مظاهر التوازن النفسي التفاؤل، فلا يأس في الإسلام: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الذينَ أسْرفَوا على أَنْفُسِهم لا تقْنطوا مِنْ رَحْمةِ اللهِ إنَّ الله يغفِرُ الذُنوبَ جَميعاً إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَحيم﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَومُ الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧].

هـ ـ التوازن الغذائي في الإنسان:

﴿والأرْضَ وَضعَها لِلأنامِ فيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الأكمامِ والحبُّ ذو العَصْفِ والريحانُ﴾، ذكر الله في هذه الآيات أنواعاً مختلفة من الأغذية التي أنعم الله بها على الإنسان، مما يُشعر بأن صحة الإنسان تقتضي أن يكون غذاؤه متنوعاً

متوازناً يحوي جميع المركبات الغذائية الرئيسية من بروتينات (نجدها في الحب ذي العصف) ونشويات (في الحبوب أيضاً) وسكريات (في النخل)، وفيتامينات (في الفواكه وغيرها)، ودهنيات (في الحبوب كالذرة التي يستخرج منها الزيت).

وهناك إشارة واضحة إلى الأغذية الحيوانية في قوله تعالى: ﴿والحب ذو العصف﴾، فالعصف هو التِبن، وهو ليس غذاء مباشراً للإنسان، بل هو غذاء للحيوانات التي يأكل الإنسان لحمها وبيضها ويشرب ألبانها.

و ـ التوازن الوظيفي في الإنسان:

يتركب جسم الإنسان من عدة أجهزة وحواس، كالجهاز الهضمي والجهاز العضلي والعينين والأذنين وجهاز الشم والذوق. ولكل من هذه الأجهزة وظيفة خاصة بها. وهي جميعاً تتعاون وتتكامل وتنسجم فيما بينها لكي تحفظ حياة الإنسان وصحته، فإذا قام كل جهاز منها بالوظيفة التي خلقه الله من أجلها ـ دون تفريط أو إفراط ـ فإن الجسم بأجمعه يكون متوازناً مستقراً. وإلاّ وقع في النقص والخلل.

فمن الوظائف التي يجب أن يقوم بها الإنسان، والتي يتميز بها عن الحيوان ـ العقل ـ، فيستعمل دماغه وتفكيره في اكتساب (العلم). وقد أشارت السورة إلى ذلك بقولها: ﴿عَلَّمَ القُرآنَ﴾، وكذلك من وظائفه (البيان)، بمعنى التعبير عن المشاعر والأفكار بالكلام، أو بمعنى الكشف عن أسرار القوانين الكونية باستعمال العقل أيضاً.

ومن الأجهزة التي أنعم الله بها علينا حاسّتا الشّم والنظر، فيجب أن نشكر الله عليهما باستعمالهما دون إفراط أو تفريط، فنمتعهما بما خلق الله لهما من مُتع طبيعية طيبة. وقد أشار الله إلى ذلك بإيراده (الريحان) بين الأغذية المذكورة في السورة من فاكهة ونخل وحَب. والريحان نبات معروف طيب الرائحة، لا يُستعمل

إلّا لرائحته العطرة، وذكره هنا إشارة إلى أننا علينا أن نتمتع بجميع المواد الطيبة الرائحة، وكان الرسول ﷺ أكثر الناس تطيّباً.

وكذلك شجّعت السورة على إمتاع العين بمتعها البريئة بإشارتها إلى اللؤلؤ والمرجان بقولها: ﴿يَخْرُجُ مِنْهما اللُّؤْلؤ والمَرْجانُ﴾، وقد عدّتهما السورة من النعم (الآلاء) التي لا ينبغي إنكارها. وهما زينة بصرية تتمتع بها العين: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللهِ الّتي أخرَجَ لِعبادِه والطَّيّباتِ مِنَ الرزق؟﴾ [الأعراف: ٣٢].

فالإسلام دين متوازن يعطي كل عضو من أعضاء الجسم حقه المشروع، ويعتبر تمتّع العضو بالمتع الشرعية عبادة يؤجر المسلم عليها.

ز ـ التوازن الحراري في جسم الإنسان:

﴿خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صلصالٍ كالفَخّار﴾، تشير هذه الآية إلى خَلق الإنسان من صلصال، وهو طين مشوي بنار خفيفة، أقل شدة من النار التي يُشوى بها الفخّار. وهذا يعني أن النار تدخل جزئياً في تركيب الإنسان. ولدخولها في تركيبه نتيجتان:

الأولى: أن الإنسان يشارك الجان في شيء من تكوينه الأساسي وهو النار: ﴿وَخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ من نار﴾. ومن هنا يستطيع الشيطان أن يتسرّب إلى قلب الإنسان فيوسوس له عن طريق هذا الخيط الرفيع من النار الذي يدخل في تركيبه.

الثانية: أن درجة حرارة الإنسان الثابتة عند درجة ٣٧° مئوية في حالة صحته مرجعها إلى تكوينه الأصلي من الصلصال الذي عولج بالنار اللطيفة. وهذا يقودنا إلى ذكر التوازن الحراري في جسم الإنسان. إذ يكون الجسم متوازناً عند الدرجة ٣٧° مئوية، ويختل توازنه الحراري عند المرض فتزيد درجته أو تنقص عن الدرجة ٣٧° مئوية.

ويلاحظ أن الجسم الصحيح يستطيع المحافظة على توازنه الحراري في جميع الظروف. فعندما يصبح الجو حارّاً، نجد الغُدد العَرَقية تفرز (وبصورة أوتوماتيكة ـ ويا للعجب!) كميات من العرق تتناسب مع شدة حرارة الجو، مما يسبب برودة للجسم تحفظه عند الدرجة الثابتة ٣٧°م.

إنها خطة مُحكمة واضحة، وراءها مخطِّط حكيم ينفذّها تنفيذاً عملياً دقيقاً، كما ينفّذ غيرها من الخطط العديدة الرائعة التي يعجز أعظم العلماء عن فهم بعض أسرارها!

ومَن لم يدرك بعقله هذا الصانع الحكيم فهو أعمى أصم، وهو كافر بالعقل والمنطق ﴿أَمْ تَحْسَبُ أنّ أكْثَرهم يَسْمَعونَ أو يَعقِلون؟! إنْ همْ إلاَّ كَالأنعامِ بل هُمْ أضَلُّ سبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤]، ﴿ولَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيراً من الجنِّ والإنْسِ لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها، ولَهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها، ولَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بِها، أولِئكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ، أولِئكَ هُمُ الغافِلونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ح ـ التوازن الهندسي في الإنسان:

﴿خَلَقَ الإنْسانَ من صَلْصالٍ كالفخار﴾، أريد الآن أن ألفت النظر إلى الشكل الذي خلق الله عليه الإنسان: إن نظرة واحدة إلى صورة جسم الإنسان تُشعِرنا بتوازنه الهندسي. فإن لكل إنسانٍ يَدَيْن متساويتين متطابقتين. كذلك له رجلان متطابقتان، وعينان وأذنان ورئتان وكتفان وكليتان..

والإنسان عموماً نصفان متناظران متوازنان، وهما أشبه بكفتي الميزان. كما أن النوع البشري جنسان متمايزان هما الذكر والأنثى، وهما متوازنان في كثير من النواحي، فالأبوان مربّيان للطفل الذي يحتاج إلى عاطفة الأم وحنانها كما يحتاج إلى شدة الأب وهيبته.

التوازن في الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض:

﴿الشمْسُ والقَمـرُ بِحُسْبـانٍ، والنجمُ والشَجَـرُ يَسْجُدان، والسماءَ رفعَها ووضع الميزان. . . والأرْضَ وَضَعَها للأنام﴾.

إنّ هذا الكـون الـواسـع متـوازن بأسـره توازنـاً عجيبـاً. فمـلايين النجـوم تملأ السماء ضمن عدد لا يُحصى من المجرات. وما النجوم إلا شموس عاتية شديدة الحـرارة تتـركب من غازات متـطايرة لشـدة حرارتها، وتنشأ حرارتها عن انفجارات نووية هائلة متواصلة. وجميعها تتحرك بسرعات هائلة، ولكن دون أن تتصادم، ودون أن تمسّ كل هذه الانفجارات الرهيبة الأرض وسكانها بأدنى أذىً، ولعدة ملايين من السنين.

كيف يتم ذلك؟! إنها أعجوبة الأعاجيب!

الأرض موضوعة بالنسبة إلى الشمس في موقع معين محدّد، بحيث تجري بسرعة متوازنة ـ وهو نوع من التوازن الحركي. إنها لو ابتعدت قليلاً عن الشمس لتجمـدت جميع مياههـا ومـات جميع أحيائها، ولو اقتربت قليلاً من الشمس لاحترق جميع أحيائها وبادوا. إنها تخضع كما يقول العلماء، لقوتين رئيسيتين هما القوة الجاذبة والقوة النابذة.

فالقـوة النـابذة تحاول إبعادها عن مدارها حول الشمس، والقوة الجاذبة تحـاول جذبها نحو الشمس. غير أن هناك (توازناً) دقيقاً بين هاتين القوتين لا يسمح لإحداهما بالطغيان على الأخرى، فتبقى الأرض في هذا المكان الآمن.

إنه نوع من التوازن الحركي والتوازن الحراري والتوازن الجاذبي في آن واحد.

وكذلك يدور القمر على بعد آمن حول الأرض. ولو اقترب القمر قليلاً من

الأرض لزادت قوة جاذبيته بالنسبة إلى الأرض، ولأحدث ذلك مداً هائلاً في البحار يؤدي إلى إغراق اليابسة جميعها بمياه المحيطات، مما يهلك سكانها جميعاً.

ط ـ توازن الأرض بالجبال:

تعيش الأحياء على قشرة الأرض آمنة مطمئنة، وهي لا تكاد تشعر بالخطر المتفجر العظيم الذي يقع تحت أقدامها. فباطن الأرض ملتهب متفجر. وهو جدير أن يزلزل القشرة الأرضية، ويقلب عاليها سافلها ويحرق ما عليها من أحياء.

غير أن إرادة الله قد أقامت الجبال الهائلة في مواطن معينة على القشرة الأرضية، لتقاوم هذا الضغط الباطني الكبير، وتحفظ توازن القشرة الأرضية: ﴿وَأَلْقى في الأرضِ رَواسِيَ أنْ تَميدَ بكم﴾ [النحل: ١٥].

وقد يدع الله هذه القوى المتفجرة تظهر أحياناً ظهوراً بسيطاً ولبعض الثواني، تظهر بشكل زلازل تقتل عشرات الألوف من الناس، أو براكين تصبّ حممها على مناطق آهلة بالسكان فتفنيهم، وما ذلك إلا إيحاء للإنسان بأنه واقع بين فكّي كماشة نارية، فكّها السفلي باطن الأرض الملتهب، وفكها العلوي سعير التفجيرات النووية الهادرة في الشمس: ﴿يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنْسِ إن اسْتَطَعْتُم أن تَنفُذوا مِنْ أقْطارِ السّماوات والأرضِ فَانْفذُوا، لا تَنْفُذُونَ إلاَّ بسلطان. فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَان؟ يُرْسَلُ عليكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ ونحاسٌ فلا تَنْتِصران﴾.

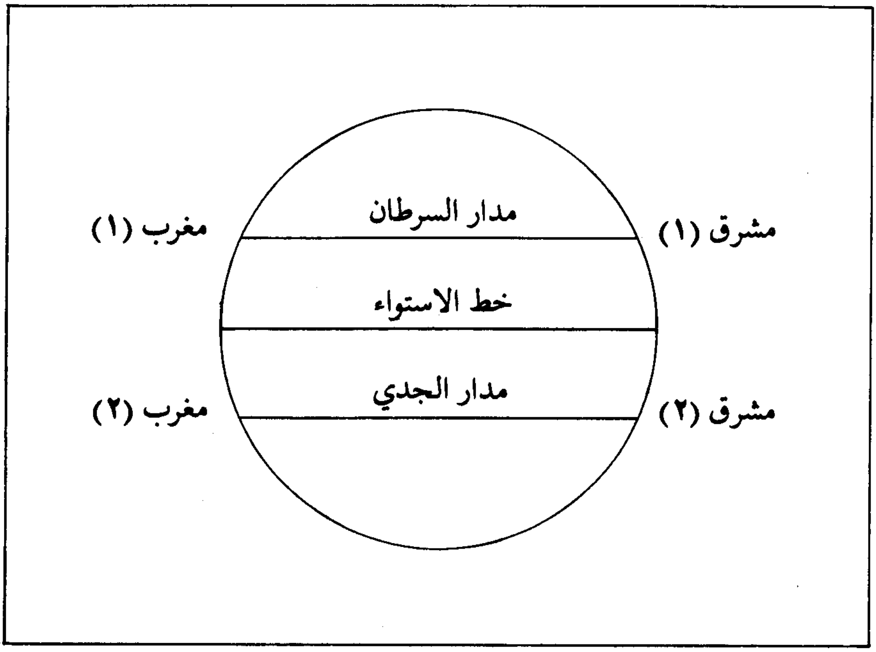
إن رحمة الله وحدها هي تحفظ التوازن الحراري وغير الحراري لهذه الأرض التي نعيش عليها.

كما أن هذه الزلازل والبراكين إشعار لنا بأن الله قادر على أن يُذيق أهل الأرض العذاب من فوقهم بحمم البراكين، ومن تحت أرجلهم بالزلازل: ﴿قلْ

﴿هُوَ القادِرُ على أنْ يَبْعَثَ عليكُمْ عَذاباً مِن فوقِكُمْ أَوْ مِنْ تحتِ أرجلِكُم﴾ [الأنعام: ٦٥]، وأنه قادر على إقامة القيامة على الناس في كل لحظة بالزلازل والبراكين وغيرها، طبقاً لقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكمْ إنَّ زَلزَلَةَ الساعةِ شيْءٌ عظيم. يومَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرى الناسَ سُكارى وَما هُمْ بِسكارى ولكنّ عَذابَ اللهِ شَديد﴾ [الحج: ١، ٢].

ي ـ ربّ المشرقين وربّ المغربين: توازن حراري:

إن ذكر المشرقين والمغربين إشارة واضحة إلى التوازن الحراري على سطح الكرة الأرضية. إذ أنّ للشمس حركة ظاهرية تنتقل بها من مدار السرطان في نصف الكرة الشمالي إلى مدار الجدي في نصفها الجنوبي، مارةً بخط الاستواء، وتتردد بينهما مُحْدثةً الفصول السنوية الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء.



وبذلك يأخذ كل من نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي حظه من حرارة الشمس بصـورة متوازنة خلال هذه الفصول. وهذا الاختلاف في توزيع الحرارة يؤدّي إلى اختلاف ضغط الهواء في المناطق المختلفة، فيحدث اختلال في التوازن الكثافي القائم بين الكتل الهوائية المختلفة، فتحاول الكتل الهوائية إعادة هذا التوازن، وذلك بتحرك الكتل الأكثر كثافةً إلى داخل الكتل الأقل كثافةً، فتنشأ الرياح، وتنشأ عن ذلك دورة الأمطار التي تؤدي بدورها إلى التوازن المائي على الأرض كما سنرى قريباً إن شاء الله.

ك ـ التوازن المائي:

﴿مَرَجَ البَحْرَينِ يَلْتقِيان بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان﴾، يكاد المفسرون يُجمعون على أن البحرين هما البحر الملح والبحر العذب، وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وما يستوي البَحرانِ هٰذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغٌ شَرابُهُ وَهٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

ويمكننا أن نعتبر البحر العذب مياه جميع الأنهار العذبة والبحيرات العذبة التي على سطح الأرض، وأن نعتبر البحر الملح جميع البحار المِلحة. وهناك توازن دقيق بين كميتي المياه الملحة والمياه العذبة والأرض اليابسة التي تفصل بينهما، والتي قد تشير إليها كلمة (برزخ) التي وردت في الآية.

وكما سبق، فإن اختلاف درجة الحرارة في مناطق الأرض المختلفة يسبب هبوب رياح مختلفة تثير السحب من البحار الملحة، وتسوقها بإذن الله إلى جوّ الأرض اليابسة حيث تتكاثف إلى مياه وثلوج تهطل على سطح اليابسة، فتجري أنهار صغيرة وكبيرة تحيي الأرض بعد موتها، وتفيد الأحياء جميعاً، وعلى رأسها الإنسـان. ثم تعـود هذه الأنهار على الأغلب فتصب في البحار، بعد أن تنجز مهمتها المخططة لها. وبذلك يتم التوازن بين كميتي المياه العذبة والمياه المِلحة

التي تفوق في الواقع الكميةَ العذبة، بل إن المياهَ الملحة تفوق كثيراً مجموع أراضي اليابسة، وذلك لحكمة عظيمة، هي أن المياه الملحة ـ بعكس المياه العذبة ـ مضادة للعفونة وللجراثيم، فلو زادت كمية المياه العذبة عما هي عليه الآن لانتشرت الجراثيم والأمراض الخطيرة التي تهدد حياة الإنسان، فالنِسْبة الحالية بين البحرين العَذب والملح تؤدي إلى حفظ التوازن الصحي للإنسان.

ل ـ المشرقان والمغربان: توازن معاشي أيضاً:

إن المشرق والمغرب إشارة إلى شروق الشمس وغروبها، أي إشارة إلى النهار والليل، وتعاقبهما يؤدي إلى نوعين من التوازن:

الأول: هو التوازن الحراري، فلو لم يتعاقب الليل والنهار على مناطق الأرض، أي لو بقيت بعض مناطقها معرضة إلى نهار دائم، وبعضها الآخر معرضاً إلى ليل دائم، لتعرضت المناطق الأولى إلى حرارة شديدة تهلك أحياءها، ولتعرضت المناطق الثانية إلى برد هائل يبيد أحياءها: ﴿قُلْ أرأيتم إنْ جعلَ الله عليكمُ الليلَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيامةِ، مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأْتيكُمْ بضِياءٍ؟ أَفَلا تسمَعون؟. قُلْ أَرَأيْتُم إنْ جَعَلَ الله عليكُمُ النهارَ سَرْمَداً إلى يوم القِيامةِ، مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُمْ بِلَيْلٍ تسكنونَ فيهِ؟ أفلا تُبْصِرون﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

الثاني: هو التوازن المعاشي الذي أشارت إليه نفس هذه الآية، فقد قسم الليل والنهار معيشة الإنسان إلى قسمين رئيسيين، أولهما: فترة العمل والكدح في النهار، ويساعده على القيام بها ضوء النهار. وثانيهما: فترة الاستراحة واستعادة النشاط، ويساعد على القيام بمهمتها غياب الضوء وانتشار الظلام.

م ـ اللؤلؤ والمرجان: توازن أحيائي:

﴿يخرُجُ مِنهما اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجان﴾: إن اللؤلؤ الجميل منشؤه من حيوان بحري صغير، يعيش داخل صَدَفة كلسية تقيه من الأخطار. وله شبكة عجيبة

النسج، تكون كمصفاة، تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتمنع دخول الرمال والحصى وغيرها. ولكن إذا حدث أن دخلت ذرة رمل أو قطعة حصى أو حيوان ضارّ عنْوَةً إلى الصدَفة، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ليتجنب شرها، ثم تتجمد المادة اللزجة حولها مكوّنةً لؤلؤة! وعلى حسب حجم الجسم الداخل يختلف حجم اللؤلؤة.

وهكذا نرى أن اللؤلؤ ينتج عن قوتين متوازنتين: أولاهما، القوة التي تدفع بالحصاة أو الجسم الغريب إلى داخل صدفة الحيوان. وثانيتهما، قوة الحيوان في الدفاع عن نفسه بإفراز المادة اللزجة التي توقف تقدّم الجسم المعتدي... إنه توازن حقيقي ضروري لحفظ حياة الحيوان صانع اللؤلؤ!

وأما المرجان، فهو صخور كثيرة ذات أشكال جميلة وألوان متعددة، تنشأ أيضاً من حيوانات بحرية، ويطلق عليها عادةً اسم (الشعاب المرجانية) التي تشكّل مستعمرات أو ملاجىء لعدة أنواع من الأسماك الصغيرة، تأوي إلى باطنها وبين شقوقها هرباً من الأسماك الكبيرة التي تفترسها.

وبذلك تكون هذه الصخور المرجانية (برزخاً) يحفظ التوازن بين الأسماك الصغيرة الضعيفة، والأسماك الكبيرة المفترسة، ويمنع هذه من البغي على تلك. وهذا نوع من التوازن الأحيائي.

وهكذا نرى أن البحرين العذب والملح لا يبغي أحدهما على الآخر، وفي باطنهما مخلوقات حية، لا يبغي بعضها على بعض، فالأمر كله توازن في توازن. فسبحان الخلاق العليم الحكيم!

ن ـ السفن... والتوازن:

﴿وَلَهُ الجَوارِ المنْشآتُ في البَحرِ كالأعلام﴾، إنّ الجواري هي السفن التي

تجري على سطح الماء. وتوازنها حركيّ، يتم بسيرها بسرعة معينة بحيث تنقل الناس والبضائع من بلد إلى بلد. فإذا توقفت لسبب ما، اختلت وظيفتها، فاختل توازنها لتعطلها عن أداء ما صُنِعت له. وكذلك قد يختل توازنها الكثافي فتغرق.

قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ومِنْ آياتِهِ الجَوارِ في البحرِ كالأعْلام. إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الريحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكدَ على ظهره﴾ [٣٢، ٣٣]. فبقاء السفن ساكنات على ظهر البحر اختلال في توازنها وتعطيل لمهمتها، وإخلال بمواعيد ركابها ومصالحهم.

ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان قد صنع السفن استناداً إلى التوازن الكثافي الكائن بين أنواع موادها المختلفة. فالسفن تعوم ولا تغرق استناداً إلى التوازن القائم بين قوتين: هما:

أولاً: قوة ثقل السفينة (الجاذبية الأرضية) التي تجرّها نحو الأسفل.

ثانياً: قوة ما يسمى «بدافعة أرخميدس» التي تدفعها إلى الأعلى.

وفي العصور الحديثة أخذ الناس يصنعون سفناً ضخمة جداً هي البواخر الهائلة التي (كالأعلام)، أي كالجبال، وهي من نعم الله العظمى على الناس ﴿فبأيّ آلاءِ رَبكُما تُكَذِّبان؟﴾.

س ـ التوازن الجزائي:

هناك توازن دقيق جداً بين أعمال الناس في الدنيا وجزائهم عليها في الآخرة. فلو وُضع عمل الإنسان في دنياه في كفة ميزان، ووضع جزاء هذا العمل في الكفة الأخرى لتساويا تساوياً تاماً مطلقاً. وقد أكدت سورة الرحمن هذا المعنى فقالت: ﴿هَلْ جَزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحْسان؟﴾.

وبعد أن تورد السورة بعض ظواهر يوم القيامة العنيفة قائلةً: ﴿فإذا آنْشقَّتْ

السَّمـاءُ فكـانَتْ وَرْدَةً كالدهان. . .﴾، تعُدّ السورة نتائج أعمال البشر الدنيوية وجزاءهم فتقســمهم إلى طائفتين كبيرتين معروفتين، هما أهل الجنة وأهل النار لكنها تدقّق في جزاء أهل الجنة، فتقسمهم بدورهم إلى قسمين رئيسيين:

أولهما: السابقون المقرّبون، الذين وصلت أعمالهم وأحوالهم إلى مرتبة (الإحسان) التي أشار إليها الحديث الشريف بقوله: الإحسان أن تعبُدَ الله كأنك تراه، فإنْ لم تكُن تراه فإنه يراك.

وثـانيهمـا: أصحـاب اليمين، وهم عامة المؤمنين الذين كانت أعمالهم وأحوالهم أدنى درجةً من أعمال القسم الأول.

لذلك نرى السورة تميّز تمييزاً واضحاً بين جزائي هذين الفريقين من أهل الجنة. فبعد وصف الجنتين المعدّتين لكلٍ من أفراد الطبقة الأولى نراها تقول: ﴿ومِنْ دونهما جنتان﴾، أي أقل منهما في الدرجة الجنتان المعدّتان لكل من أفراد الطبقة الثانية. وقد وصـف جنّتي الطائفة الأولى بأنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ أي غزيرتا الأغصان، بينما وصف جنّتي الطائفة الثانية بأنهما ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان.

وجنتـا الـطائفـة فيهمـا ﴿عينان تجريان﴾ أي تتدفقان بغزارة، بينما جنّتا الطائفة الثانية فيهما ﴿عينان نضّاختان﴾، والنضخ أقل من الجريان.

وقِسْ على ذلك باقي أوصاف جنتي الطائفتين.

كل من عليها فان:

أرأيتم إلى هذا الكـون البـديع المتـوازن بشمســه وقمـره ونجومه وأرضه وأشجـارهـا وثمارها وحيوانها وإنسانها ذي الأعضاء المتناسقة، وجانّها الناريّ، ومشـارقهـا ومغاربها وبحارها المتوازنة وسفنها الجبارة، كل ذلك سيختل توازنه حينما تحين الساعة المحددة، وسوف (يفنى). ويتم ذلك إشعاراً بأمرين اثنين:

أولهما: أن الكون بأسره خاضع لأمر الله يوجده متى شاء ويفنيه متى شاء، وأنه هو وحده جل جلاله الذي لا يفنى، لأنه خالق الفناء.

وثانيهما: أن هذا الفناء الشامل يتم تمهيداً لفتح صفحة جديدة من هذا الوجود، صفحة تتوازن مع الصفحة الأولى، صفحة أخروية يتم فيه التوازن بين عمل الإنسان وجزائه، فهو توازن جزائي.

الربّ ذو الجلال والإكرام: والسرّ اللطيف:

سبق أن بيّنت أن الرب هو المربي، وأن المربي يجمع بين صفتي الرحمة والهيبة تجاه من يربّي، وذلك كي يبقى العبد المُربّي بين عامل الخوف وعامل الأمل، مما يجعله في وضع التوازن النفسي.

وألاحظ هنا معنى لَطيفاً لاقتران هاتين الصفتين الحسنيين، وهو أن الأولى سبب للثانية، بمعنى أن مَنْ هاب الله، أكرمه الله، فمن سلك سلوك الخائف من الله، فإن الله يتجلى عليه بالكرم والرحمة. وهذا موافق تماماً للآية التالية فيما بعد: ﴿ولِمَنْ خَافَ مقام ربِّهِ جنتان﴾، فمن خاف ربه أكرمه بجنتين.

سنفرغ لكم أيها الثقلان:

هذه الآية تهديد للبشر، إذ تفيد أن الله تعالى سيفرُغ لهم يوم القيامة، فلا يدع مسيئاً إلّا ناقشه الحساب الدقيق الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها. فكيف يتفرغ الله لعباده؟ وهل الله تعالى في حاجة إلى التفرغ؟ وهل يُلهيه شأن عن شأن حتى يتفرغ؟

سبحانه وتعالى أن يلهيه شأن عن شأن! أو يشغله عمل عن عمل! فهو يسيّر الأمور كلها، ملايين الملايين من الكائنات الصغيرة جداً والضخمة جداً، وفي لحظة واحدة، دون أن يشغله أحدها عن الآخرين.

وقد قال ابن كثير إن المقصود بمثل هذه العبارة (لأتفرغنَّ إليك) في كلام العرب هو (لآخذنّك على غِرّتك)، أي المقصود أن الله سيفاجىء الناس مفاجأة تامة يوم القيامة ببعثهم من قبورهم، ثم بحسابهم على أعمالهم.

التفرّغ بالصفات الإلٰهية لا بالقدرة:

غير أنني أرى أنه يمكن فهم (التفرغ) بطريقة أخرى، تزيل كل إشكال: فإن الله تعالى ـ ذا الجلال والإكرام ـ يعامل الناس في الحياة الدنيا بصفتين كريمتين، من صفاته الكريمة، هما صفتا جلاله وإكرامه، يعاملهم بهما معاً. فنراه تعالى يأخذ الكافر بحلمه وإمهاله، فلا يعاقبه دائماً عقاباً معجلاً على سوء أعماله في الدنيا، بل يرزقه الرزق الوافر ويؤتيه المسكن الفاخر والأولاد ومعظم ما يطلب، وذلك بفعل صفة الإكرام. ونراه تعالى يصيبه أحياناً بالمصائب والقوارع بفعل صفة الجلال.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى المؤمن الصالح، فإن الله تعالى يتجلى عليه أحياناً في الدنيا بصفة الجلال، فيبتليه بالأمراض والآلام والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية المختلفة كما يتجلى عليه بصفة الإكرام، فيرحمه ويؤتيه مع العسر يسراً، ومع الشدة فرجاً.

أما في الدار الآخرة، فإن الله سيفرغ للمؤمن الصالح بصفة الإكرام، فيرحمه رحمة خالصة خالية من الأكدار التي كان يلقاها في الدنيا، وذلك طبقاً لقوله تعالى: ﴿قلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التي أَخْرَجَ لِعبادِهِ وَالطيِّباتِ مِنَ الرِزْقِ؟ قُلْ هي لِلَّذينَ آمنوا في الحياةِ الدُنْيا خالصةً يَوْمَ القِيامةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

كما يفرغ الله تعالى للكافر يوم القيامة بصفة ذي الجلال، فيصيبه بالعذاب والنقمة، ويحجب عنه ما كان يلقاه في الدنيا من صفات جماله كالحلم والصبر والإمهال.

وبهـذا الفهم الجـديد للتفرغ نتجنب الإشكال والشبهة، وندرك التوازن والتطابق بين ألفاظ كتاب الله ومعانيه.

التوازن الواجب الاختلال:

كمـا أشارت السورة إلى أنواع عديدة من التوازن تتجلى ظاهرة في هذا الكـون الشـاسع، كالتوازن بين النجوم، والشمس وكواكبها، والأرض وقمرها، ومياهها، وتوازن الإنسان النفسي والجسمي والغذائي، فإن السورة أشارت إلى توازن لا بدّ من اختـلالـه أعـظم الاختـلال، وذلـك هو التـوازن بين الخـالق والمخلوق. فالله حي والإنسان يوصف بأنه (حي) أيضاً، ولكن شتان بين حياة الحي القيوم الباقي وحياة الإنسان الفاني: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإِكْرام﴾. والله غني عن جميع خلقه قائم بذاته، أما مخلوقاته فلا يستطيعون لحظة واحدة الاستغناء عن مدده ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ في السَّماواتِ وَالأرضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْن﴾.

والإنسان مُحَاصَر في الدنيا والآخرة بقدرة الله، لا يستطيع الانفلات من قبضتـه: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إن اسْتَطعْتم أنْ تنفُذوا مِنْ أقطار السَّماواتِ والأرْضِ فآنْفُذوا، لا تنفُذونَ إلاّ بُسلْطان... يُرْسَلُ عليكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ ونُحاسٌ فلا تنتصِران﴾. أما الله تعالى فهو محيط بجميع مخلوقاته علماً وقدرة.

وَلَئِنْ أمكنَ وضـع السمـاوات والأرض والجن والإنس والملائكة في كفة ميزان واحدة، فأية كفة ميزان يمكن أن تتسع لصفات مالك الملك الذي تضيع في قبضتـه السمـاوات والأرض ومـا فيهما من كائنات وأوزان وموازين ومكاييل ومقـاييس؟! قال تعـالى: ﴿وَمَا قَدَروا الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَةِ والسّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

الثنائية في سورة الرحمن:

من الأفكار التي تسري في السورة بأسرها، الثنائية. وسريانها فيها يضفي على السورة انسجاماً عذباً ورنيناً حلواً، شأنها في ذلك شأن الأفكار التي بينت سابقاً سريانها في السورة كمثل فكرة (التوازن) و (الميزان)، فكل هذه المعاني والأفكار تتضافر على جعل السورة وحدة متماسكة مترابطة.

ولنبحث الآن عن مواطن فكرة (الثنائية) في السورة:

فمن ذلك تجلّي الله على مخلوقاته بصفتين اثنتين هما: الجلال والإكرام. ومن ذلـك ذكـر (الشمس والقمر)، وهما أكثر الأجرام السماوية تأثيراً في الكرة الأرضية بعد المشيئة الإلهية. ومنها ذكر نوعي النبات من (نجم) أي نبات بلا ساق، و(شجر) أي النبات الذي له ساق. ثم ذكر (السماء والأرض).

والميزان آلة ثنائية لأن لها كفتين اثنتين. ويمكن للميزان أن يختل بطريقتين اثنتين، هما (الطغيان) فيه: (ألّا تَطْغَوْا في الميزان) و (الإخسار): ﴿ولا تُخْسِروا الميزان﴾.

وقـد ذُكـرت نبـاتـات الأرض مثنى مثنى: (الفاكهة والنخل) ثم (الحب والـريحـان) ووُصِفت اثنتـان منها هما: النخل وُصِفت بصفة (ذات الأكمام)، والحبّ وُصِف بصفة (ذي العصف).

ثم ذكر خلق نوعي الكائنات المكلفة المختلفين وهما الإنس والجان.

وذكـر المشرقين والمغربين والبحرين ونوعين اثنين من أدوات الزينة هما اللؤلؤ والمرجان. ومن ذلك أيضاً إرسال شواظ من نار ونحاس.

ومنه أخذ الملائكة المجرمين بطرفين من أجسامهم، هما النواصي والأقدام.

ومن ذلك ذكر المصيرين النهائيين الرئيسيين للناس وهما الجنة والنار.

بل إن لكل من أهل الجنة جنتين اثنتين، لا جنة واحدة، وفيهما عينان، وفيهما من كل فاكهة زوجان اثنان.

وقد شُبِّهَ نساء الجنة بحجرين كريمين هما (الياقوت والمرجان).

وهذه الثنائية تطرب الإنسان بصورة خاصة، لأنها تعكس تركيب جسمه: أوليس للإنسان عينان وأذنان ومنخران ويدان ورجلان ورئتان..؟

أوليس الإنسان زوجين متحابين متعاونين هما الذكر والأنثى؟!

لماذا جنتان.. لا جنّة واحدة؟!

قال تعالى في السورة: ﴿وَلِمَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنّتان﴾: فلماذا جعل لكلٍ من السعداء جنّتين؟ ألا تكفي جنة واحدة؟

إننا لا نستطيع الجزم بجواب عن ذلك، فالله وحده يعلم حقيقته، لكن نصّ الآية قد يوحي بأفكار تساعد على فهم السبب. فقد جعلت الآية الكريمة الجنتين للخائف مقام ربّه في الدنيا. فالخوف من الله ـ إذن ـ هو الذي أدّى إلى مجازاة العبد بجنتين اثنتين. وهذا يوحي بأن خوف العبد كان خوفين في حياته الدنيا، وأنه جوزي على كل خوف منهما بجنّة تناسبه. فما هما الخوفان اللذان كانا يباشران قلب العبد في دنياه؟

يبدو ـ والله أعلم ـ أن الخوف الأول كان يباشر قلب المؤمن حينما يرى بعض المحرّمات التي نهاه الله عن فعلها، فتراوده نفسه عن فعلها، لكن خوفه من غضب الله وعقابه يردعه عن فعلها. ومن ذلك شرب الخمر والزنا وأكل الربا والغش والغيبة والنميمة، وغيرها من المعاصي.

وأما الخوف الثاني فكان يباشر قلبه حين يؤدي الطاعات الواجبة عليه من

صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها. فإنه إذا دعته نفسه مثلاً إلى تأخير الصلاة أو التقاعس عن دفع الزكاة، ثار في نفسه الخوف من الله فدفعه إلى المبادرة إلى القيام بما فُرض عليه.

فالخوف من الله كان يحفز المؤمن إلى ترك المعاصي، كما كان يحفزه إلى فعل الطاعات. لذلك فإنه يلقى في كل جنة من جنتيه نوعاً خاصاً من النعيم يناسب نوعي خوفه.

فمثلاً، مقابل امتناعه عن شرب الخمر في الدنيا خوفاً من الله، فإنه يجد في إحدى جنتيه نهراً من خمر الآخرة التي وصفها القرآن الكريم بأنها ﴿لا لَغوٌ فيها ولا تأثيم﴾. ومقابل إقباله على الصلاة مثلاً في دنياه - وهي إحدى الطاعات التي يتصل فيها العبد بربه - فإنه يحظى في جنته الأخرى بلقاء الله والنظر إليه، طبقاً لقوله تعالى: ﴿وُجوهٌ يَومئِذٍ ناضِرة، إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وهكذا، والله تعالى أعلم.

التوازن في الإسلام

بعد أن عرضتُ فكرة التوازن في سورة الرحمن، أرى أن أعرض فكرة التوازن في الإسلام بصورة عامة، ذلك لأن الحديث عن (التوازن) أخذ يتردد كثيراً في هذه الأيام، إذ يقال مثلاً: إن الدولة الكبرى الفلانية تحاول إقامة (توازن) عسكري بين دولة صغرى وأخرى. كما تتحدث المقالات والأحاديث الإذاعية عن (التوازن) الاقتصادي، و(التوازن) البيئي، وغيرها، كل ذلك يجعلنا نتساءل: كيف عالج الإسلام التوازن؟

وأتناول في بحثي أمرين اثنين:

أولهما: التوازن في الشريعة الإسلامية، وأعالج فيها نواحي (العبادات) كالصلاة والصوم، و(المحرمات) كأكل الربا وشرب الخمر.

وثانيهما: التوازن الكوني في القرآن الكريم.

١ ـ التوازن في الشريعة الإسلامية:

لقد أنزل الشريعةَ الإسلامية اللهُ، الذي أنزل الميزان إلى أهل الأرض ليقيموا الوزن بالقسط، والذي أنزل كل شيء بقدر. لذلك فإن الشريعة الإسلامية لا بد أن تتمتع بالتوازن الخيّر الذي يحفظ للفرد والمجتمع مصالحهم. ولنقم بجولة في بعض أحكام الشريعة الإسلامية، متبيّنين التوازن فيها:

التوازن في العبادات:

أ ـ التوازن في الصلاة:

إن المؤمن بالضرورة يخالط أفراد أسرته في حياته اليومية، كما يخالط الناس، فلا بدّ أن تؤدي هذه المخالطة إلى وقوعه في صغائر الذنوب، إذ إن الإنسان خطّاء بطبيعته. وهذا يُخِلُّ بتوازنه الروحي. والصلاة هي العبادة المباركة التي تعيد إلى الإنسان توازنه الروحي والنفسي. ففي الحديث الشريف «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا».

ومن المعلوم أن الصلاة تحفظ للنفس توازنها الروحي، وذلك بتطهرها من الفحشاء والمنكر والجزع والهلع والشح: ﴿إنَّ الصَلاةَ تنهى عن الفَحشاءِ والمُنكَر﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿إنَّ الإنْسانَ خُلِقَ هَلوعاً إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزوعاً،

وَإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنوعاً إلا المُصَلّينَ الذين هُمْ على صَلاتِهِمْ دائِمون﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

ب ـ التوازن في الصيام:

يُسيء الإنسان استخدام معدته ـ ذلك الجهاز المظلوم ـ طيلة أحد عشر شهراً كل سنة، مما يرهقه ويسبب له المتاعب ويُخلّ بتوازنه. لكن صيام رمضان إذا تم بالصورة التي رسمها الشرع الشريف، يأتي فيعيد التوازن إلى المعدة، بل إلى الجسم والنفس فيريحهما جميعاً.

جـ ـ التوازن في الزكاة:

يتألف المجتمع من طبقتين رئيسيتين، هما الفقراء والأغنياء. وفي العادة يختل التوازن بين هاتين الطبقتين في الكم وفي المواقف النفسية. فعدد الفقراء في المجتمع يفوق عدد الأغنياء، ويكون موقف الأغنياء من الفقراء احتقارهم وازدراءهم، وكثيراً ما يعاملونهم معاملة الإذلال والاضطهاد. بينما يشعر الفقراء تجاه الأغنياء بالبغض والحقد الشديدين.

وهذا كله يجعل المجتمع يفقد توازنه، ويوصله إلى مرحلة الغليان، التي كثيراً ما تؤدي إلى الانفجار. لكن الزكاة التي فرضها الإسلام على الأغنياء، وجعلها حقاً كاملاً للفقراء، قد أنزلها الله لتعيد إلى المجتمع توازنه.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة الأسلوب الذي فرضته الشريعة الإسلامية على الغني حين يقدم للفقير زكاة ماله. فقد ألزمته بإعطاء الفقير الزكاة بروح الأخوة، دون أن يمُنّ عليه أو يحتقره: قال تعالى: ﴿الذينَ يُنفِقونَ أموالَهم في سبيلِ الله، ثُمَّ لا يُتْبِعونَ ما أَنْفَقوا مَنّاً وَلا أذىً لَهُمْ أجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنون. قَوْلٌ مَعْروفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صدقةٍ يَتْبَعُها أذىً والله غَنِيٌّ حَليم﴾ [البقرة: ٢٦٢ - ٢٦٣].

فانظر إلى تكرار النهي عن المن على الفقير حين إعطائه الزكاة وإلى تهويل أمر هذا الذنب. ذلك أن إذلال الفقير بأية طريقة يثير الأحقاد في المجتمع ويعمل على الإخلال بتوازنه.

د ـ التوازن في الحجّ:

سبق أن بيّنت أن الصلاة تعيد إلى المسلم توازنه الروحي، وذلك بتطهيرها لنفسه من الذنوب الصغيرة. غير أن الذنوب الكبيرة تخِلّ بهذا التوازن إخلالاً عظيماً. وقد شرع الله الحج ليعيد التوازن الروحي للخاطىء المسرف على نفسه. يقول الحديث النبوي الشريف المتفق عليه: «مَنْ حجَّ فلم يَرفُث ولم يفسُق رجع كيومَ ولدته أمه» [مشكاة المصابيح: ٢٥٠٧]، أي أن الحج يغفر الذنوب جميعها، صغيرها وكبيرها.

والسبب في هذا المقام العظيم للحج هو أنه يجمع بين العبادة المالية والعبادة الجسمية. فالحاجّ يتحمل نفقات السفر إلى مكة المكرمة، كما يدفع ثمن الأضحية، ويتحمل مشاقّ السفر والغربة، ويقوم بالطواف والسعي. وبالإضافة إلى ذلك فإن الحاجّ ينغمر فترة من الزمن في الأنوار الإلهية التي تسطع من الأماكن المقدسة، من مهد الإسلام، الغني ببركات رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

ومن ناحية أخرى فإن مكة المكرمة واد غير ذي زرع، فهي فقيرة بمواردها الاقتصادية، ولكن إقبال الحجاج عليها، بما معهم من أرزاق وأموال يعيد إليها توازنها الاقتصادي والمعاشي، طبقاً لقوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنا إنّي أَسْكنتُ من ذُرِّيتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المحرَّمِ، رَبَّنا لِيُقيموا الصَلاةَ، فَٱجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ الثَمَرَاتِ لَعَلَّهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧].

هـ ـ التوازن في الشهادتين:

إن إيمان المسلم بالشهادتين: ﴿أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله﴾، وتكراره لهما بلسانه، يحفظ توازنه النفسي من ناحية هامة. وهي أن توحيد الله حصر لعاطفة المؤمن وارتباطه بإله واحد، يتوكل عليه وحده، ويستمد منه العون وحده. فلو آمن بأكثر من إله واحد، لتشتتت عواطفه بين هذه الآلهة، فيختل توازنه النفسي.

وكذلك إيمانه برسالة محمد ﷺ وحدها، يحفظ لنفسه توازنها واستقرارها ويطهرها من الحيرة والتردد في الاختيار بين الشرائع المختلفة.

المحرّمات والتوازن:

لقد حرّمت الشريعة الإسلامية أموراً معينة كالربا والزنا وشرب الخمر والقتل والغيبة والنميمة. وذلك حفظاً على توازن المجتمع وتآلف أفراده وجماعاته. وفيما يلي التفْصيل:

أ ـ الربـــا:

لنفرض أن رجلاً مسلماً فقيراً، ليس لديه رأس مال كافٍ يستغله في تجارة أو زراعة أو عمل آخر يدرّ عليه رزْقاً. ولنفرض أنه لجأ إلى مسلم آخر غنيّ، طالباً إليه أن يمدّ إليه يد المعونة بإقراضه مبلغاً من المال. إن الشريعة الإسلامية تحضّ المسلمين على التعـاون على البـر والتقـوى، فهي تحث الغني على مساعدة الفقير، فتطلب إليه أن يقرضه المبلغ المطلوب (حين توفرّه لدى الغني) دون أن يتقاضى عليه ربحاً، فهي تحقق بذلك معنى سامياً هامّاً وخطيراً، وهو أن المُقرض يقدم قرضه للفقير بروح الأخوة المحضة والمحبة الخالصة، إذ يعطل ماله فترة من الزمن في سبيل مساعدة أخيه الفقير دون أن يناله ربح مادي دنيوي.

إنهـا عملية تحفظ المودّة بين أفراد المجتمع، وتحفظ توازنه واستقراره. ولنفرض أن المقترض أخذ القرض، ووضعه في تجارة، فربحت تجارته فإنه يعيد القرض إلى دائنه شاكراً له عمله الأخوي مما يعزز تآلف المجتمع وتوازنه.

ولكن إذا خسـرت تجـارة المقترض، ولم يستطع تسديد دينه في الوقت المحدّد، فإن الإسلام يتدخل لكي يوصي الدائن بإمهال المدين، حتى ييسّر الله له سداداً لدينـه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَة﴾ [البقرة: ٢٨٠]، بل إن الإسلام يشجع الدائن على التنازل عن دينه للفقير المعسر الذي خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقوا خَيْرٌ لكم إنْ كُنْتُمْ تَعلمون﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وبـذلك يشعر الفقير نحو الغني بالامتنان، ويتمتع المجتمع كله بروح المحبة الخالصة والاستقرار.

أمـا إذا اشتـرط الغني على الفقيـر إعطـاءه ربحـاً ربـوياً زيادة على قرضه، وخسرت تجارة الفقير، فلا شك أن الفقير ـ الذي أصيب بصدمة من خسارته ـ سيُصاب بصدمة أشدّ حين يرى الدائن الغني يلاحقه مطالباً بالربح الربوي فضلاً عن رأس ماله. وتعمل الصدمتان معاً على إثارة الحقد في نفس الفقير، وهو أمر يؤدّي إلى تصدّع المجتمع واختلال توازنه.

ب ـ الزنـــا.

إن الزواج مطلب غريزي اجتماعي حثّت عليه الشريعة الإسلامية، والدافع إليـه دافـع طبيعي هائـل، أودعه الله النفوس البشرية لحفظ النوع البشري وتكاثره حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومثل هذا الدافع الجنسي كمثل نهر عظيم يحدث له فيضان كبير في موسم معين.. فإن ترك الناس النهر يفيض دون تدخل، فإنه يغرق المزروعات والزارعين ويخـرّب ويـدمـرّ. وأمـا إذا وضعوا أمام النهر السدود، وحفروا له قنوات التصريف

الكافية، فإن تخريب النهر يتحوّل إلى إعمار وازدهار.

وقد نظمت الشريعة الإسلامية نهر الدافع الجنسي، فمنعته من الفيضان بشكل عشوائي فوضوي، ووجهته في قنوات خاصة تعمل على حفظ توازن المجتمع الجنسي والصحي، فوضعت نظام الأُسرة الفطري، وهو نظام زواج الرجل من المرأة لتكوين أُسرة تتوازن فيها حقوق أفرادها وواجباتهم. وقد حرّم الإسلام الزنا، لأنه يُؤدي إلى ضياع الأسرة ـ لبنة المجتمع الأولى ـ وإلى اختلال توازن المجتمع الجنسي بضياع الأنساب، وضياع التكليف بالإنفاق على الأولاد للجهل بأبيهم الحقيقي.

وها هي، عواقب الزنا الخطير تحل بالدول والمجتمعات المعاصرة التي أخلت بالتوازن الجنسي في جماعاتها، وأطلقت العنان لشهواتها الجامحة، حتى إن بعض الدول آخذ في الانقراض، وذلك حسب إحصائياتها الرسمية، التي تؤكّد تناقص عدد سكانها عاماً بعد عام. وقد جعلت كثير من الدول الأوروبية ـ وخاصةً الاشتراكية منها ـ جوائز وامتيازات تشجيعية خاصة للأسر التي تفوق غيرها في إنجاب الأطفال، وذلك بعد أن لمست تناقص الإنجاب في مجتمعاتها المتحللة من روابط الأسرة.

كما أن الأمراض المستعصية أخذت تصيب المنحرفين جنسياً في أمريكا وأوروبا، مثل مرض (الإيدز) الذي ظهر حديثاً، والذي يجعل صاحبه يفقد مناعته تجاه جميع الأمراض، فيقع فريسة لها.

جـ ـ شرب الخمر ولعب الميسر:

لقد حرّم الإسلام الخمر تحريماً قاطعاً. فقد قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنَّما الخمْرُ والميْسِرُ والأنْصابُ وَالأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عمل الشَّيْطانِ فاَجْتَنِبوهُ لعَلّكم تُفْلِحون. إنّما يُريدُ الشيطانُ أنْ يوقعَ بَيْنَكُمُ العَداوةَ والبَغْضاءَ في الخمْرِ

والميْسِرِ، ويَصُدَّكُمْ عنْ ذِكرِ اللهِ وعن الصلاةِ، فهَلْ أنتم مُنْتَهون﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فالخمر تتسلط على إرادة الإنسان فتضعفها، فهي تخل بتوازن الإنسان الروحي، وتجعل أهواءه الدنيا تتسلط على إرادته وتخضعها لنزواته، وتعطي الشيطان فرصة للتدخل في تصرفات الإنسان، مثيراً للعداوة والبغضاء بين الناس، مما يسلب المجتمع وئامه واستقراره وتوازنه ويعرّضه للتمزّق.

ومن ناحية صحية فإن الخمر تخل بتوازن الجسم الصحي، وتضخم الأمراض تضخيماً كبيراً، وتصيب بعض أعضاء الجسم إصابات خطيرة مميتة، كالكبد التي يصيبها شرب الخمر بالتشمّع.

ولما كانت الخمر تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة، فإنها تلهيه عن أعظم عمل يحفظ للإنسان توازنه الروحي. فذكر الله والصلاة هما غذاء ودواء للروح يَصِلانها بخالقها العظيم، مصدر الخير كله، والبركة والرحمة والتطهر من الذنوب والاستقرار والتوازن: ﴿ألا بِذِكْرِ الله تَطمئِنُّ القُلوبُ﴾، وللعب الميسر آثار، كآثار الخمر، ولا سيّما الأسلوب العصري الذي ظهر به حديثاً، وهو ما يسمّى باليانصيب، الذي هو ظلم اجتماعي كبير، يخلّ بموازين الكسب الحلال. فهل من العدل أن يربح إنسان ألوف الدنانير مقابل دينار واحد فقط يدفعه ثمناً لورقة اليانصيب.. هكذا بلا تعب ولا عناء..؟.

إنه تعويد للنفس على الكسل والاتكال على الحظ والعشوائية، بدلاً من حثها على العمل الجادّ النافع للأمة.

د ـ قتل النفس:

حرّم الله قتل النفس بغير الحق، وجعل جزاءه اللعنة وغضب الله والخلود في جهنم. ذلك أن القتل يستثير طلب الانتقام والأخذ بالثأر بلا حدود، لاستناده

على العصبية القبلية أو الأسرية، مما يزرع الحقد والشقاق في المجتمع ويخل بأمنه واستقراره وتوازنه. وكم أباد القتل العشوائي من أفرادٍ وأسر، ومزّق من مجتمعات!

هـ ـ الغيبة والنميمة:

نهى الإسلام عن الغيبة والنميمة، لأنهما تخلّان بتوازن المجتمع واستقراره ببثّهما العداوة والبغضاء بين أفراده وأسره.

للذكر مثل حظ الأنثيين . . ظلم أم عدل؟

كثيراً ما ينظر بعض الناس إلى الأمور نظرة سطحية تعميهم عن الحقائق الراسخة، مدفوعين إلى ذلك بدافع الهوى والحقد، وبمحاولة تشويه الحقائق وقلبها لإلصاق التهم الكاذبة بالشريعة الإسلامية السمحة المتوازنة العادلة المبنية على الحق.

فمن ذلك ما ينادي به بعض المتحذلقين من أن الإسلام لم يجعل المرأة مساوية للرجل في حقوق الميراث، وهو بزعمهم مناقض للعدل والحق، وهو بزعمهم تحامل على المرأة. . !

ومن السهولة دحض مزاعمهم هذه إذا نظرنا إلى ما تعطيه الشريعة الغراء للمرأة بصورة عامة، إذ ليس من العدل أن نقصر نظرنا على جانب الميراث.

إن الشريعة تحكم على الرجل أن يدفع للمرأة مهراً عندما يتزوجها، وقد يصل هذا المهر قنطاراً من الذهب!

وتحكم على الرجل بالنفقة على الزوجة (والأولاد) مادامت في عصمته، ولا تكلفها بالنفقة عليه أو على الأولاد، ولو كانت غنية وكان هو فقيراً.

وتحكم على الرجل بالنفقة على المرأة إن كانت أمّاً أو أختاً.

فالمرأة في الشريعة الإسلامية تعيش آمنة من الناحية الاقتصادية تحت ظل أقرب رجل إليها سواء أكان زوجاً أم أخاً أم أباً أم غير ذلك، فهي دائماً تأخذ ولا تعطي (إلّا حق الزكاة).

لذلك كانت الشريعة الإسلامية على حق ظاهر في التخفيف عن الرجل بعض أعبائه الثِّقال التي حمّلته إياها تجاه المرأة والأولاد، فأعطته ضعفي ما أعطت المرأة من الميراث في بعض الحالات.

التوسط والاعتدال.. توازن:

تمتاز الشريعة الإسلامية بأنها تأمر بالاعتدال والتوسط في كل شيء. قال تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهذه أمثلة على ذلك:

١ ـ موقف الإسلام من عيسى عليه السلام:

ينظر الإسلام نظرة معتدلة متوازنة بين نظرة النصرانية التي تغلو في إعلاء مقامه حتى تجعله إلٰهاً أو ابن إلٰه، ونظرة اليهودية، التي تجعله دجّالاً. أما الإسلام فيرى المسيح بشراً نبياً ورسولاً ﴿وجيهاً في الدُّنْيا والآخِرةِ وَمِنَ المُقَرَّبين﴾ [آل عمران: ٤٥].

٢ ـ التوازن بين الروح والجسد:

وهنا أيضاً نجد الإسلام يقف موقفاً معتدلاً متوازناً بين النصرانية واليهودية. فالنصرانية تفترض أن الروح والجسد عدوين لدودين لا يمكن الجمع بينهما، فيجب تقوية الروح عن طريق إضعاف الجسد وإرهاقه وكبت غرائزه: ﴿وَرَهْبانيةً ابتَدَعوها ما كَتَبْناها عليهم﴾ [الحديد: ٢٧].

أما اليهود، فكل شيء عندهم يُقاس بالمال. فعندما قال لهم أحد أنبيائهم: ﴿إنَّ الله قد بَعَثَ لكمْ طالوتَ ملكاً. قالوا: أنّى يكونُ لَهُ المُلْكُ علينا،

ونحنُ أَحَقُّ بالمُلْكِ مِنهُ ولم يُؤتَ سَعَةً من المال﴾؟ . .

وأما الإسلام فيرى الجسد والروح عنصرين متآخيين يجب المحافظة على التوازن بينهما، وذلك بعدم الإسراف والغلو في إشباع الشهوات الجسدية أو الغلو في العبادات الروحية. فمن ذلك أن القرآن الكريم أمر بالتوسط في الطعام والشراب فقال: ﴿وَكُلوا وَآشْربوا ولا تُسْرِفوا، إنَّهُ لا يُحبُّ المُسْرِفين﴾ [الأعراف: ٣١]. كما انتقد الذين يحرّمون لبس الزينة وأكل الطيّبات فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعبادِهِ والطيّبات من الرزق﴾؟ [الأعراف: ٣٢].

ودعا إلى التوسط في الإنفاق فقال: ﴿وَالذينَ إذا أَنْفَقوا لَمْ يُسْرِفوا وَلَمْ يَقْتُروا وَكَانَ بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقال: ﴿ولا تَجعل يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فَتَقْعَدَ مَلوماً مَحْسوراً﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقد سمع رسول الله ﷺ أن جماعة من أصحابه أرادوا الغلوّ في العبادة: «فقال أحدهم: أمّا أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر: أنا أصوم النهار أبداً ولا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوّج أبداً. فجاء النبي ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني!» [متفق عليه ـ مشكاة المصابيح ـ رقم ١٤٥].

وقد بيّن الله تعالى أن الرجل يبقى مضطرباً غير مستقر حتى يجد زوجة فيسكن إليها ويشعر بالاستقرار وعودة التوازن إلى نفسه، فقال: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لكُمْ من أنفُسِكُمْ أزواجاً لتَسْكُنوا إليها﴾ [الروم: ٢١].

٢ ـ التوازن الكوني في القرآن الكريم:

هذا الكون متوازن على أسس ثلاثة هي: الخير والجمال والحق:

(١) ـ التوازن من أجل الخير:

التـوازن على أسـاس الخير هو التوازن من أجل مصلحة الإنسان. فإذا اجتمعت عدة قوى مختلفـة، فكانت محصلتها قوة وحيدة تنسجم مع مصلحة الإنسان، قلنا إن هذه القوى متوازنة.

ومثال ذلك القوى التي تتحكم في تحريك الأرض حول الشمس. فهناك عدة قوى تؤثر في أرضنا فتحركها، وأهمها القوة الجاذبة، أي التي تجذب الأرض نحو الشمس، ثم القوة النابذة، أي التي تحاول إبعادها عن الشمس. فمحصلة هذه القوى هي قوة واحدة تحركها حول الشمس في خط سيرها المعروف الذي يخدم مصلحة الإنسان وسائر الأحياء، فيجعل درجة حرارة سطح الأرض مناسبة لمعيشـة الإنسان. ولو اقتربت الأرض قليلاً من الشمس لاحترق سكانها، ولو ابتعدت قليلاً عنها لتجمد أهلها من شدة البرد.

ولـو أدت محصلة هذه القوى إلى عدم تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض، أي إلى بقاء ضوء النهار مشرقاً على أحد نصفيها إلى الأبد، وبقاء ظلام الليل مخيماً على النصف الآخر إلى الأبد، لأدى ذلك إلى فناء الأحياء بسبب الحرارة العالية التي تعم النصف الأول، والبرودة الشديدة التي تعمّ النصف الثاني.

لذلك نقول إن هذه القوى المؤثرة في أرضنا متوازنة.

ومثال آخر على التوازن المؤدي إلى الخير، أن محصلة القوى المؤثرة في القمر قد جعلته يبعد عن أرضنا بُعده الحالي الذي يجعل المدّ والجزْر في مياه بحـار الأرض معتـدلين موافقين لمصحلة الناس. ولو أدت محصلة القوى إلى اقتـراب القمـر من الأرض لأغـرق المـدُّ اليابسـة وقضى على أحيائها من بشر وحيوانات ونباتات، ولكانت هذه القوى غير متوازنة.

وقد أشارت سورة الرحمن إلى ذلك بقولها: ﴿الشمسُ والقَمَرُ بحُسْبان﴾. فقد أجرى الله القوى المؤثرة في الشمس والأرض والقمر بحسبان دقيق بحيث تكون متوازنة مؤدية إلى خير الناس ومصلحتهم.

وقل مثل ذلك عن القوى المؤثرة في المياه الملحة والمياه العذبة التي تغطي سطح الأرض، فمحصلة هذه القوى تؤدي إلى التوازن بين هذين النوعين من الماء، مما يحقق خير البشر ومصلحتهم. وتدخل في ذلك القوى التي تؤدي إلى نزول المطر على اليابسة.

ومثال آخر على ذلك توازن القوى النفسية في الإنسان. ففي الإنسان حوافز وشهوات وأهواء وإرادة وعقل وعلم. فإذا كانت محصلة كل هذه القوى توجيه الإنسان إلى إخضاع جميع طاقاته لاتباع الصراط المستقيم، صراط التقوى، صراط الاعتدال والتوسط، صراط الهدى، فإنّ هذه القوى تكون متوازنة ومحققة لمصلحة الإنسان وخيره.

(٢) ـ التوازن من أجل الجمال:

في الكون قوى أجراها الله تعالى لتحدث جمالاً يسر العين أو الأذن أو غيرهما من الحواس. فمن ذلك توازن القوى الكونية الذي يؤدي إلى حدوث منظر شفق الشمس الرائع عند الشروق أو عند الغروب، ومنظر القمر والنجوم، ومنظر قوس قزح بألوانه الزاهية. قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ. والليلِ وَمَا وَسَقَ. والقمر إذا اتَّسَق﴾ [سورة الانشقاق: ١٦ ـ ١٨]، وقال: ﴿أَفَلَمْ ينظُروا إلى السَّماءِ فَوْقَهمْ كيْفَ بَنَيْناها وزَيَّنّها ومَالَها مِنْ فُروج﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿إنا زَيّنّا السّماءَ الدُّنيا بِزينة الكواكب﴾ [الصافات: ٦].

ثم إن القوى البيولوجية والكيماوية التي أودعها الله الأجسام تتوازن لتنتج

هذه الأحياء الرائعة الجمال الزاهية الألوان، كالأسماك الهندسية الأشكال الرائعة الألوان، والكائنات البحرية التي تنتج المواد الجميلة المستعملة للزينة كاللؤلؤ والمرجان، كما ورد في سورة الرحمن وسورة فاطر.

ومن ذلك الطيور العديدة ذات الأشكال اللطيفة والألوان المتماوجة الأنيقة، كالطاووس والببغاء وغيرها، ومنها الطيور التي تغرد بأعذب الألحان.

ومن ذلك الأزهار التي تُدخل ألوانها وروائحها الشذية البهجة إلى النفوس، قال تعالى: ﴿وأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ﴾ [ق: ٧].

ونحن إذ نجد كتاب الله يذكر نعمه المادية المصلحية للإنسان، فإننا نجده لا يهمل ذكر الناحية الجمالية معها. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعامَ خلقها لكم فيها دِفْءٌ وَمنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلون. وَلَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وَحينَ تَسْرَحون. وَتحمِلُ أَثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تكونوا بالِغيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، إنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤوفٌ رَحيم. والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لِتَرْكَبوها وَزينةً ويخلقُ ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٥ - ٨].

فيُلاحظ أن هذه الآيات قد ذكرت منافع الأنعام (وهي الأغنام والأبقار والجمال) وقرنت ذلك بجمال منظرها. كما ذكرت منافع الخيل والبغال والحمير للركوب، وقرنت ذلك بأنها (زينة)، فتناسق أعضائها من المناظر الجميلة التي تسر العين.

وقد أصبحت وسائل الركوب الحديثة أكثر قبولاً للزينة والجمال، كالسيارات والسفن فإن ما يضاف إليها من الزينات والأضواء يجعلها رائعة الجمال. وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه المخترعات العصرية التي لم تكن في زمن نزول القرآن بقولها: ﴿وَيخلقُ ما لا تعلمون﴾، فهي نبوءة صادقة بما سيتمخّض عنه الزمان من عجائب الاختراعات.

(٣) ـ التوازن من أجل الحق :

إذا كانت محصلة قوى متعددة تؤدّي إلى إحقاق حق أو إزهاق باطل فإن هذه القوى تكون متوازنة.

فمن ذلك أن المخلوقات جميعها ملك الله، فهو خالقها ورازقها، ولا يستطيع أحد أن يدّعي أنه خالق نفسه أو أنه خالق عقله، أو أنه خالق رزقه. فمن الحق والعدل أن يتبع المملوك المالك، وأن يطيع المخلوق الخالق ـ ذلك حق مدرَك بالفطرة ـ. فإذا كانت كانت محصلة القوى النفسية للإنسان تؤدي إلى طاعته لخالقه، فهذه القوى النفسية متوازنة.

ومن ذلك أنه إذا تنازعت طائفتان من المسلمين، فعلى باقي القوى الإسلامية أن تعيد الاستقرار والتوازن بينهما، لا على أساس العصبية، ولا على أساس المصلحة المادية الشخصية، بل على أساس الحق والعدل. فإن فعلت ذلك كانت القوى التي أدت محصلتها إلى إحقاق الحق متوازنة: ﴿وإنْ طائِفتانِ مِنَ المُؤْمنينَ اقْتَتَلوا فَأَصْلِحوا بَيْنَهما، فَإنْ بَغَتْ إحْداهُما على الأُخرى فقاتِلوا التي تبغي حتى تَفيءَ إلى أمْرِ اللهِ، فإنْ فاءَت فأصْلِحوا بَينَهما بالعَدْلِ وَأَقسِطوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المقْسِطين﴾ [الحجرات: ٩].

ومن أمثلة ذلك القوى الإلٰهية التي تعمل يوم القيامة، فتكون محصلتها إدخال الصالحين الجنة وإدخال المسيئين النار. فإن هذه القوى متوازنة، لأن محصلتها أدت إلى إقامة العدل وإحقاق الحق، وذلك بمجازاة من عملوا خيراً بالخير، ومعاقبة من عملوا شراً بالشر: ﴿فمَنْ يَعْملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يرهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شرّاً يَرَهُ﴾.

القرآن كتابُ الله حَقاً:

إن القرآن يتحدث عن الكون تحدّثَ الخبير به، ويصفه وصف المسيطر

عليه المالك له. ولا أحد غير الله يستطيع أن يتحدث مثل هذا الحديث. إنه يقول إن كل شيء في هذا الكـون مصنـوع بقدر مقدور، وبحساب دقيق، وبمقادير موزونـة ويقـول إن الكـون متوازن على أساس من الحق والخير والجمال، ويلفت النـظر إلى ذلـك بآيات عديدة، وبعبارات صريحة داعية إلى النظر في السماء ﴿أفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنّاها ومالَها مِنْ فُروج﴾ [ق: ٦]، وإلى النظر إلى الأرض والنفس البشرية: ﴿وفي الأرْضِ آياتٌ للموقِنين. وَفي أنْفُسِكم أفلا تُبصِرون؟﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

بل إنه يتحدى البشر جميعاً أن يعثروا على خلل في هذا الكون الشاسع: ﴿ما تَرى في خلقِ الرحمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطور؟ ثم ارجِعِ البَصَرَ كرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسير﴾ [الملك: ٣، ٤].

لم يسبق لكتـاب سماوي أو غير سماوي قبل القرآن العزيز أن ألحّ هذا الإلحاح على الناس أن يتفكروا ويتأملوا في هذا الكون المتقن الصنع.

إن ذلك لآية من آيات الله تـدل على أن القرآن حقاً كتاب الله تعالى.

ولننظر الآيات القرآنية الرائعة التي ذكرت الدقة في صنع الله للكون بجميع أجزائه:

١ ـ فيما يلي آيات تشير إلى شمول الدقة والتقدير لكل شيء:

﴿وإن من شيءٍ إلاَّ عنـدنا خزائنُهُ، وما نُنزِّلُهُ إلاَّ بقَدَرٍ معلوم﴾ [الحجر: ٢١]، ﴿سَبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلى، الذي خلقَ فسوَّى، والذي قَدَّر فهدى﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، ﴿وخلقَ كُلَّ شيءٍ فقدّره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿قد جعلَ الله لكُلِّ شيءٍ قدراً﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿إنّا كُلَّ شيءٍ خلقْناهُ بقدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وكُلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدار﴾ [الرعد: ٨].

٢ ـ وهذه آيات تدل على تقدير الله لبعض الأمور الخاصة: فمن ذلك تقدير الله لمنازل القمر: ﴿والقمرَ قدَّرناهُ منازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

ومنه تقديره تعالى للنباتات، وجعلها بحساب ووزن، كما في قوله تعالى: ﴿والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رَواسيَ وأنْبَتْنا فيها مِن كلِّ شيءٍ مَوزون﴾ [الحجر: ١٩].

ومنه تقديره عز وجل للموت، كما في قوله تعالى: ﴿نحنُ قدَّرنا بينكُمُ الموت﴾ [الواقعة: ٦٠].

ومنه تقديره لليل والنهار: ﴿والله يُقَدِّرُ الليل والنهار﴾ [المزمّل: ٢٠].

ومنه تقديره لمكث الأجنة في بطون أمهاتها: ﴿ألَمْ نَخْلُقكُم مِن ماءٍ مَهينٍ، فجعلناهُ في قَرارٍ مَكينٍ. إلى قَدَرٍ معلوم. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣].

ومنه تقديره لأرزاق المخلوقات: ﴿الله يَبْسُطُ الرِزْقَ لمن يشاءُ ويَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

ومنه تقديره لما ينزل من المطر: ﴿وأنزَلنا مِنَ السّماءِ ماء بِقَدَرٍ، فأسكَنّاهُ في الأرضِ، وإنّا على ذَهابٍ به لقادِرون﴾ [المؤمنون: ١٨].

وهكذا نرى أن كل شيء في هذا الكون، كل صغيرة وكبيرة، قد أنزلها الله جميعاً بمقدار محدد، ووزنها أوزاناً دقيقة محكمة، تدلّ على عظيم قدرة الله وحكمته، فلا صدفة في هذا الكون ولا عشوائية، وإنما يطلق الإنسان كلمة (الصُدفة) على الأشياء والأحداث التي يعجز عن فهمها أو ربط بعضها ببعض. فأنت مثلاً تجتمع بإنسان لا تعرفه في أحد الشوارع، فتقول إنك قد اجتمعت به (صدفةً)، فاجتماعك به هو فعلاً (صدفة) بالنسبة إليك، لأنك لم يسبق لك أن خططت لهذا الاجتماع، ولا صاحبك أو غيره من الناس قد خطط له. لكن

الاجتماع ليس (صدفة) بالنسبة إلى الله تعالى، بل هو أمر مخطط له ومقصود لحكمة يعلمها الله ولا نعلمها، ولا تجتمع ذرة غبار في مكان من هذا الكون الشاسع بذرّة أخرى إلا بتخطيط إلهيّ مُسبَق، مُسجّل في كتاب مبين، ولا تصل الأرزاق إلى أصحابها إلّا بمقادير موزونة مسجلة في كتاب: قال تعالى: ﴿وما مِن دابّةٍ في الأرضِ إلّا على اللهِ رِزْقُها، ويَعْلَمُ مُسْتَقرَّها ومُستَودَعَها كُلٌّ في كتابٍ مُبين﴾ [هود: ٦].

حتى إيمان النفوس لا يتمّ إلا بإرادةٍ إلهية سابقة: ﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهم جميعاً، أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مُؤمنين؟! وما كانَ لِنَفْسٍ أن تؤمِنَ إلَّا بإذنِ الله﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

والأعمال كلها تتم بموجب كتاب إلهي مبين: ﴿وما تَكونُ في شأنٍ وما تَتلو مِنهُ مِن قُرآنٍ ولا تعملونَ مِن عَملٍ إلَّا كُنَّا عليكم شُهوداً إذ تُفيضونَ فيه، وما يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مثقالِ ذَرّةٍ في الأرضِ ولا في السّماءِ ولا أصغرَ مِن ذلكَ ولا أكبرَ إلَّا في كتابٍ مُبين﴾ [يونس: ٦١].

وما غاب عن علم الإنسان الضعيف فظنّه صدفة عشوائية، فإنه لا يغيب عن علم الله، ولا يخرج عن تخطيطه، بل هو مسجل لديه: ﴿وَما مِن غائبةٍ في السماءِ والأرضِ إلّا في كتابٍ مُبين﴾ [النمل: ٧٥].

ولقد قال الشاعر الجاهلي زهير:

رأيتُ المنايا خَبطَ عشواءَ مَن تُصِبْ
تُمِتْهُ ومَنْ تُخطِىء يُعَمَّرْ فيَهْرَمِ

ظاناً أن إصابة المنايا (الموت) للناس تحدث بصورة عشوائية لا ضابط له ولا مخطط، وذلك لأنه يعجز عن إيجاد قاعدة يربط بها بين إصابة الناس بالموت وأي

سبب يؤدي إليها. لكن الله تعالى يقول: ﴿وما كانَ لنفسٍ أنْ تموتَ إلا بإذْنِ اللهِ كتاباً مُؤجّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فالموت ليس (صدفة) بالنسبة إلى الله تعالى ولا عشوائية، وإنما هو أمر مقرر في كتاب مؤجّل أي له توقيت محكم.

وها هي الأبحاث العلمية الحديثة تكشف النقاب عن وجود توازن رائع في الكون بين الأجرام السماوية الضخمة من نجوم وكواكب وأقمار، وبين أجزاء الذرّة (أصغر كائن مادي) من الكترونات وبروتونات ونيوترونات، وكذلك بين مختلف أنواع الأحياء، ثم بين ما تتطلبه حياتها من ظروف بيئية.

وكل هذه الكشوف العلمية الحديثة إنما جاءت جواباً عن التحدّي الإلهي - للناس أن يثبتوا وجود تفاوت أو خلل في هذا الكون.

فها هو الكون بأسره مشرقاً زاهياً منسجماً عامراً بالأحياء سائراً منذ ملايين السنين ضمن الخطّة التي رسمها الله له.

ولقد كشف العلم الحديث أن الكون كله خاضع لميزان عجيب رائع، ذلك هو المعادلات الرياضية الفيزيائية والكيماوية.

المعادلات الرياضية موازين:

كشف العلم الحديث أن الكون كله يرجع إلى أصل واحد مهما كان شكله، سواء أكان مادةً أم طاقة كهربائية أم حرارية أم غيرها. كما اكتشفوا أن تحوُّل شكل من أشكال المادة إلى شكل آخر يتم دائماً وِفق قانون رياضي يوضع بشكل معادلة رياضية. وذلك كمثل تحول المادة إلى طاقة نووية الذي اكتشفه اينشتاين، وهو:

الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء

كما أن هناك قوانين أخرى (معادلات) تربط بين الطاقة الحرارية والكهربائية

والحركية وغيرها. وما العلوم الحديثة إلّا معادلات رياضية تربط بين خواصّ المواد وأشكال الطاقة المختلفة. وقد كشف العلم بعضها وبقي الكثير الذي لا يُحصى سراً مكتوماً: ﴿قُل لو كانَ البحرُ مِداداً لِكلماتِ ربّي لنَفِدَ البحرُ قَبلَ أن تَنفَدَ كَلماتُ رَبّي ولو جِئنا بمثلِه مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩].

وإذا دقّقنا النظر في أية معادلة وجدناها ميزاناً ذا كفتين، هما طرفاها الأيمن والأيسر. فالطرف الأيمن في المعادلة السابقة يحوي (الطاقة)، والطرف الأيسر يحوي (كتلة المادة × مربع سرعة الضوء)، والطرفان متساويان تماماً، فهما متوازنان.

وهكـذا نرى أن الكون كله محكوم ـ بأمر الله وحده ـ بميزان المعادلات ﴿والسَّماءَ رفعها ووَضَعَ الميزان﴾ [الرحمن: ٧].

يسيرون نحو توحيد الله وهم لا يدرون!

لقـد جاء الإسـلام منـادياً بأن الله واحد لا شريك له، وأنه تعالى وحده المسيطر على هذا الكون، المالك له، المتصرف في شؤونه بحِكمة وعلم.

وقد وعد الله بأن يكشف عن آياته للبشر، إذ قال: ﴿سَنُريهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يَتَبيّنَ لهمْ أنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ولقد استدرج فطرة علماء هذا العصر نحو توحيد الله، دون أن يقصدوا إلى ذلك قصداً واعياً.

لقـد بدؤوا ذلـك باكتشـاف أن للطاقـة أشكـالاً مختلفـة: فمنهـا الطاقة الكهـربـائية والـطاقة الحركية والطاقة الكيماوية والطاقة الحرارية والضوئية. ثم اكتشفوا أن كل شكل منها يمكن تحويله إلى أي شكل آخر بطرق معينة. فالطاقة الكهربائية ـ كما نعلم ـ تتحول إلى طاقة حركية في المحركات المستعملة في أجهزة كثيرة كالمراوح والغسالات، أو إلى طاقة حرارية، كأجهزة التدفئة الكهربائية وهكذا.

وانتهـوا إلى أن جميع أشكـال الـطاقة ترجع إلى أصل واحد. وقد خطا اينشتاين الخطوة الأخيرة في هذه العملية التوحيدية، فاكتشف أن المادة نفسها ليست إلّا شكـلاً من أشكـال الطاقة، ويمكن تحويل المادة إلى طاقة بموجب معادلته المذكورة سابقاً.

وإذن فالكون المادي يتركب من أصل واحد قد يتجلى لنا بشكل مادة أو طاقة كهربائية أو طاقة حرارية . . . الخ.

وقد ألهم الله العلماء أن يكتشفوا أن المواد بأسرها مهما اختلفت أوصافها، كالحديد والكبريت . . . الخ، تتركب من ذرات صغيرة جداً، وأن كل ذرة من هذه الذرات تتركب من مكوّنات أساسية متماثلة هي الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة والنترونات المحايدة. فالمواد كلها ترجع إلى أصل (واحد).

وألهم الله تعالى علماء الأحياء أن يكتشفوا أن جميع الأحياء على الإطلاق ترجع في تركيبها إلى أصل مشترك (واحد) هو الخلية، التي تتركب منها الحيوانات والنباتات والجراثيم وغيرها. فالأحياء أصلها (واحد) ـ هو العناصر المادية التي ترجـع بدورها إلى أصل (واحد) هو الذرّة ومكوناتها، التي بدورها هي الأصل الحقيقي (الواحد) لجميع أشكال الطاقة.

ماذا يعني كل ذلك؟

إذا كان أصـل جميع ما في الكـون من أحياء وجمـادات وطـاقات شيئاً (واحداً)، أفلا يعني ذلك أنه صادر عن خالق واحد؟

ولـو كانت هناك أصول مختلفة لهذه الظواهر الوجودية لكان هناك مجال للظن بأنّ هناك آلهة مختلفة قد صنعتها.

فالأصل الواحد يدل على الإله الواحد، كما تدل بصمة الإصبع الواحدة

على الإنسان الواحد الذي بصمها: ﴿قُلْ لو كانَ معهُ آلهةٌ كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرشِ سبيلاً. سُبحانَهُ وتعالى عمّا يقولونَ عُلُوّاً كبيراً. تُسَبِّحُ له السَّماواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ، وإنْ مِنْ شيءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بحمده﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٤].

تفيد هذه الآيات أنّ كل ما في الكون يسبّح بحمد ربه مثبتاً بهذا التسبيح وحدانية الله وبطلان ما سواه من الآلهة. أليست هذه الآيات المباركات منسجمةً مع الاكتشافات العلمية الحديثة التي أثبتت أن كل شيء مادي يرجع إلى أصل واحد، فهو يرجع إلى إله واحد؟

التوازن والجمال والتساوي:

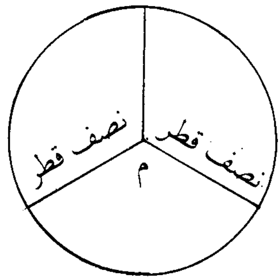
أود أن أبيّن علاقة أساسية بين التوازن والتساوي والجمال.

فكفّتا الميزان تتوازنان حين (يتساوى) الوزنان الموضوعان في الكفتين. فالتساوي إذن من عناصر التوازن، لكن التساوي هو أيضاً من عناصر الجمال، بل هو الأساس الأول للجمال.

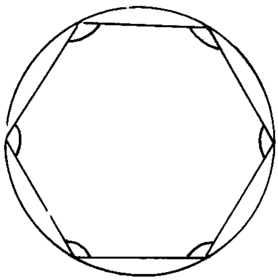
انظر إلى الأشكال الهندسية الجميلة، تجد جمالها مبنياً على تساوي أجزائها. فالدائرة مثلاً يتألف محيطها من نقاط «متساوية» البعد عن المركز، والمربع والمسدس المنتظم أو غيرهما من المضلعات المنتظمة، سر جمالها هو «تساوي» أضلاعها و«تساوي» زواياها.

إن هذا التساوي الجميل نوع من أنواع التوازن المتجلي في هذه الأشكال.

وانظر إلى جسم الإنسان تجد جماله في توازنه وفي تساوي شطره الأيمن وشطره الأيسر.



دائرة

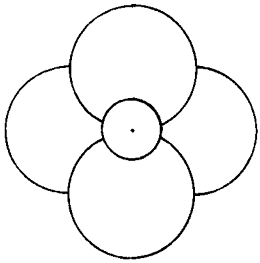


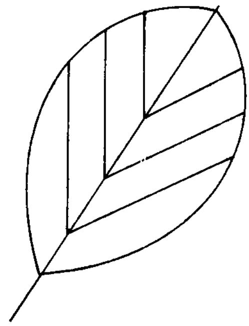
مسدس منتظم

فالعينان متساويتان تماماً، ومتساويتا البعد عن محور جسم الإنسان. فلو اختلف حجم إحدى العينين عن حجم العين الأخرى. أو لو اختلف بعداهما عن محور الجسم، لكان منظرهما بشعاً، ولاختل توازنهما وضاع جمالهما. وتساويهما آية كبرى من آيات الله، إذ ليس هناك سبب كيماوي ولا سبب فيزيائي، ولا غيرهما من الأسباب المادية المحضة، يدعو إلى تساوي العينين، ولكنها إرادة خلاق مبدع عليم. فكيف إذا تكرر هذا التساوي والتناظر في الأذنين واليدين والرجلين والكليتين وغيرها؟

وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿ألَمْ نجعلْ لهُ عينينِ ولِساناً وشَفتين؟﴾ حتى اللسان الواحد والأنف الواحد يتساوى شطر أحدهما الأيسر وشطره الأيمن.

ويطَّرد هذا التساوي الجميل المتوازن في خلق الله، فترى أجسام الحيوانات كلها قائمة على هذا التساوي الجميل والتناظر البديع. وشكل جسم الفراشة من أمثلة ذلك. كما ترى أعضاء النباتات جميلة متساوية متوازنة. ومن أمثلة ذلك تساوي شطري ورقة الشجر، ووريقات الزهرة الواحدة وتساوي شطري





الثمرة الواحدة كالتفاحة والمشمشة والتينة وغيرها ﴿ما تَرى في خَلقِ الرَّحمنِ من تفاوُت﴾ [الملك: ٣].

حتى ألوان الأزهار تجدها متوازنة متدرجة في نسق بديع متقن. قال تعالى: ﴿وأنزلَ لكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فأنْبَتْنا به حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال: ﴿وأنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ﴾ [ق: ٧].

فهذه البهجة التي يثيرها جمال النباتات وروعة تناسقها من الدلائل القاطعة على الخالق العظيم بديع السموات والأرض.

اختلال التوازن... لإعادة التوازن:

لقد بينت سابقاً أن التوازن سائد في هذا الكون بقدرة الله وحكمته، وأن هذا التوازن يحقق الخير والحق والجمال. غير أن هذا لا يعني أن الأمور لا يختل توازنها أبداً، بل لا بد من اختلال التوازن في بعض الأحيان لفترة قصيرة، ثم تعود الأمور إلى التوازن مرة أخرى. فالجسم مثلاً يكون في العادة متوازناً صحيحاً، تقوم أعضاؤه جميعها بوظائفها التي خُلقت من أجلها، ولكن قد يختل توازنه لسبب

طارىء فيمرض، وحينئذ تقوم أعضاء خاصة بمقاومة المرض حتى تقضي عليه فيعود الجسم إلى توازنه الصحي.

واختلال التوازن هذا ليس عبثاً، بل إنه لحكمة بالغة، إذ لا يظهر فضل الشيء إلا إذا قُرن بضده، فلا يُعرف فضل النهار إلا عندما يخيم الليل بظلامه الدامس، (وفي الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَدُ البدرُ). وقد يوقع الله المرض بالناس ليعرفوا أنهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، وليعرفوا فضل ربهم عليهم. قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فإنّهُمْ عدوٌّ لي إلّا ربَّ العالمينَ. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هُوَ يُطْعِمُني ويَسقينِ. وإذا مَرِضْتُ فهوَ يَشْفينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٠].

وقد ينتشر ظلم الناس في الأرض مسبباً اختلال التوازن الاجتماعي والنفسي، فيبعث الله الرسل والأنبياء ليعيد إلى المجتمع توازنه: ﴿ظَهرَ الفسادُ في البَرِّ والبَحْرِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الذي عَمِلوا لعَلّهُمْ يَرجعون﴾ [الروم: ٤١]، ﴿بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدْمَغُهُ فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقُبيل يوم القيامة يختلّ توازن المجتمعات البشرية أيّما اختلال، وتمتلىء الأرض ظلماً بعد أن مُلِئت عدلاً. فقد ورد أنه إذا اقترب يوم القيامة «يبعث الله ريحاً طيّبة فتوفّي كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم». كما ورد أنه حينئذ (يبقى شِرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً) [مشكاة المصابيح: ٥٥١٩، ٥٥٢٠].

وإثر هذا الاختلال الأعظم للتوازن الأخلاقي بين البشر، يحدث اختلال أعظم للتوازن الكوني المادي، فتتناثر النجوم، وتنكشف الشمس وينخسف

القمر، وتُنسف الجبال، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات.

وكأن قانون الجاذبية يبطل مفعوله، فتفقد الأجسام أوزانها المألوفة، فالناس يتطايرون في الفضاء كالفراش: ﴿يومَ يكونُ الناسُ كالفَراشِ المبثوث﴾ [القارعة: ٤]، ومادة الجبال الصخرية الثقيلة تصبح كالقُطنِ المندوف ﴿وتكونُ الجِبالُ كآلعِهْنِ المنفوش﴾ [القارعة: ٥].

ثم يعيد الله إلى الكون التوازن الحق المطلق الذي لا اختلال بعده، فيحاسب الناس على ما عملوا، ويصبح الوزن والثقل للأعمال (وليس للمادة)، فمن ثقلت موازين أعماله الصالحة كان مقره الجنة، وكان في عيشة راضية مستقرة «متوازنة».

ومن خفت موازين أعماله الصالحة هوى إلى الجحيم، لا يجد فيها استقراراً ولا توازناً جسمياً ولا نفسياً: يختل توازنه الحراري بفعل لهيبها فلا يعود جسمه إلى درجة الحرارة ٣٧° كما كان يفعل في الدنيا، بل تزيد درجة حرارته أضعافاً مضاعفة ويختل توازنه الغذائي، فيجوع، ولكن لا يجد ما يعيد إليه توازنه الغذائي فيشبعه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طعامٌ إلاّ مِنْ ضَريعٍ، لا يُسمِنُ ولا يُغني مِنْ جوع﴾.

فيوم القيامة هو يوم العدل ـ أي يوم إعادة التوازن المطلق النهائي بين البشر.

فمن عمل على إقرار التوازن بين روحه وجسمه في الدنيا فحقق المنهج الإلهي (الصراط المستقيم) المتوازن، وجد التوازن السعيد في الآخرة.

ومن أهمل العمل على إقرار التوازن بين روحه وجسمه في الدنيا، فغلبت عليه أهواؤه، أتى يوم القيامة مختلاً توازنه، وتمثل له هذا الاختلال شقاءً وحسرة وندامة.

فاعجبْ لهذا التوازن كيف شمل بقدرة الله كل شيء: شمل الروح والجسد، كما شمل السماوات والأرض، وشمل المجتمعات والأفراد، وشمل الدنيا والآخرة.. ! واعجب للإعجاز القرآني:

كيف عالج كتاب الله هذا الموضوع الخطير معالجة علمية رائعة، ولم يسبقه إليها كتاب، وكيف أنه قدّره حق قدره، وبيّن خطورته العظيمة، مع أن هذه الخطورة لم تنكشف إلا في العصور الحديثة، ليكون ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد؟﴾.

والحمد لله رب العالمين.

□□□□□

سورة المرسلات

والقوى الإلهية المحركة للكون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ
﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ
﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ
﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾
أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي
ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الأفكار الجديدة في السورة

١ ـ سريان فكرة (المرسلات) في جميع السورة.

٢ ـ المرسلات نوعان: مُرسلات تعميرية، ومرسلات تدميرية.

٣ ـ مُرسلات في الدنيا ومرسلات في الآخرة.

٤ ـ دراسة مُركّزة للوحات الثلاث: ألم نهلك الأولين ـ ألم نخلقكم من ماء

مهين - ألم نجعل الأرضَ كِفاتاً، وذلك على أساس معاني (المرسلات والناشرات والفارقات).

٥ - الربط بين اللوحات الثلاث والظل الخادع ذي الشعب الثلاث.

لقد أقسم الله في مطلع السورة بالمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، على أنّ يوم القيامة الذي وعد الله به على ألسنة رسله لا بدّ واقع.

فلماذا افتتح الله السورة بهذه الأقسام؟ وهل هناك من علاقة بين هذه الأقسام وسائر أجزاء السورة؟ ألا ترتبط المرسلات عرفاً والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، باللوحات الثلاث التي وردت فيما بعد والتي تبدأ بلفظ «أَلَمْ»، وهي:

١ - ألَمْ نُهلِك الأوّلين . . . ؟

٢ - ألَمْ نخلقْكم من ماءٍ مهين . . . ؟

٣ - ألَمْ نجعل الأرضَ كِفاتاً . . . ؟

ثم، ألا يرتبط الظل ذو الشعب الثلاث في قوله تعالى مخاطباً المكذبين: ﴿انْطَلِقوا إلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَليلٍ ولا يُغْني مِنَ اللَّهَبِ﴾ - ألا يرتبط هذا الظل باللوحات الثلاث السابقة؟

ماذا قال المفسرون؟

لم يربط أحد من المفسرين - رحمهم الله - بين مطلع السورة وباقي أجزائها. وإنما حاولوا تفسير مفردات هذا المطلع الذي يلفت النظر بإيقاعه السريع، الحلو الوقع على السمع، المؤثر في الذهن والقلب بألفاظه المليئة المعاني بالحركة: فهناك إرسال، وهبوب عاصف، ونشر، وتفريق، وإلقاء، وكلها

حركات، كلها قوى مسيطرة على الكون بأسره، بإرادة الله وحده.

وقد اختلف المفسرون في معاني المرسلات والعاصفات والناشرات، ففسّرها بعضهم بأنها الرياح، وفسّرها آخرون بأنها الملائكة، وكادوا يُجمعون على أن الفارقات فرقاً والملقيات ذكراً عذراً أو نُذراً، هي الملائكة التي تنزل بأمر الله على الرسل من البشر، مفرّقةً بين الحق والباطل، ومُلقية إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق وإنذار لهم.

ويقول أحد المفسرين المحدثين: إن هذا الغموض في معاني هذه الألفاظ مقصود، وأن الغموض في معانيها أنسب شيء للقسم بها على أمر يوم القيامة الغيبي المكنون.

التعميم . . . لا الغموض:

وأرى أن السورة قد أطلقت هذه الألفاظ (المرسلات - العاصفات - الناشرات - الفارقات)، لا للإبهام والغموض، بل للتعميم والشمول: فالمرسلات هي جميع الكائنات العاقلة كالملائكة، وغير العاقلة، كالرياح والحجارة، بل جميع القوى المادية والمعنوية التي يرسلها الله تعالى لأداء مُهمّات خاصة تنفيذاً لخطّة معينة، وضعها الله تعالى وحده.

إن السورة موجهة إلى (المكذبين) في معظم أجزائها، فقد تكررت فيها عبارة ﴿وَيلٌ يَوْمئذٍ للمُكَذِّبين﴾ عشر مرات . . .

والسورة تخاطب هؤلاء المكذبين يوم القيامة قائلةً: ﴿آنْطَلِقوا إلى ما كُنْتم بِهِ تُكَذِّبون﴾، أي إلى العذاب الإلهي الذي كذبوا به في الدنيا. لذلك كانت السورة - وخاصّة مطلعها - دعوة مُلحّة لهم ليتأملوا في ظواهر هذا الكون تأملاً علميّاً حِسّياً واعياً، ليتفكروّا في كل القوى المحركة والمتحركة فيها، من رياح وملائكة وتجاذب وتنافر وكهربائية ومغناطيسية وأمطار وأنهار، وحب وبغض . . .

وحينئذ، إذا كان تفكّرهم سليماً وجاداً، فإنهم سيكتشفون بسهولة أن هذه القوى والكائنات هي «مُرسَلات» من كائن عُلوي مُدبّر لها ولحركاتها، وأنها لا تعمل من تلقاء نفسها، والدليل على ذلك أنها تعمل منسجماً بعضها مع بعض رغم شدة تباينها وابتعاد بعضها عن بعض، وأن الكون يسير في حالة عمران وازدهار منذ ملايين السنين، ولو كان فيه آلهة غير الله لفسد وتصدّع وآنْهار، ولم يبقَ منه أثر منذ ملايين السنين.

والسورة تُقسم بهذه المرسلات على أن ما وعد الله به من قيام القيامة أمر واقع لا محالة، وكأنها تريد أن تقول:

انظروا إلى قوة الله الهائلة التي بها يرسل المرسلات المختلفة الألوان والأشكال، فيُحيي بها ويميت بها، وينشىء بها المنشآت الرَّائعة، أو يلحق بها الدمار. هذه القوى الإلهية الجبارة قادرة أيضاً على إعادة إنشائكم يوم القيامة ومحاسبتكم على أعمالكم، وإسكانكم في دار النعيم أو عذاب الجحيم: ﴿إنَّ ما توعَدونَ لَواقع﴾...

المرسلات للخلق والتعمير، أو التدمير:

إن هذه القوى التي تصدّر ذكرها السورة، جميعها مرسلات: فمنها ما يُرسله الله «عُرفاً» أي بالمعروف، أي بالخير والإحسان، فكلمة «عُرفاً» كما تقول المعاجم، تعني الخير والإحسان. ولذلك شاهد قوي في قوله تعالى: ﴿خُذْ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلين﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، نقلاً عن البخاري، أن العرف هو المعروف، والمعروف في كثير من آيات القرآن يفيد اللطف والإحسان، كقوله تعالى: ﴿وعاشِروهُنَّ بالمعروف﴾ [النساء: ١٩]، وقوله في حق الوالدين: ﴿وَصاحِبْهما في الدنيا مَعْروفاً﴾ [لقمان: ١٥].

لذلك فليس من مانع من أن تكون ﴿المرسلات عرفاً﴾ هي كل ما يرسله الله من قوى وكائنات لطيفة محسنة تجمع وتعمّر وتؤلف وتوفق.

كما أن من هذه المرسلات ما يدمّر ويهدم الباطل على رؤوس المبطلين، وإلى ذلك أشارت السورة بقولها: ﴿والعاصفات عصفاً﴾.

ولما كان خير ما يفسّر كتاب الله هو كتاب الله نفسه، فلننظر فيما أرسله الله من مرسلات مذكورة في الآيات القرآنية المختلفة:

المرسلات اللطيفة:

إن من المرسلات اللطيفة الخيّرة التي ذكرها الكتاب العزيز.

أ ـ الرياح: التي يرسلها الله لتنزل المطر. قال تعالى: ﴿والله الذي أَرسَلَ الرياحَ فَتُثيرُ سحَاباً فسُقْناه إلى بلدٍ مَيتٍ فأحيَيْنا به الأرضَ بعد موتها﴾ [فاطر: ٩].

ب ـ المطر: قال تعالى: ﴿يُرْسِل السَّماءَ عليكمْ مِدْراراً﴾ [نوح: ١١].

جـ ـ الملائكة: ويرسلها الله لحفظ الناس أو لقبض أرواحهم، كما في الآية: ﴿ويرسـل عليكم حَفَـظَةً، حَتّى إذا جاءَ أحَـدَكُمُ المـوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾ [الأنعام: ٦١].

وأرسل الله جبريل إلى مريم ليهب لها عيسى عليه السلام، كما في الآية: ﴿فأرسَلْنا إليها روحَنا فَتَمثَّلَ لها بَشَراً سَوياً. قالتْ إني أعوذُ بالرَّحمنِ منكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا! قالَ إنَّما أنا رَسولُ رَبِّكِ لأهبَ لكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ ـ ١٩].

المرسلات العنيفة:

أما المرسلات التي تقوم بالأعمال العنيفة العاصفة، فقد وردت أيضاً بكثرة في كتاب الله، فمنها:

أ ـ **الطوفان**: قال تعالى: ﴿فأرسَلنا عليهمُ الطُوفانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ب ـ **الطير الأبابيل**: قال تعالى: ﴿وأرسلَ عليهم طيراً أبابيلَ تَرميهِم بحجارةٍ مِن سجّيل﴾ [الفيل: ٣، ٤]،

جـ ـ **السيول**: ﴿فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦].

د ـ **الحاصب**: وهي الريح التي تحمل حصباء الأرض وحجارتها، قال تعالى: ﴿فمنهُم مَن أرسلنا عليهَ حاصِباً﴾ [العنكبوت: ٤٠].

هـ ـ **الصّيحة**: ﴿إنّا أرسلنا عليهم صَيْحةً واحِدةً فكانوا كهشيم المحتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

و ـ **الصواعق**: ﴿ويُرسِلُ الصواعِقَ فَيُصيبُ بها مَنْ يشاءُ﴾ [الرعد: ١٣].

ز ـ **الملائكة**: ﴿قالوا إنّا أُرسلنا إلى قومٍ مُجْرِمينَ. لِنُرْسلَ عليهم حجارةً من طين﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣].

ح ـ **الناقة**: ﴿إنّا مُرسِلو الناقةِ فتنةً﴾ [القمر: ٢٧].

ط ـ **الشياطين**: ﴿ألَمْ ترَ أنّا أرسَلْنا الشياطينَ على الكافرينَ تَؤُزُّهُم أزّاً﴾ [مريم: ٨٣].

ي ـ **النار والنحاس**: ﴿يُرْسَلُ عليكُما شُواظٌ مِن نارٍ وَنُحاسٌ فلا تنتصِران﴾ [الرحمن: ٣٥].

* * *

فهذه هي المرسلات اللطيفة والعنيفة التي ذكرها الله في كتابه مبيّناً أنها تنفّذ إرادة الله في الكون، فهو وحده الفاعل الحقيقي لكافة أحداث الكون، وما الملائكة وسواهم إلا مجرّد عبيد مأمورين.

وإذا نظرنا إلى ظاهر الأمر، وجدنا الملائكة مثلاً هم الذين يتوفّون الناس حين موتهم، كما في الآية ﴿حتّى إذا جاءَ أحَدَكُمُ الموتُ توفّتهُ رُسلُنا﴾، ولكن إذا نظرنا إلى باطن الأمر وحقيقته، وجدنا الله تعالى هو الذي يتوفى الناس: ﴿الله يتوَفّى الأنْفُسَ حينَ موتها﴾ [الزمر: ٤٢].

الإرسال المضاعف:

وفي كثير من الآيات نجد إرسالاً (مضاعفاً)، أي إرسالاً أول ينشأ عنه إرسال آخر: وذلك كالملائكة يرسلها الله، فترسل هي الرياح، والرياح ترسل السحاب، والسحاب يرسل المطر، كما في قوله تعالى: ﴿والله الذي أرسلَ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً، فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ ميت فأحْيَيْنا بِهِ الأرضَ بعدَ موتِها﴾.

ومن أمثلة ذلك أيضاً إرسال الملائكة التي ترسل بدورها الحجارة على الظالمين لتهلكهم، كما في الآية: ﴿إنّا أُرْسِلنا إلى قَوْمٍ مُجْرِمينَ لنُرْسِلَ عليهم حجارة من طين﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣].

ولهذا الإرسال المضاعف أهمية خاصة، فإنه دليل قاطع على أن أحداث هذا الكون تسير ضمن خطة مدبّرة، متصلة الحلقات، قد وضعها رب قدير عليم خبير، ولا يمكن أن تكون أحداثاً عارضة قد صنعتها الصدفة العمياء ـ كما قد يتوهم بعض أصحاب الأهواء ـ. فعملية إنزال المطر من منبعه في البحر إلى مصبه على الأرض ورجوعه إلى البحر، عملية منظمة هادفة، ترتبط مراحلها بعضها ببعض بصورة لا تدع مجالاً للظن بأنها وليدة الصدفة، وها قد ثبت الآن أنه ما مِنْ كوكب غير الأرض يحوي مثل هذا (الإنبيق) التقطيري الهائل، الذي يضمن الرزق الدائم للأحياء من نباتات وحيوانات وغيرها. إن هناك توزيعاً مقصوداً للماء واليابسة على ظهر الأرض، وتوزيعاً مقدّراً لغازات الهواء من أكسجين ونتروجين وثاني أكسيد الكربون.

والخلاصة أن كل ما أقسم الله به في مطلع السورة هو من المرسلات بأمر الله لتقوم بأعمال تعميرية أو تدميرية، فمنها مرسَلات عُرفاً، ومنها مرسلات عاصفات عصفاً، ومنها مرسلات ناشرات نشراً، ومنها مرسلات فارقات فرقاً وملقيات ذكراً. حتى الشياطين يرسلها الله على الكافرين تؤزّهم أزّاً، أي تغريهم إغراء بما يزعجهم ويرهقهم، كشرب الخمر ولعب الميسر: ﴿إنَّما يُريدُ الشيطانُ أن يوقعَ بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والمَيْسِر﴾.

اللوحة الأخروية الأولى ومرسَلاتها:

بعد الإقسام بالمرسلات، بأنواعها اللطيفة والعنيفة، تعرض لنا السورة لوحة أخروية رهيبة صاخبة، تصف ما تفعله المرسَلات المدمرّة في هذا الكون في يوم القيامة: ﴿فإذا النجومُ طُمِسَتْ. وإذا السماءُ فُرِجَتْ. وإذا الجِبالُ نُسفَتْ. وإذا الرسُل أُقِّتَتْ لأيِّ يومٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الفَصْلِ وما أدراكَ ما يومُ الفَصْلِ. ويْلٌ يَومئذٍ للمُكذِّبين﴾.

وقد قال المفسرون في معنى الرسل في قوله: ﴿وإذا الرسُلُ أُقِّتَتْ﴾ إنهم المرسلون الكرام من الأنبياء الذين يكون لهم دور كبير في يوم القيامة (يوم الفصل)، إذ يشهدون فيه على أممهم حين محاسبتهم على أعمالهم، طبقاً للآية ﴿وكذلكَ جَعْلناكم أُمّةً وَسَطاً لتكونوا شُهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولكن يمكن أن نفهم (الرسل) أيضاً على أنها تعني الملائكة، فقد سماهم الله رسلاً في قوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ فاطِرِ السماواتِ والأرضِ جاعِلِ الملائكةِ رسلاً﴾ [فاطر: ١]، ولا سيما أن للملائكة دوراً خطيراً يوكله الله إليهم يوم القيامة، كإسرافيل الذي ينفخ في الصور نفختين، إحداهما تدميرية تصعق من في السماوات والأرض، والأخرى تعميرية، تبعث الناس من قبورهم وتحييهم بعد

موتهم.

وهذا يقودنا إلى البحث عن المرسلات عرفاً، والعاصفات عصفاً، والناشرات نشراً، والفارقات فرقاً، والملقيات ذكراً، في مراحل يوم القيامة:

أ - **المرسلات عرفاً**: يمكننا أن نفهم أن من المرسلات عُرفاً الملائكة، ترسل الرياح اللطيفة، فتقبض أرواح المؤمنين جميعاً قُبيل قيام الساعة. فقد ورد في حديث شريف رواه مسلم: «ثم يَبْعثُ الله ريحاً طيّبةً فتوفّى كلَّ مَنْ كان في قلبه مثقالُ حَبةٍ من خردلٍ من إيمان، فيبقى مَن لا خير فيه» [مشكاة المصابيح: ٥٥١٩]. كما ورد في حديث آخر رواه مسلم: «ثم يرسلُ الله ريحاً باردةً مِنْ قِبَلِ الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرةٍ من خيرٍ أو إيمان إلّا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه... فيبقى شرار الناس» [مشكاة المصابيح: ٥٥٢٠].

ب - **العاصفات عصفاً**: أما العاصفات عصفاً يوم القيامة فهي الريح التي يحدثها نفخ إسرافيل في الصور نفخته الأولى، فهي تعصف بالأحياء جميعاً وتصعقهم، وتكسف الشمس والقمر، وتطمس النجوم وتنثرها، وتنسف الجبال.

ثم تأتي (مرسلات عرفاً) ثانية حين ينفخ إسرافيل في الصور نفخته الثانية، فتنبعث رياح لطيفة تحيي الأموات بإذن الله وأمره.

جـ - **الناشرات نشراً**: وأما الناشرات نشراً يوم القيامة، فيمكن أن نفهمها على أنها الملائكة أو الرياح، تنشر الناس في أنحاء الأرض في ذلك اليوم. وعلى ذلك شاهد في قوله تعالى إذ يصف الناس يومئذ: ﴿خُشَّعاً أبصارُهم يخرجونَ مِنَ الأجداثِ كأنَّهم جَرادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وقوله: ﴿يَوْمَ يكونُ الناسُ كالفَراشِ المبثوث﴾ [القارعة: ٤] أي الفراش المنشور.

د ـ **الفارقات فرقاً**: وأما الفارقات فرقاً يوم القيامة، فهي الملائكة، تفرّق بين المؤمنين والكافرين، فتعرفهم وتميّز بعضهم عن بعض بمجرّد النظر إليهم: ﴿فيَوْمئذٍ لا يُسألُ عن ذَنْبِهِ إنسٌ ولا جان. . . يُعْرَفُ المجرمونَ بسيماهُمْ فيُؤخَذُ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن: ٣٩ ـ ٤٠]. ويستفاد من تفسير ابن كثير لهذه الآية أن الملائكة تعرف المجرمين بعلامات تظهر عليهم، فتجمع نواصيهم (أي مقدمة رؤوسهم) مع أقدامهم فتلقيهم في النار: (وهذا كما يُعرَف المؤمنون بالغُرة والتحجيل من آثار الوضوء).

كما أن الملائكة تفرق بين الناس بإرسال كل منهم إلى مقره الأخير: الجنة أو النار: ﴿وتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لا رَيْبَ فيهِ، فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السعير﴾ [الشورى: ٧].

هـ ـ **الملقيات ذكراً**: وأما الملقيات ذكراً يوم القيامة فيمكن أن نفهم أنها الملائكة تؤتي كل إنسان كتاب حسناته وسيئاته. وقد سُمّيَ هذا الكتاب «ذِكراً» لأنه يذكرّ الإنسان بأعماله الدنيوية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما سَعى﴾ [النازعات: ٣٥].

وقوله: ﴿عُذْراً أو نُذراً﴾ يفيد أن هذه الكتب التي تلقيها الملائكة إلى الناس، إما أن تكون ﴿عُذراً﴾ لهم، أي رفعاً للذنب عنهم وقبولاً لعذرهم تمهيداً لإدخالهم الجنة، وإما أن تكون هذه الكتب إنذاراً لهم بقرب إدخالهم النار، بعد أن تبيّن لهم فيها غلبة سيئاتهم على حسناتهم. ويشير إلى ذلك فيما بعد قوله تعالى في السورة: ﴿هذا يَوْمُ لا يَنطِقونَ، ولا يؤذَنُ لهم فيعْتَذِرون﴾، أي لا يُقبل لهم عذر يحاولون به ستر جرائمهم.

وهكذا تبيّن لنا أنه من الممكن أن تنسحب المرسلات على الملائكة أو الرياح التي يرسلها الله يوم القيامة.

اللوحات الدنيوية الثلاث ومُرسلاتها:

لننظر الآن في اللوحات الدنيوية الثلاث التي يبدأ كل منها بـ﴿ألم﴾ وينتهي بـ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾. إنها دعوة للناس إلى تأمّل المرسلات الإلهية التي تقوم بأعمال الخلق والتعمير والبناء، أو بأعمال التدمير العاصف أو بالنشر والفرق.

إنها لوحات ثلاث:

أولاها: لوحة النهاية ـ نهاية الحياة الدنيوية بالموت.

وثانيتها: لوحة البداية ـ بداية الحياة بالخلق من ماء مهين.

وثالثتها: لوحة ما بين البداية والنهاية من أرزاق أعدّها الله لإمداد الأحياء بما يُقيم حياتهم الدنيا.

إنها تسلسل منطقي: النهاية ـ البداية ـ وما بينهما.

وقد قدّم النهاية على البداية، لأنه يريد أن يثير رعب الكفار الذين يكذبون بيوم الدين، ويوقظهم من أحلام غرورهم الذي يوحي إليهم بأنهم خالدون في هذه الدنيا: ﴿يَحْسَبُ أن مالَهُ أخْلَدَهُ﴾ [الهمزة]، ﴿ودخلَ جَنّتَهُ وهُوَ ظالمٌ لنفسه، قالَ: ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبداً﴾ [الكهف: ٣٥].

والسورة يطغى عليها التهديد بالويل للمكذبين (الذي تكرر عشر مرات)، فبادرت السورة إلى التعجيل بذكر أول ويلات الآخرة ـ الموت.

١ ـ اللوحة الدنيوية الأولى: لوحة النهاية:

تصكّ الآيات مسامعهم، وتهزّ قلوبهم هزاً، إذ تحضّهم على النظر إلى الموت الزاحف نحوهم ليبتلعهم مهما حاولوا الفرار منه: ﴿ألم نُهلِكِ الأوّلين؟ ثمّ نُتبِعُهُمُ الآخرِين؟ كَذلِكَ نَفْعَلُ بالمجرِمين، ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾.

وللموت مرسلات لطيفة هي الملائكة الذين يقبضون أرواح المؤمنين ويبشرونهم بالجنة: ﴿الذينَ تتوفّاهُم الملائكةُ طيّبينَ: يقولونَ سلامٌ عليكُم ادخلوا الجنةَ بما كنتم تعملون﴾ [النحل: ٣٢]. كما أن للموت مرسلات عنيفة هي الملائكة الذين يقبضون أرواح الكافرين، فيوبّخونهم: ﴿الذين تتوفّاهُم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهِم، فألقَوا السَّلَمَ ما كُنّا نعملُ من سوءٍ، بلى إنَّ الله عليمٌ بما كنتم تعملون. فآدْخُلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدينَ فيها فلبئسَ مثوى المتكبّرين﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وللموت مرسلات عاصفة تهلك معاندي الرسل والأنبياء، فمنهم من أرسل الله عليه الريح العقيم أو الطوفان أو السيل أو الصيحة أو الحجارة أو الحاصب أو الصواعق وهذه المرسلات تكون عادة من نوع المرسلات المضاعفة، إذ يرسل الله الملائكة فترسل بدورها وسيلة العذاب المهلك من حجارة وغيرها.

وللموت عموماً مرسلات عاصفات، هي مرسلات الحزن واللوعة في قلوب أهل الميت وأصحابه، فيعصف بها ويؤرّقها إلى حين، وقد يحدث هذا الحزن المرسل في أجسامهم تدميراً فتصيبهم الأمراض والآفات.

الناشرات في اللوحة الأولى: إن للموت ناشرات تنشر جثث القتلى على وجه الأرض بعد المعارك والحروب الضارية التي تقع بين البشر، أو تنشرها في باطن الأرض في المقابر، ثم تنشر عناصرها ومكوناتها في التراب بعد أن تتحلل هذه الجثث بمضي الزمان.

الفارقات في اللوحة الأولى: وللموت فارقات. فالموت يفرق بين أفراد الأسرة الواحدة بعد اجتماعهم، ويفرق بين أجساد الأحياء وأجساد الأموات، ويفرّق جثة الميت في التراب ويفكّكها إلى عناصرها الأولية.

والموت يفرق بين الإنسان وبيته وماله، وتحدث فروق هائلة بعد رحيله، إذ

تخلو المنـازل ممن كان يعمرها، وتحدث تبدلات في تملك الأموال والأرزاق والأعمال والزوجات. وأخيراً فإن الموت يفرق بين روح الإنسان وجسمه.

٢ ـ اللوحة الدنيوية الثانية: لوحة البداية:

﴿أَلَمْ نَخْلقْكُمْ مِن ماءٍ مَهينٍ فجعلناهُ في قَرارٍ مَكينٍ إلى قَدَرٍ معلومٍ، فَقَدَرْنا فَنِعْمَ القادرون﴾.

لنتأمل الآن في بدء خلق الإنسان وما فيه من مرسلات وعاصفات وناشرات وفارقات وملقيات ذكراً.

أ ـ المرسلات في اللوحة الثانية: تبدأ المرسلات بالماء المهين ـ أي نطفة الذكر التي يرسلها الله من الذكر إلى الأنثى.

ب ـ الفـارقـات والنـاشـرات: وتفـارق النـطفـة الذكر إلى الأنثى بفعل (الفارقات) وتتحد بالبويضة الأنثوية مكوّنةً خلية، وهذه الخلية تأخذ في الإنشطار «متفرقةً» إلى خليتين، ثم إلى خلايا عديدة تنتشر مالئة الرحم ﴿والناشرات نشراً﴾.

ويرسـل الله مرسلات الأغذية من جسم الأم عن طريق المشيمة والحبل السري إلى الجنين فينمو متحولاً إلى أجهزة مختلفة متفرقة بدءاً بالجهاز العظمي، ثم يكسو اللحم العظام.

جـ ـ الملقيات ذكراً: ويتبع جسم الجنين في كل هذه الأعمال الخلقية «الشيفرة» المختزنة في مورّثات الخلية الأولى، وهي تعليمات كيماوية مختزنة في نواة الخلية، تهيمن على حادثات التشكّل والنمو لدى المخلوق. إنها تعليمات مسجلة، تذكـرنا بالتعليمات التي تلقيها ملائكة الوحي إلى الرسل﴿فالملقيات ذكراً﴾.. إنها وحي إلهي يوعز إلى الخلايا بسلوك معين يؤدّي به إلى تكوين نمط خاص معين: ﴿في أيِّ صورةٍ ما شاء ركبّك﴾ [الانفطار: ٨].

وهذا يذكّرنا أيضاً بالحديث الشريف المتفق عليه: «إنَّ خَلْقَ أحدِكم يُجمعُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات: فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» [مشكاة المصابيح: ٨٢]. فهنا أيضاً مَلَك مُرسَل (هو أحد المرسلات) يلقي «ذِكْراً» مؤلفاً من أربع كلمات، هي تعليمات تذكّر الملائكة الأخرى الموكلة بأمور هذا المخلوق بما يجب أن تفعله له من أفعال توفر له رزقه وعمله وعمره وشقاءه أو سعادته.

وهذا الكتاب الذي تلقيه الملائكة إلى الجنين يذكرنا بالكتاب الذي تلقيه إليه يوم القيامة، وفيه سجل أعماله من حسنات وسيئات والذي يقرر شقاءه أو سعادته: ﴿ونُخْرِجُ لهُ يومَ القيامةِ كِتاباً يلقاهُ منشوراً. اقْرأ كِتابَكَ كَفى بنفسِك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. والكتابان متطابقان.

وهنا نلاحظ الفروق الفردية بين إنسان وآخر (فالفارقات فرقاً)، التي تبدأ في التكون في هذه المرحلة الابتدائية من الحياة، سواء أكان ذلك في طول الجسم أم وزنه أم لون الجلد أو العينين أو الشعر . . . الخ.

ثم إذا بلغ الجنين مرحلة معينة «نُفِخَت فيه الروح»، أي «أُرسلت» إليه روح خاصة به، فروحه من المرسلات.

ويمكث الجنين في بطن أمه فترة زمنية محددة (إلى قدر معلوم) يلقى فيها من العناية الفائقة ما يدهش العقول ويقودها إلى الإيمان اليقيني بمُرسل هذه العناية إلى هذا المخلوق البالغ الضعف والمهانة. . .

ثم إذا اكتمل الجنين في بطن أمه «أرسله» الله إلى خارج بطنها بالولادة، في شيء من الجو «العاصف». فمن عواصفه ألم الولادة وصراخها ﴿لقد خلقْنا الإنسانَ في كَبَد﴾. وقد تُرسل عاصفة من الفرح حين ولادة الذكر فتقام الحفلات

الصاخبة، أو قد تُرسل على بعض ذوي العقول المريضة عاصفة من عواصف الحزن والشقاء حين تولد لهم البنت.

ثم إذا خرجت هذه الأجنة إلى مسرح الحياة، انتشرت في البيت ثم في الأرض ﴿والناشرات نشراً﴾ طبقاً لقوله تعالى: ﴿ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلقَكُمْ من تُرابٍ ثم إذا أنتم بَشرٌ تَنتشرون﴾ [الروم: ٢٠].

هذه هي قصة بداية حياة الإنسان، وما فيها من إبداع وروعة خلق وعناية وتدبير، لا يكذّب بخالقها إلّا كل أعمى قلب بعيد عن العلم والعقل: ﴿ويل يومئذٍ للمكذّبين﴾.

٣ ـ اللوحة الدنيوية الثالثة... العناية مستمرة:

إن هذه العناية بالإنسان في بطن أمه، لا تتوقف بعد خروجه بالولادة، إذ يرسل الله إليه رزقه لبناً خالصاً سائغاً من ثدي أمه، مركّباً من مواد غذائية قد جُهّزت خصيصاً من أجله، على نسب محدّدة من المواد الدهنية والبروتينية والسكرية وغيرها، مما لا يُضاهيه أي لبن صناعي يقدم إلى أطفال هذه الأيام، مهما بلغ مركّبوه من العلم!

هذه العناية المستمرة بعد الولادة هي موضوع اللوحة الثالثة: ﴿ألَمْ نَجْعَلِ الأرضَ كِفاتاً أحياءً وأمواتاً وجعلنا فيها رَواسِيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾.

هذه اللوحة تبرز الأرض، وهي الكِفات، أي الوعاء الذي يضم الأحياء والأموات. وكلمة «أحياء» عامة تشمل جميع الأحياء من بشر وحيوانات وحشرات ونباتات وجراثيم وفطور. كما أن كلمة «أمواتاً» تشمل جميع الأجسام الميتة، من جثث قد فارقتها الحياة، ومن مواد معدنية وصخرية وغازية لا حياة فيها، أي الجمادات، فالأرض وعاء يحوي ذلك كله. فمنها ما تحويه على ظهرها، ومنها ما تحويه في بطنها، كجثث الأموات.

فهذه الأحياء «تنتشر» على ظهر الأرض: ﴿وألقى في الأرضِ رَواسيَ أنْ تَميدَ بِكُم وبَثَّ فيها مِن كُلِ دابّةٍ﴾ [لقمان: ١٠]. وهذه الجمادات الميتة تنتشر على ظهر الأرض وفي بطنها: ﴿ومِنَ الجِبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، وبذلك نشاهد ﴿الناشرات نشراً﴾ تفعل فعلها بقدرة الله في هذه الأرض.

ولما كانت هذه الأحياء والجمادات مختلفة الأنواع والألوان والأشكال، عامرة بالفروق الهائلة فيما بينها، فإننا نشاهد ﴿الفارقات فرقاً﴾ تفعل فعلها في الأرض، ونرى على الأخص الفرق الهائل بين الإنسان وغيره من الأحياء. فالإنسان سيد هذه الأرض بلا منازع، وجميع الأحياء الأخرى مسخرة له ينتفع بها، بل لا يستطيع العيش إلّا بها. فهو يتغذى بالحيوانات والنباتات، ويبني بيوته من الجمادات كالحجارة والطين والحديد، ويلبس من مخلّفات النباتات والحيوانات كالقطن والصوف والحرير.

وهنا لا بدّ من التوقف قليلاً لاستنتاج العبرة البالغة من تجمع هذه الكائنات الحية والجمادات ذات الفروق الهائلة في وعاء واحد هو الأرض: كيف تتجمع هذه الكائنات المختلفة المتباينة لتؤلف أرضاً عامرة فيها انسجام تام بين أحيائها وجماداتها، وكأنها جهاز واحد متماسك مترابط ـ كيف يكون كل ذلك بلا تدبير خالق وإبداع مبدع؟

إن الآيات تلفت النظر إلى أمرين هامين يدلان على العناية الواضحة بالإنسان، هما الجبال والماء: ﴿وجَعَلنا فيها رَواسِيَ شامخاتٍ وأسْقَيناكم ماءً فراتاً﴾.

فأما الجبال فهي أجسام ضخمة قد «أرسل» الله قممها عالية «شامخة» في السماء، لكي تمنع بثقلها ضغط باطن الأرض الملتهب الفوّار من تفتيت الأرض

وتفكيكها وانفجارها، فلا تميد ولا تتزلزل إلى درجة خطرة تفني جميع الأحياء الذين فوقها.

وهي تنتشر على سطح الأرض في سلاسل متفاوتة الارتفاع بفعل قوى ﴿والناشرات نشراً﴾ ﴿والفارقات فرقاً﴾ التي تجعل بينها فروقاً في الارتفاعات وأنواع المواد المكونة لها، كما تجعل فروقاً هائلة في مناخ الأرض وتوزع الحرارة والأمطار على سطحها. فالجبال العالية أبرد من السهول وأكثر أمطاراً.

وأما الماء ﴿وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾، الذي جعل الله منه كل شيء حي، فله قصة بالغة الروعة تظهر فيها العناية الإلهية والتدبير الربّاني الذي لا يستطيع ذو عقل أن ينكره.

ولننظر كيف يخرج الماء بخاراً من البحر الملح فيدخل أفواهنا ماءً عذباً فراتاً بفعل «المرسلات» الإلهية والناشرات والفارقات الربانية . . .

فأولى المرسلات هي الشمس، يرسلها الله من الصباح إلى المساء، بفعل دوران الأرض حول نفسها، على بقاع الأرض المختلفة، فتنشر حرارتها على الأرض ﴿والناشرات نشراً﴾. ولكن بقاع الأرض المختلفة تتلقى هذه الحرارة بكميات مختلفة متفاوتة ﴿فالفارقات فرقاً﴾، فهي مثلاً عند خط الاستواء أعظم منها عند المناطق القطبية.

وهذا يسبب فروقاً هائلة في ضغط الهواء الذي يعلو سطح الأرض، فتنشأ ضغوط جوية متفاوتة مما يسبّب حركة الرياح وإرسالها على سطح الأرض إما بلطف ﴿عُرفاً﴾ وإما بعنف ﴿عصفاً﴾.

ونظراً لتفاوت توزيع الماء واليابسة على سطح الأرض، وما بينهما من فروق ﴿فالفارقات فرقاً﴾ فإن الرياح المرسلة تثير سحاباً من مياه البحر بعملية التبخير التي تدعمها حرارة الشمس، ثم تحمل هذه الرياح السحاب إلى جوّ اليابسة،

وتنشره فوق بقاعها ﴿والناشرات نشراً﴾، وتؤدّي الفروق الحرارية والكهربائية في السحب والأجـواء إلى تكـاثف الغيوم إلى مطر أو ثلج أو بَرَد، وينتشـر المـاء ﴿والناشرات نشراً﴾ عذباً فراتاً يحيا به الإنسان وغيره من الأحياء: ﴿وهو الّذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطوا ويَنْشُرُ رحمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨].

فهذه عملية إرسالية ترسل فيها حرارة الشمس والرياح والسحب والأمطار، وهي أيضاً عملية (نشرية) تُنْشَر فيها الحرارة والرياح والسّحب والأمطار، وعملية (فرقية) تعتمد على الفروق في الحرارة التي تمتصها بقاع الأرض المختلفة وعلى فروق الضغط الجوي، كما أنها تؤدي في النهاية إلى التفريق بين الماء والملح اللذين يكونان ممتزجين في البحار، فيفترقان في هذه العملية التقطيرية المدبّرة أحكم تدبير.

وهكذا يتبيّن ارتباط اللوحات الدنيوية الثلاث التي تبدأ بـ (ألم)، بمطلع السورة وما فيه من مرسلات عرفاً وعصفاً وناشرات وفارقات وملقيات ذكراً.

ارتباط اللوحات الثلاث بلوحة الظل الثلاثي:

والآن، ما ارتباط هذه اللوحات الدنيوية الثلاث التي تبدأ بـ ﴿ألم﴾ باللوحة الأخروية الثانية التي تليها: ﴿انْطَلِقوا إلى ما كنتم بهِ تُكذِّبون. انْطلِقوا إلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَليلَ ولا يُغني مِنَ اللَهَبِ. إنَّها تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ، كأَنَّهُ جِمالةٌ صُفْر...﴾.

أ ـ الارتبـاط الأول: إنّ أول ارتباط ظاهر هو أن اللوحة الدُنيوية الأخيرة انتهت بالآية ﴿وَيْلٌ يَوْمئـذٍ للمُكـذِّبين﴾، التي تنذر المكذبين بالويل. فجاءت اللوحة الأخروية لتعرض عليهم مشاهد رهيبة من مصير المكذبين، ذلك المصير الذي كانوا يكذبون به، ففوجئوا به مفاجأة صاعقة. إنه موقف مُحرج ومُخزٍ للمكذبين..!

ب ـ **الارتباط الثاني**: وأما الارتباط الآخر بين اللوحات الدنيوية الثلاث ولوحة الظل الثلاثي، فقد يظهر لنا إذا تأملنا اللوحات الثلاث والظل الخادع الذي يظنه الكافرون ظلاً بارداً، فيلجؤون إليه ليقيهم من لفح النار، لكنهم يُفاجَؤون بأنه لا يدفع عنهم حراً ولا لهباً ﴿لا ظليل ولا يُغني من اللهب﴾.

وهذا الظل الخادع ذو ثلاث شعب، لا نستطيع معرفة حقيقتها الآن طبعاً، لأنها من أحوال يوم القيامة الغيبية، فالله أعلم بحقيقتها. غير أن مبدأ (الجزاء من جنس العمل) قد يوحي إلينا بالترابط بين ما ارتكبه المجرمون من إجرام في الدنيا وبين ما سيلقونه من جزاء على إجرامهم في الدنيا.

لقد خَدعوا أنفسهم في الدنيا، فخُدِعوا في الآخرة بظل غير ظليل، أي مخادع...

أما كيف خدعوا أنفسهم في الدنيا، فتبيّنه اللوحات الدنيوية الثلاث التي تبدأ بـ ﴿ألم﴾.

١ ـ **الظل الأول... وتوهّم الخلود**: إن اللوحة الأولى ﴿ألم نهلك الأولين...؟﴾ موجهة إلى قوم يخدعون أنفسهم إذ يظنون أنهم خالدون مخلّدون في هذه الدنيا وأن الموت لن يطالهم أبداً.

إن الغرور هو الذي جعلهم يظنون أنهم لن يموتوا أبداً. وهناك أنماط من البشر يقعون في حبائل هذا الغرور. فمن الناس من تغرّه كثرة أمواله، فيحسب أنها تقيه من الموت ﴿يَحْسَبُ أنّ ماله أخلَدَهُ﴾ [الهُمَزَة].

٢ ـ **الظل الثاني... وتوهّم القوة**: وأما اللوحة الثانية ﴿أَلَمْ نَخْلقكم مِنْ ماءٍ مَهين..؟﴾ فهي موجهة إلى قوم يخدعون أنفسهم فيظنّون أنّ قوتهم التي يشعرون بها وهم في أوج شبابهم هي قوة دائمة لهم لا تنفكّ عنهم أبداً، وأنها كانت لهم منذ الأزل... إنه غرور فاحش، تأتي الآيات الكريمة لتوقظهم من

خداعه، فتذكرّهم بأنهم نشؤوا من ماء النطفة المهين الحقير الذي لا يملك أدنى قوة، وأن القوة والعزة التي يشعرون بها الآن، إنما هي هبة من الله، عارضة مؤقتة.

إنها شعبة ثانية من الغرور الخادع، وسيصابون بصدمة نفسية يوم القيامة حين يرون قوتهم جميعاً قد سُلبت منهم، وأن عزّتهم الزائفة قد انقلبت ذلّاً وخزياً.

الظل الثالث... وتوهّم الغنى: وأما اللوحة الثالثة ﴿ألم نجعل الأرضَ كِفَاتاً أحياءً وأمواتاً...﴾ فهي موجهة إلى قوم يخدعون أنفسهم إذ يظنون أن أموالهم وثرواتهم الدنيوية مما تحويه الأرض من زروع وأنعام وقصور ﴿أحياءً وأمواتاً﴾ ومياه ﴿ماءً فُراتاً﴾ - يظنونها ملكاً خالداً باقياً لهم -. وهناك أنماط من الناس يقعون في حبائل الاغترار بالثروات، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فقالَ لصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نفراً. ودخلَ جنَّته وهو ظالمٌ لِنَفْسِهِ، قال: ما أظنُّ أنْ تَبيدَ هذه أبداً﴾ [الكهف: ٣٤ - ٣٥].

* * *

وهكذا نرى أن اللوحات الثلاث تشير إلى أن للغرور ثلاث شُعَب خادعة: اغترار بخلود الحياة، واغترار بخلود القوة الجسمية، واغترار بخلود الثروة...

إنّها خدعات ثلاث للنفس متشعبة عن الغرور... وهي تنسجم مع الشعب الثلاث للظل الخادع غير الظليل الذي يلقاه المجرمون يوم القيامة، يتوهمون أنه ينجيهم من لفح النار، فيلقونه ظِلّاً خادعاً لا يدفع حراً ولا شرراً ضخماً بحجم القصور، ومُمتداً بطول الحبال الغليظة الطويلة الصفراء ﴿كأنّهُ جِمالةٌ صفر﴾.

وانظر الآن، كيف جاءت الآيات التالية، تؤكد أن العزة والقوة اللتين ظنَّ المجرمون أنها خالدة لهم، قد سلبهم الله إياها يوم القيامة فانقلبت ضعفاً وذُلّاً: ﴿هذا يومُ لا ينطِقون﴾ - إنهم عاجزون عن الكلام، فلا قدرة لهم على النطق

بحـــرف ـ لقـــد زالت قوتهم حتى على تحـــريك ألسنتهم. . ! ﴿ولا يُؤذَنُ لهم فَيَعْتَـذِرون﴾، وحتى لو استـطاعـوا الكـلام، فإنّهم يُمنَعُـون منـه، ومن مجرّد الاعتذار، وإبداء الأسباب والمسّوغات، أو مجرّد الاعتراف بالذنب. . !

لقد زالت عزتهم وصَوْلات ألسنتهم وأُخرِسوا وزُجِروا. . ﴿هذا يومُ الفصلِ جمعناكم والأولين﴾، إنهم يُجمعَون رغماً عنهم، كما تُجمع قطعان المواشي، فلا يستطيعون إفلاتاً، فلا قوة لهم ولا عزة، بل شعور بالضعف والذل: ﴿فإنْ كان لكم كيدٌ فكيدون!﴾، أي: فإن كانت لكم قدرة على إبطال عقاب الله وإذلاله لكم، فسلطوها على فعل الله بكم وأبطلوه. . !

اللوحة الأخروية الثالثة:

والآن تتحول السورة الكريمة إلى لوحة أخروية عذبة حلوة، معاكسة للوحة المـظلمة السابقة: ﴿إنَّ المتقينَ في ظِلالٍ وَعُيونٍ، وفَواكِهَ مِمّا يَشْتهون، كُلوا واشربَوا هَنيئاً بِما كُنتم تَعْمَلون﴾.

إنه مشهد المتقين يوم القيامة، إنهم في ظلال حقيقية، لا وهمٌ فيها ولا خداع. . إنهم رأوا الحق في الدنيا: رأوا أنهم فانون ضعفاء فقراء، وأن حياتهم وقوتهم وثروتهم، إنما هي هبة من الله، وأيقنوا بزوالها جميعاً، فاتجهوا إليه وحده يعبدونه ويسألونه التوفيق في غير تكبّر ولا غرور.

إنهم عرفـوا ضعفهم وقوة ربهم من نظرهم إلى مُرسلاته اللطيفة والعنيفة فأحبّوه وخافوه، فاتقوا غضبه، وبذلك يكونون قد لجأوا إلى الظل الظليل، الظل الحق، ظل الله الذي ذكره الرسول الكريم ﷺ في الحديث المتفق عليه، إذ قال: «سبعةٌ يُظِلّهم الله في ظِلّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادةِ الله، ورجُلٌ قلبُهُ مُعَلَّقٌ بالمسجدِ إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه، ورجلانِ تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضَتْ عيناهُ، ورجُلٌ دعتهُ

امرأةٌ ذاتُ حَسَبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تنفقُ يمينه﴾ [مشكاة المصابيح: ٧٠١]. وسأقوم بدراسة مفصلة لهذا الحديث قريباً إن شاء الله.

تذكرة أخيرة للمكذبين:

تعود السورة إلى الكافرين المكذبين فتذكرهم بأن ما يتمتعون به في حياتهم الدنيا من أرزاق إنما هو عابر مؤقّت: ﴿كُلوا وتَمتّعوا قليلاً إنكُمْ مُجرمون﴾، إنه متاع قليل لا يقاس بتمتع المتقين الخالد الكريم الذين لا ينفد في الآخرة.

وأخيراً تسجّل السورة على هؤلاء المجرمين عناءهم الشديد، فتبيّن أنهم بعد أن جالت بأبصارهم في كل هذه الآيات، والقوى المرسلة الدالة على الله، فإنهم لا يزالون على موقفهم السابق، لا يشعرون بالخوف من الله، فلا يركعون له: ﴿وإذا قيلَ لهُم اركعوا لا يركَعون فَبِأيِّ حَديثٍ بعدَهُ يُؤمِنون؟﴾.

***

هذه هي سورة المرسلات: بمرسلاتها اللطيفة والعنيفة، بناشراتها وفارقاتها وملقياتها، التي تتجلى في لوحاتها الدنيوية الثلاث ولوحاتها الأخروية الثلاث(١).

إنهـا سورة ظل الغـرور الخـادع ذي الشعب الثـلاث المرتبطة بلوحاتها

---

(١) لا أرى حرجاً في استعمال لفظة «لوحة» للدلالة على جزء من إحدى السور القرآنية الكريمة. فإنّ اللوحة مشتقة من «اللوح»، وقد استعمله الله تعالى للدلالة على ما حُفِظ فيه كتابه الكريم، إذ قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجيدٌ. في لَوْحٍ مَحْفوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

كما استعمله تعالى للدلالة على ما كُتِبت فيه التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، إذ قال: ﴿وَكَتَبْنا لَهُ في الألواحِ مِن كُلِّ شيءٍ مَوْعِظةً وَتَفْصيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

الدنيوية الثلاث.

إنها سورة الظلال اللطيفة المتشعبة عن ظل عرش الله، وهي الظلال السبعة التي فصلها حديث رسول الله السابق، والذي أتناوله فيما يلي بشيء من الدراسة إن شاء الله.

سبعة يُظلّهم الله في ظِلِّه

لقد قدمتُ نص الحديث قبل قليل وأود الآن أن أبين أن الحديث الشريف قد جمع بين هؤلاء الرجال السبعة على أصل واحد، وفروع تتشعب عن هذا الأصل.

أما الأصل الواحد الذي يشترك فيه مَن يظلهم الله في ظله يوم القيامة، يوم لا ظل إلاَّ ظِلّه، فهو (عبادة الله). غير أن كل واحد منهم قد غلب عليه وجه أو أكثر من وجوه عبادة الله.

فما هي عبادة الله؟

إن عبادة الله تنشأ عن معرفة الله تعالى حق المعرفة والإيمان به، وذلك حين التأمل في خلقه البديع وتدبيره الحكيم: قال تعالى: ﴿يا أيُّها الناسُ آعْبُدوا ربَّكُمُ الّذي خَلَقَكُم والذينَ مِنْ قبلِكُم لَعلَّكُم تتّقون. الذي جَعَلَ لكُمُ الأرضَ فِراشاً والسماءَ بناءً وأنزَلَ مِنَ السّماءِ ماء، فأخرجَ بهِ مِنَ الثمراتِ رِزقاً لكم﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وينشأ عن تأمل خلق الله ومعرفة عظمته وإبداعه ورحمته وكرمه ثلاثة دوافع قلبية هي:

(١) ـ حب الله: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حُبّاً للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

(٢) ـ الخوف من الله: ﴿إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عِبادِه العلماءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

(٣) ـ الطمع في إحسان الله: ﴿هَلْ جَزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وهذه الدوافع الثلاثة جميعاً تدفع المؤمن إلى سلوك واحد هو طاعة الله. ومن المعلوم أن طاعة الله تتضمن أمرين:

١ ـ العمل بأوامره تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كما أُمِرتَ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿فَٱصْدَعْ بما تُؤْمَر﴾ [الحجر: ٩٤].

٢ ـ ترك نواهيه، أي تجنب معاصيه: ﴿وما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهوا﴾ [الحشر: ٧].

ولننظر الآن أين نجد في الحديث الشريف هذه العناصر الستة:

(عبادة الله ـ حب الله ـ الخوف من الله ـ الطمع في إحسان الله ـ طاعة الله بفعل أوامره ـ طاعة الله بترك نواهيه):

(١) ـ **عبادة الله**: ورد ذكرها في الحديث بذكر الرجل الثاني، وهو الشاب الناشىء في عبادة الله.

(٢) ـ **حب الله**: ورد ذلك في الحديث بذكر الرجل الثالث: وهو الذي قلبه معلق بالمسجد، فإن حبّه لله جعله يحب بيت الله (المسجد).

كما ورد حب الله في الحديث بذكر الرجل الرابع، وهو الذي يحب كل رجل محبّ لله، «ورَجُلانِ تحابّا في الله»، فمن عَبَدَ الله وأحبّه، أحبَّ رِفاق عبادة الله.

(٣) ـ **الخوف من الله**: ورد ذلك في الحديث بذكر الرجلين الخامس

والسادس: فأحدهما ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه، أي بكى خوفاً من الله.

والآخر دعته امرأة مغرية إلى الفحشاء، فقال لها: إني أخاف الله.

(٤) ـ **الطمع في إحسان الله**: ورد ذلك في الرجل السابع الذي تصدّق بصدقته سراً. فإن المتصدق هو كمن يقرض الله، فيعيد الله له قرضه يوم القيامة مضاعفاً: ﴿إنْ تُقْرِضوا الله قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لكم ويَغْفِرْ لكم والله شَكورٌ حَليم﴾ [التغابن: ١٧].

(٥) ـ **طاعة الله بتحقيق أوامره**:

أ ـ يتجلى ذلك في الإمام العادل، فقد أمر الله بالعدل في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمُرُ بالعدلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى﴾ [النحل: ٩٠].

ب ـ ويتجلى أيضاً في الشاب الذي نشأ في عبادة الله التي أمر الله بها في قوله: ﴿يا أيُّها الناسُ اعبُدوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم والذينَ مِنْ قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١].

جـ ـ وتتجلى طاعة الله بالعمل بأوامره أيضاً في الرجل السابع المتصدق. فقد أمر الله بالإنفاق بقوله: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(٦) ـ **طاعة الله بتجنب نواهيه (المعاصي)**:

أـ يتجلى ذلك في الإمام العادل، فإنه يتجنب الظلم ومغرياته من رشوة نهى الله عنها إذ قال: ﴿ولا تأكُلوا أمـوالَكم بينكم بالبَاطِل﴾ [البقرة: ١٨٨]، ومن انحياز بسبب قرابة أو بغض، فقد نهى عن اتباع الهوى المخلّ بالعدل فقال: ﴿فلا تَتَّبِعوا الهوى أنْ تعدِلوا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال: ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ على ألاَّ تعدِلوا﴾ [المائدة: ٨]، أي لا يحملنّكم بُغضُكم لقوم على ظلمهم.

ب ـ ويتجلى ذلك في الرجل الذي أغرته امرأة بالفحشاء فامتنع عن ذلك استجابةً لنهي الله عن ارتكاب الفواحش إذ قال: ﴿ولا تقرَبُوا الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

جـ ـ ويتجلى ذلك أيضاً في الرجل الذي يعطي صدقته للفقير سراً، لأن إعطاءه الصدقة أمام الناس قد يسبّب له حرجاً كبيراً وأذى، وقد نهى الله عن الأذى إذ قال: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكُمْ بالْمَنِّ والأذى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

خُلاصة جدولية للحديث

عبـــادة اللـــه

حُبّ الله	الخوف من الله	الطمع في إحسان الله	طاعـــة اللـــه: بتحقيق أوامره	طاعـــة اللـــه: باجتناب نواهيه
حب بيت عبادة الله «التعلق بالمسجد»	رجل بكى سراً خوفاً من الله	المتصدق سِرّاً	الإمام العادل ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل﴾	الإمام العادل يترك الرشوة والانحياز ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾
حب رفاق عبادة الله «الرجلان المتحابان في الله»	رجل ترك الفاحشة (الزنى) خوفاً من الله		الناشىء في عبادة الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اعبدوا ربكم﴾	تارك الزنى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾
			المتصدق سراً ﴿أنفقوا مما رزقناكم﴾	المتصدق سرّاً ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾

النار والهوى والصلصال:

لقد خلق الله الإنسان من ﴿صلصال كالفخار﴾ [الرحمن: ١٤]. والصلصال هو طين قد جُفّف بشيء قليل من الحرارة (كما يشوى الفخار)، أي أن الحرارة (النار) تدخل في التركيب المادي للإنسان. لذلك نرى درجة حرارة الإنسان سليم الجسم تثبت عند الدرجة ٣٧° مئوية. ولا شك أن تركيبه المادي يؤثر بطريقة ما في تركيبه النفسي. ويتجلى العنصر الناري في نفس الإنسان في نار الشهوة والهوى.

وهذه النار - إذا تُركت تتأجّج دون ردع - فإنّها تتعاظم حتى تحرق صاحبها. ويظهر ذلك في الآخرة: ﴿فأمَّا مَنْ طَغى. وآثَرَ الحياةَ الدُنيا. فإنَّ الجحيمَ هي المأوى﴾ [النازعات ٣٧ - ٣٩]. وأما من تصدّى لنار الشهوة والهوى وردعها وأخضعها لأمر الله ونهيه، فإنّ هذه النار تصبح عليه في الآخرة برداً وسلاماً كنار إبراهيم عليه السلام: ﴿يا نارُ كُوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فيبدله الله بنار الهوى ظلاً بارداً ظليلاً.

وَلنرَ الآن كيف أن هؤلاء الرجال السبعة قد قاوموا نار الهوى والشهوة، وبنوا لأنفسهم سقوفاً من محبة الله وخشيته أظلتهم في آخرتهم من نار جهنم وهاويتها: ﴿وأما مَنْ خافَ مقامَ ربِّهِ ونهى النفسَ عن الهوى. فإن الجنةَ هيَ المأوى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

(١) - **الإمام العادل**: لقد تهيأت الفرصة لهذا الإمام - بقدرته على الناس - ليشبع شهواته بانتهاك حرمات الناس في أعراضهم وأموالهم. لكنه قمع هذه الشهوات حباً لله وخوفاً منه وأقام العدل، فكان حبه لله وخوفه منه سقفاً ظليلاً بارداً.

(٢) - **الشاب الناشىء في عبادة الله**: يمتاز عهد الشباب بقوة الأهواء والشهوات، لكن هذا الشاب قمع شهواته وأهواءه وأخضعها لمنهج الله، حباً لله

وخوفاً منه، وجاهد نفسه في سبيل ذلك الجهاد الأكبر.

(٣) ـ **الرجل المعلّق قلبه بالمسجد**: إن اللذات الدنيوية والشهوات المادية هي المحرك الأعظم لمعظم الناس. غير أن هذا الرجل يتحرك دائماً نحو المسجد حيث لا لذة حسّية ولا طعام ولا شراب دنيوي. فذلك دليل على أن هذا الرجل قد قمـع شهـواته الدنيا ونيرانها، فحل محلها جاذب نوراني علوي ظليل، هو السقف الذي بناه لنفسه.

(٤) ـ **رجـلانْ تحـابّـا في الله**: المعتاد أن يزور إنسان إنساناً أو يصاحبه لمصلحـة تستند إلى شهوة دنيوية، كأنْ يطمع في تزوج ابنته، أو كسب بعض أمواله، أو الجلوس على مائدته. أما إذا صاحب الإنسان رجلاً أو زاره دون أن يطمع في شيء من أمور الدنيا، فهذا برهان على قمعه لنار شهواته وأهوائه، وعلى جعله محبة الله هي الباعث الأعظم على مصاحبته، فهي السقف الذي بناه ليظله يوم القيامة.

(٥) ـ **الرجل الباكي سراً**: لقد طهّر هذا الرجل قلبه من الشهوة، وأطفأ نار الهوى بدموع الخوف من الله، فكانت دموعه حاجزاً وظلاً يقيه لفح نار جهنم.

(٦) ـ **الرجل الذي دعته المرأة**: لقد حاولت هذه المرأة الخاطئة استثارة شهوة الرجل المحرمة، لكنه أطفأ نارها بخوفه من الله، فبنى بخوفه لنفسه سقفاً يستظل بظله البارد في آخرته.

(٧) ـ **المتصدق سراً**: لقد تمكن هذا الرجل من قمع نار شهوتين تجيشان في نفسه، أولاهما شهوة تملّك المال والشح في إنفاقه، وثانيتهما شهوة التباهي بفعل الخير وامتداح الناس له. فبنى بذلك لنفسه سقفاً وظلاً ظليلاً.

لماذا قُدّم الإمام العادل والشاب العابد:

لقـد قدم الحديث الشريف الإمام العادل على غيره، لأهميـة موقعه من الأمة، فهو قائدها والمسيطر على أمورها، فإن صلح القائد صلحت الأمة كلها، وإن فسد القائد وكان ظالماً فسدت الأمة كلها.

وقد أتبعه الحديث بالشاب الناشىء في عبادة الله، وذلك لأن الشبان هم قوة الأمة وحصنها، فإذا كانوا مهديين عابدين لله تضاعفت قوتهم وحفظوا أمتهم ودينهم من الأعداء.

روابط أخرى بين الرجال السبعة:

أ ـ يتشابه الإمام العادل والرجل الذي عفّ عن المرأة الفاجرة كما يلي:

إن الإمام العادل قدر على فعل الخير (وهو العدل) ففعله.

والرجل العفيف قدر على فعل الشر (الزنى) فتركه.

ب ـ يتشابه الرجلان: الباكي سراً والمتصدق سراً في أنهما فعلا فعليهما (البكاء والتصدق) بعيداً عن أعين الناس، فهما مخلصان بريئان من الرياء، لكن الأول فعل فعله (البكاء) خوفاً (رهباً)، والثاني فعل فعله (الصدقة) طمعاً (رَغَباً): ﴿وَيَدْعونَنا رَغَباً ورَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿وآدْعوهُ خَوْفاً وطمعاً﴾ [الأعراف: ٥٦].

إرشادات الحديث الشريف

١ ـ العناية بالتنشئة الدينية للأطفال:

إن التنويه بالشاب الذي نشأ في عبادة الله، هو حث للآباء والأمهات على أن يعتنـوا بتربية أبنائهم وبناتهم، وبالبدء بتلقينهم الإيمان الإسلامي والأخلاق

الإسلامية والسلوك الإسلامي منذ أول وعيهم، مع العلم أن الوقائع التربوية الحديثة تبيّن أن السلوك والعادات التي يكتسبها الطفل منذ ولادته حتى سن السابعة يكون لها أكبر الأثر في حياته كلها، بل هي التي تقرر سلوكه في المستقبل. ويقتضي ذلك تعويد الطفل التردد إلى المساجد.

٢ ـ أهمية دَوْر المسجد:

إن تنويه الحديث الشريف بالرجل الذي تعلق قلبه بالمسجد يوحي بأهمية دور المسجد في الحياة الإسلامية، ذلك لأن المسجد هو ملتقى السماء بالأرض، ومصب أنهار الأنوار الإلهية على البشر، فمن هجره فقد حرم نفسه من النور والخير والبركة. إن المساجد دائماً عامرة بالمَلائكة الكرام، ففي الحديث الشريف المتفق عليه: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهو يصلّون وأتيناهم وهم يصلّون». [مشكاة المصابيح: ٦٢٦].

وجاء في حديث آخر متفق عليه: «صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً. وذلك أنه إذا توضّأ فأحسنَ الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يُخرِجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خطوة إلاّ رُفعت له بها درجة وحُطَّ عنه بها خطيئة. فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه مادام في مُصَلّاه: اللهمَّ صَلِّ عليه، اللهم ارحمه» [مشكاة المصابيح: ٧٠٢].

يفيد هذان الحديثان أن الملائكة لا تترك المسجد أبداً، بل لها «دوريتان» تتبادلان الإقامة في المسجد. فإحدى هاتين المجموعتين يبدأ «دوامها» في المسجد من صلاة العصر حتى صلاة الفجر، ويبدأ دوام المجموعة الأخرى من صلاة الفجر حتى صلاة العصر.

وهؤلاء الملائكة يفيضون ـ بإذن الله ـ من أنوارهم وروحانيتهم على المصلين، ويتفاوت إحساس المصلين بهذه الأنوار (غير المنظورة) بحسب سيطرتهم على أهوائهم وإخلاصهم في عبادتهم. فأما الشاب الناشىء في عبادة الله، فإنه يشعر بهذه الأنوار الملائكية شعوراً عظيماً، ويراها غذاء ضرورياً لقلبه ضرورةَ النَفَس لجسمه، مما يجعل قلبه معلقاً بالمسجد، ولو تركه فترة طويلة لشعر بالحرج والضيق، وكأنه السمكة التي أُخرجت من الماء.

الروائح . . والملائكة في المسجد:

إن الملائكة هم خدم الرحمن الرحيم الكريم، يُقرون المصلّين ـ ضيوف الله في بيته ـ الرحمة والسكينة والرضوان. لذلك حافظت الشريعة الإسلامية على مشاعر الملائكة بإلزام المصلين في المساجد بترك الروائح الكريهة وما يؤدي إليها. ففي الحديث الشريف المتفق عليه: «مَنْ أكل من هذه الشجرة المنتنة (أي البصل) فلا يقْرَبَنَّ مسجدنا، فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذى منه الإنس» [مشكاة المصابيح: ٧٠٧].

نعم إن شروط الطهارة اللازمة شرعاً لصحة الصلاة تهدف إلى وضع المصلي في أحوال جسمية منعشة، تجعل لصلاته وقعاً مؤثّراً في نفسه، كما تهدف إلى تعويده التطهّر الجسمي الذي يوحي إليه بالتطهر النفسي ﴿إنَّ الله يُحبُّ التّوابينَ ويُحِبُّ المتطِهّرين﴾، غير أن هذه الشروط تهدف أيضاً إلى منع إيذاء الملائكة بالروائح الكريهة التي تنشأ عن المصلي إن لم يحقق شروط الطهارة. فمن هذه الشروط والسنن والمندوبات ما يلي:

أ ـ أمرت الشريعة المصلي بطهارة الثوب والبدن من النجاسات، وأوجبت الاستنجاء، وجعلت لإهماله خطراً عظيماً، كما يدل حديث الشاب الذي كان يُعذَّب في قبره، لأنه كان لا يتنزّه من البول: «مرّ النبي ﷺ بقبرين، فقال: إنّهما

ليعذّبان، وما يعذّبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» [متفق عليه ـ مشكاة المصابيح : ٣٣٨].

ب ـ أمرت بالاغتسال مرة في الأسبوع على الأقل.

جـ ـ أمرت بالتسوّك لإزالة فضلات الطعام من بين الأسنان، وبذلك منعت التخمرات وما ينبعث منها من رائحة كريهة.

د ـ أمرت بالضوء، وهو طهارة تزيل كل ما علق بأعضاء الوضوء من أقذار، ومن ذلك المضمضة التي تطهر الفم.

هـ ـ جعلت خروج أي شيء من السبيلين حتى الريح مسبباً لنقض الوضوء، مما يدفع المصلي إلى سدّ هذا الباب من أبواب الروائح الكريهة.

و ـ بعد أن سدَّت الشريعة جميع أبواب الروائح الكريهة في المسجد، أمرت بفتح أبواب الروائح الطيبة فسنّت التطيب والتعطر.

فكانت النتيجة أن المسجد يصبح طيباً مطيّباً خالياً من كل خبث، موحياً بطهارة النفس، مشرقاً بأنوار الملائكة، مهدئاً لأعصاب المصلين، داعماً توجّههم إلى الله.

وازن ذلك ببيوت العبادة غير الإسلامية تجد حكمة الإسلام في الطهارة، علماً بأن بعض المترهبنين كان يباهي بأنه لم يغتسل منذ أربعين عاماً. .!

***

هذا هو حديث الرجال السبعة الذين يستظلون بعرش الله يوم القيامة.

إنـه حديث جامـع مانع، مليء بالموحيات، مشرق بحب الله، مصقول بهيبته تعالى، فياض بإحسانه وكرمه.

إنه حديث مبارك، لا يصدر إلّا عن نبيّ ملهم، لا ينطق عن الهوى.

سورة القيامة

سورة العجلة واللوم والنّدامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ
ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلۡ
يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ
(٧) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ
أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ
يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ (١٤) وَلَوۡ أَلۡقَىٰ
مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ
وَقُرۡءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (١٩)
كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (٢١) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (٢٢)
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (٢٥)
كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ

ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

الأفكار الجديدة في سورة القيامة

١ ـ الربط المعنوي بين يوم القيامة والنفس اللوامة والعجلة.

٢ ـ للكافر نفس أمارة بالسوء في الدنيا، ونفس لوامة في الآخرة.

٣ ـ للمؤمن نفس لوامة في الدنيا، ونفس مطمئنة في يوم القيامة.

٤ ـ للنفس اللوامة الصالحة نوعان:

أ ـ نفس تلوم صاحبها قبل الوقوع في الذنب.

ب ـ نفس تلوم صاحبها بعد الوقوع في الذنب.

٥ ـ ملائمة حروف فواصل الآيات لمعاني الآيات.

٦ ـ الارتباط الوثيق في المعنى بين ﴿لا تُحرِّكْ بهِ لسانك لتعجَلَ به . . .﴾ والآيتين اللتين قبلها: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأخَّر . . .﴾

* * *

تتألف هذه السورة الكريمة من أربعين آية قصيرة سريعة متلاحقة، تدور معانيها حول موضوع رئيسي واحد، هو (يوم القيامة). غير أن هناك معنيين آخرين يتشعّبان عن يوم القيامة، هما:

أ ـ اللوم: المشار إليه في مطلع السورة بالآية ﴿ولا أُقْسِمُ بٱلنَّفْسِ اللوّامة﴾.

ب ـ العجلة: أو التسرع والمفاجأة، المشار إليها في الآية ﴿كلّا بلْ تُحِبّونَ العاجلة﴾، والآية ﴿لا تُحَرِّكْ بهِ لِسانَكَ لِتعجَلَ به﴾.

١ ـ يوم القيامة:

لم يكن لدى مشركي العرب عِلم بالبعث يوم القيامة، ولا بما سيجري في ذلك اليوم الرهيب، الذي يُعتبر الإيمان به من أركان الإيمان الإسلامي. لذلك لا ينبغي لنا أن نستغرب ما جاءت به السورة من معانٍ تبيّنُ كثيراً من أحوال ذلك اليوم، داحضةً ظنون المشركين وتكذيبهم له.

أ ـ افتتحت السورة بالقسَم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، ثم أوردت ظنون المشركين وشكوكهم حول هذا اليوم، فبيّنت أنهم يظنون استحالة إعادة جمع جسم الإنسان بعد موته وتفرّق عظامه في التراب: ﴿أيحسَبُ الإنسانُ ألَّنْ نجمعَ عظامَه؟) وردّت عليهم قائلةً: ﴿بلى قادرينَ على أن نُسَوِّيَ بنانَهُ﴾.

إن المشركين ـ حين عُرِضت عليهم فكرة إحياء الله للموتى يوم القيامة ـ تسّرعوا في حكمهم عليها بالاستحالة، وتعجلوا في التكذيب بها، ولم يفرّقوا بين الخالق العظيم القدير، وبين المخلوق الضعيف الفاني. فقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن إعادة إحياء أي شيء مات بعد موته. فقاسوا الله تعالى على أنفسهم، وقالوا إنه ـ سبحانه وتعالى ـ مثلهم عاجز عن إحياء الموتى.

ب ـ بالإضـافة إلى هذا السبب الذي دعا المشركين إلى التكذيب بيوم القيامة ـ وهو تسرّعهم في قياس قدرة الله على قدرة المخلوق ـ فإن السورة تشير إلى سبب آخر دعاهم إلى التكذيب، وذلك في قولها: ﴿بل يريد الإنْسانُ ليفجُرَ أمامَهُ﴾، وقولها: ﴿كلّا بل تُحبّونَ العاجِلةَ وتَذَرون الآخرة﴾. فالمشرك يكذّب بيوم القيامة مدفوعاً بشهواته وأهوائه الدنيوية العاجلة، وبميله إلى الفجور والتسيب والتحلل من القيود التي تترتّب عليه إذا آمن بيوم القيامة. إنه يريد أن يتقدم في حياتـه مالئـاً عمره بالفجور والمجون واللهو واللعب، لا يعكّر عليه ذلك إيمان بالبعث ولا إحساس بالمسؤولية عما يفعله في حياته الدنيا من آثام.

جـ ـ وتعرض السورة لوحة سريعة مفزعة لما يحدث للكافر من مفاجآت يوم القيامة: فبصره يبرق وينبهر حين يُفاجأ باختلال الظواهر الكونية من شمس وقمر، فإنهـا تُخسَف وتُجمـع: ﴿فـإذا بَرِقَ البَصَـر، وخَسَفَ القَمَـر، وجُمِـعَ الشمسُ والقَمَـرُ﴾. إنـه يُصـاب بفزع شديد، ويحاول المسارعة إلى الفرار، والتعجيل بالهرب مما يرى ويسمع: ﴿يقول الإنسانُ يومئذٍ أين المفرّ؟﴾. ولكن لا مهرب من قبضة يد الله القوية: ﴿كلّا لا وَزَرَ، إلى ربِّكَ يومئذٍ المُستَقَر﴾.

د ـ وتقرر السورة أن كل إنسانٍ يتلقى (بياناً) عن كل ما عمله في حياته الدنيا من حسنات وسيئات، صغيرها وكبيرها، أولها وآخرها: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأخَّر﴾. وتفصّل سورة أخرى هذا (البيان) أو (الكتاب). فقد جاء في سورة الإسراء: ﴿وكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ، ونُخْرِجُ له يَوْمَ القِيامةِ كِتاباً يلقاه منشوراً﴾.

ففي إحدى مراحل يوم القيامة ـ وهو ذو مراحل عديدة ـ يحاسب الإنسان نفسه بنفسه عن عمله: ﴿بلْ الإنسانُ على نفسِهِ بَصيرة، ولَوْ ألقى معاذِيره﴾، أي ينقد نفسه نقداً ذاتياً، وهو في داخل نفسه بصير بذنوبه، «لائم» نفسه على فعلها، نادم عليها، وإن كان يحاول تغطيتها بأعذار واهية غير مقبولة.

هـ ـ ولما كان من أسباب شكوك الكافر في يوم القيامة وقدرة الله على بعث الأموات، عجزه عن التمييز بين قدرة الله العظمى، وقدرة الإنسان الضعيفة، فإن السورة تؤكد ضعف الإنسان في حالتين:

الحالة الأولى: هي حالة احتضاره ونزع روحه قبيل موته وعجزه عن إطالة عمره: ﴿كلَّا إذا بَلَغَت التّراقي، وقيلَ مَنْ راقٍ. وظَنَّ أنّهُ الفِراق. والتفَّتِ السّاقُ بالسّاق إلى رَبِّك يَومئذٍ المَساق﴾.

إنهـا لوحـة مفزعة، تصوّر تلجلج روح الكافر في صدره، وتشنج جسمه وتلوّيه في تلك الساعة، والتفاف إحدى ساقيه بالساق الأخرى، ومحاولة أقربائه إعادة الحياة إليه دون جدوى ﴿وقيلَ مَنْ راق﴾، أي يسألون عن طبيب يرقيه ويعالجه.

الحالة الثانية: هي حالة خلق الإنسان من نطفة حقيرة بالغة الضعف، ثم تركيب الله القادر لجسمه ذرّة ذرّة، وخليةً خلية: ﴿ألم يَكُ نُطفةً مِنْ مَنِيٍ يُمْنى، ثم كانَ عَلَقَةً فخلقَ فسوّى، فجعلَ مِنهُ الزوجينِ الذكرَ والأنثى؟﴾.

هاتـان الحـالتان هما طرفا الحياة الدنيا، بدايتها ونهايتها، وهما بيد الله وحده، فلا يستطيع الإنسان الضعيف العاجز أن يبدأ حياته، كما لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت، ولا يستطيع أن يختار أنوثته أو ذكورته.

وقد بدأت السورة بذكر الموت قبل التكوين من نطفة، لما في الموت من إخافة للكافر وإفزاعه، وذلك لشدة حرصه على الحياة الدنيا (العاجلة) وتمسّكه بها، فذكر الموت يهزّ مشاعره هزاً عنيفاً قد يؤدي به إلى الصحو من سبات شهواته الفانية.

أليس الله هو الـذي خلق حيـاة الإنسـان الأولى هذا الخلق البـديـع؟ إنه لا شك قادر على أن يحييه ثانية بعد موته: ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بقادِرٍ على أن يحييَ الموتى؟﴾.

ومن المغالطة أن ننسب ضعفنا إلى الخالق العظيم، فنجعله مثلنا عاجزاً عن إعادة الحياة إلى الموتى!

و ـ وتعرض السورة لوحتين متناقضتين من لوحات يوم القيامة: اللوحة الأولى تصوّر وجوه المؤمنين المشرقة الناضرة، وأعينهم تتنعّم بالنظر إلى ربها الكريم. واللوحة الثانية تصوّر وجوه الكافرين الكالحة المغبرّة، ونفوسهم الفزعة المضطربة التي أدركت الآن سوء ما عملت في الدنيا، فهي تتوقع الشر، تتوقع أن تصيبها داهية تقصم فقرات ظهرها: ﴿تظُنُّ أنْ يُفعَلَ بها فاقِرة﴾.

هذا عرض لما بيّنته السورة من موضوعها الأساسي: يوم القيامة.

ولنبحث الآن في الموضوعين الفرعيين الآخرين:

٢ ـ النفس اللوامة:

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين يوم القيامة والنفس اللوامة والعجلة أو التسرع. فالعجلة والتسرع في الحكم على الأمور دون تدبّر وتأمل، تكون عاقبته وخيمة، تبعث في النفس الندم واللوم الذاتي، كما تثير لوم الآخرين.

وكذلك الاستسلام إلى (العاجلة) وشهواتها الدنيا ستلقي الإنسان في هاوية لا قرار لها، فلا يحصد منه إلّا الندم، وخاصةً يوم القيامة، إذ يلوم نفسه على ما أسلف من خطايا وسلوك منحرف، كما يلومه الآخرون.

أحوال النفس في القرآن الكريم:

قال العلماء، بعد أن استعرضوا ذكر النفس في القرآن الكريم، إن النفس ثلاثة أنواع:

أ ـ النفس الأمّارة بالسوء: وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسّوءِ إلّا ما رَحِمَ رَبّي﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذه النفس تأمر صاحبها بالسوء، فلا

يقاومها أبداً، بل يطيعها دون تفكير، كما يفعل الحيوان إذ تسيطر عليه الشهوة.

ب ـ **النفس اللوامة**: وهي الواردة في قوله تعالى هنا: ﴿ولا أُقسِمُ بالنَّفسِ اللوّامة﴾. وقد ذمّها بعض العلماء، إذ فهموها أنها نفس الكافر إذ يلوم نفسه يوم القيامة على سوء أعماله في الدنيا.

وقد حمدها بعض العلماء، إذ فهموا أنها نفس المؤمن تقع في الخطأ في الدنيا، فتلوم نفسها عليه. ويؤيدهم في هذا الفهم عدد من الأحاديث الشريفة، كقوله ﷺ: «كلُّ ابنِ آدمَ خطّاء، وخيرُ الخطائينَ التوابون» [مشكاة المصابيح: ٢٣٤١]، وقوله في الحديث المتفق عليه: «إنّ عبداً أذنب ذنباً فقال: ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفره. فقال ربه: أعَلِمَ عبدي أنّ لهُ ربّاً يغفر الذنبَ ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي. ثم مكثَ ما شاء الله. ثم أذنبَ ذَنْباً، فقال: ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفره. فقال ربه: أعَلِمَ عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي..» [مشكاة المصابيح: ٢٣٣٣]. وقوله في الحديث: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا، لذهبَ الله بكم، ولجاءَ بقومٍ يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» [مشكاة المصابيح: ٢٣٢٨].

فهذه الأحاديث الشريفة تؤكد فضل النفس اللوامة.

جـ ـ **النفس المطمئنّة**: وهي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿يا أيَّتُها النفسُ المطمئنّةُ، ارجعي إلى رَبِّكِ راضِيةً مَرْضيّة، فأدخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. وقد بلغت هذه النفس غاية الكمال ولم يعد للشيطان أو الهوى سيطرة عليها.

ترابط النفس اللوامة بيوم القيامة:

أرى أن النفس اللوامة تترابط ويوم القيامة في ثلاث حالات: النفس اللوامة قبل يوم القيامة ـ النفس اللوامة عند يوم القيامة ـ النفس اللوامة عند الاحتضار.

(١) ـ النفس اللوامة قبل يوم القيامة:

إن نفس المؤمن تكون لوامة في هذه الحياة الدنيا. فالمؤمن قادر بتوفيق من الله على نقد نفسه نقداً ذاتياً موضوعياً، وتقدير أعماله حق قدرها، فإن أخطأ فإنه يعترف بخطئه وعجزه، ويستغفر الله بنفس خاشعة، طالباً إليه تعالى أن يُقيل عثرته ويصفح عنه.

وهنا ألاحظ نوعين من النفس المؤمنة اللوامة:

النوع الأول: نفس يثير فيها الشيطان أو الهوى دافعاً إلى ارتكاب شر أو خطأ، فتنتقد ذلك العمل، قبل أن تقوم بتنفيذه، وتراه على حقيقته شراً أو خطيئة، فتلوم نفسها على فعله، وتحذّر نفسها من الوقوع فيه، وبذلك تتجنّب ارتكابه.

وهذه النفس نفس قوية حكيمة، وهي أشبه بنفوس الأنبياء والصالحين ومن الأمثلة عليها، النبي يوسف عليه السلام، إذ دعته امرأة عزيز مصر إلى ارتكاب الفاحشة، لكنه نقد نفسه ولام هواه وأوقفه عند حدّه، ولم يدعهُ يجرّه إلى غضب الله وخيانة من أكرمه وآواه.

النوع الثاني: نفس تقع في ذنب أو خطيئة، وبعد فعلها تراها على حقيقتها: شرّاً وإثماً، فتلوم نفسها على فعله، ويأخذ منها الندم كل مأخذ. وهي حالة أكثر المؤمنين. ومن الأمثلة على ذلك أصحاب البستان المذكورون في سورة القلم. وهم الذين ـ عندما نضجت ثمار بستانهم ـ أرادوا أن يبادروا إلى قطفها قبل الفجر، وذلك لكي لا يحضر عملية القطاف أحد من المساكين فيرى الثمار المقطوفة فيطالبهم بشيء منها على سبيل الصدقة. لكنّ الله كان أسرع منهم فأرسل على الثمار طائفاً وهم نائمون فأتلفها جميعاً، ولما جاؤوها ليقطفوها وجدوها تالفة، فأدركوا خطأهم: ﴿فلمّا رأوْها قالوا إنّا لضالّون، بلْ نحنُ مَحْرومون. قال أوسَطُهم: ألمْ أقُلْ لكم لَوْلا تُسبِّحون؟ قالوا سُبْحانَ ربِّنا إنّا كُنّا

ظالمين. فأقبلَ بعضُهم على بَعضٍ يتلاومون. قالوا: يا ويلَنا إنّا كُنّا طاغين﴾ [القلم: ٢٦ ـ ٣١].

(٢) ـ **الكافر يلوم نفسه في يوم القيامة:**

إن النفوس الأمّارة بالسوء في الدنيا تصبح نفوساً لوامة حيث لا ينفع الندم ولا اللوم في الآخرة.

إنها حين ترى نفسها بعد إحيائها في يوم القيامة محاصرة من كل جانب، لا تملك إلا أن تقول، والندم يعتصر قلبها: ﴿أينَ المَفرّ؟﴾. ثم حينما تُعرض عليها أعمالها الدنيوية صغيرها وكبيرها ﴿يُنبّأ الإنسانُ يومئذٍ بما قدّم وأخّر﴾ لا يسعها إلا أن تعترف بأخطائها، وتشعر بأنها تغالط نفسها عندما تحاول اختلاق الأعذار لما ارتكبته من آثام: ﴿بلِ الإنسانُ على نفسِهِ بَصيرَةٌ، ولو ألقى معاذيرَهُ﴾.

وهذا اللوم وهذا الندم ينعكسان على وجهها يومئذ عُبوساً وانقباضاً وتشاؤماً وتوقّعاً لشر كبير ينزل بها: ﴿ووجوهٌ يومئذٍ باسِرةٌ، تَظنُّ أنْ يُفعَل بها فاقرة﴾.

ونجد في كتاب الله آيات كثيرة تعرض صيحات الندم ولوم النفس التي يطلقها الكفار يوم القيامة. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ويَوْمَ يَعَضُّ الظالِمُ على يَدَيْهِ يقولُ يا لَيْتَني اتّخذْتُ معَ الرسولِ سَبيلاً. يا وَيْلَتى ليتني لم أتخِذْ فلاناً خليلاً﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، وقوله: ﴿وأمَّا مَنْ أوتيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فيقولُ: يا ليتني لم أوتَ كِتابيَه. ولمْ أدْرِ ما حِسابِيهْ. يا لَيْتَها كانت القاضية. ما أغنى عنّي ماليهْ. هَلَكَ عنّي سُلطانيهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩]، وقوله: ﴿يومَ ينظرُ المرءُ ما قدّمتْ يداه، ويقولُ الكافرُ يا ليتني كُنْتُ تُراباً﴾ [النبأ: ٤٠].

الكافر تلومه الملائكة:

وتتلقى هذه الأنفس أيضاً اللوم من الملائكة وغيرهم مما يزيدها ألماً وحسرة: ﴿وَسيقَ الذينَ كفروا إلى جهنمَ زُمَراً حتى إذا جاؤوها فُتِحَت أبوابُها وقال لهم خزنتُها: ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يتلونَ عليكم آياتِ رَبِّكم وينذرونكم لقاءَ يومِكم هذا؟ قالوا بلى ولكن حقّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرين. قيلَ ادخلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدين فيها فبئسَ مَثوى المُتكبّرين﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

(٣) ـ اللوم عند الاحتضار قُبيل الموت:

وعند احتضار هذه الأنفس الكافرة، وقرب خروجها من أجسادها بالموت، تتلقى التهديد واللوم والإنذار بالحسرة على ما فات، فيقال لإحداها ﴿أَوْلىٰ لكَ فأَوْلىٰ ثمَّ أَوْلىٰ لكَ فأولىٰ!﴾.

ونجد في سورٍ قرآنية أخرى آيات تؤكد لوم الملائكة للكفار في ساعة النزاع، ويقترن هذا اللوم بالضرب: قال تعالى: ﴿ولَوْ ترى إذ الظالمونَ في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ باسِطو أيديهِمْ، أَخرجوا أنفُسَكُم، اليومَ تُجزَوْنَ عذابَ الهونِ بما كنتم تقولونَ على اللهِ غيرَ الحقِّ، وكُنتُم عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرون﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال: ﴿فكيفَ إذا تَوَفّتهُم الملائكةُ يَضرِبونَ وُجوههم وأدْبارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

وقد وردت، بعدَ الآيات التي تتحدث عن احتضار الكافر في سورة القيامة، آيات توحي بلومه. فكأن الملائكة توجّه هذه العبارات إليه، لائمةً موبّخة: ﴿فلا صَدّقَ ولا صلّىٰ، ولكِنْ كَذَّبَ وتَوَلّىٰ، ثمَّ ذَهَبَ إلى أهلِه يتمطّىٰ﴾، فكأنها تقول له: ها قد انقضت حياتك الدنيا دون أن تستفيد منها بالتقرّب إلى ربّكِ بتصديق رسوله وإقامة الصلاة، ولكنك، بعكس ذلك، كذبتَ رسوله وأعرضتَ عن دينه واستكبرت وتعاليت، فالآن أنت أولى بجهنم وجهنم أولى بك.

وهكذا نجد أن الكافر يتلقى اللوم عند احتضاره قبيل موته. وما الموت إلّا

أولى مراحل القيامة، وهو القيامة الصغرى، وقد قال العلماء: إنّ مَن مات فقد قامت قيامته.

النفس المطمئنة بعد يوم القيامة:

إن النفوس التي كانت لوامة لنفسها في الدنيا - وهي نفوس المؤمنين - تصبح نفوساً مطمئنة يوم القيامة. وينعكس ذلك على وجوهها نضرة ونعومة وإشراقاً: ﴿وُجوهٌ يومئذٍ ناضِرة، إلى ربِّها ناظِرة﴾. وكما كانت في دنياها (تنظر) في كتاب الله لتتلوه ولتقيس أعمالها به وتزنها بأحكامه، فإنها يوم القيامة (تنظر) إلى وجه ربها الكريم.

٣ - العجلة:

لقد ذكرت السورة أن من طبع الإنسان العجلة، فقالت: ﴿كلّا بلْ تُحِبّونَ العاجِلة﴾. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وكانَ الإنسانُ عجولاً﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله: ﴿خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وقد ذكرت السورة نوعين من العجلة:

١ - **أولهما**، العجلة المحمودة، أو المسارعة المحمودة، وذلك حين طلبت إلى الرسول ﷺ أن لا يتعجل قراءة القرآن حين نزوله، بل يتمهّل. ذلك أن الرسول ﷺ كان يتعجل القرآن الكريم، والقرآن خير عظيم وبركة. ولقد نهاه الله عن التعجل في قراءته، لا طعناً في عجلته عليه السلام، بل إراحةً لنفسه وطمأنةً له بأن الله تعالى قد تكفل بجمع القرآن وتحفيظه للرسول دون عناء، كما تكفّل ببيانه وتفسيره للناس: ﴿إنَّ علينا جَمْعَهُ وقُرآنَه﴾ ﴿ثم إنَّ علينا بَيانَهُ﴾، فلا داعي لأن يرهق الرسول ﷺ نفسه بذلك.

وقد وردت العجلة المحمودة في كثير من السور القرآنية: فمن ذلك:

التعجل طلباً لرضوان الله: ﴿وعَجِلتُ إليكَ ربِّ لِتَرضى﴾ [طه: ٨٤]، فقد أسرع موسى عليه السلام إلى جبل الطور متعجلاً لقاء ربه طلباً لرضا الله.

ومن الآيات التي تذكر المسارعة في الخير قوله تعالى: ﴿وسارِعوا إلى مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجَنّةٍ عَرْضُها السّماواتُ والأرضُ أعِدَّت لِلمُتّقين﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٢ ـ وثانيهما، العجلة المذمومة. وقد وردت في قوله تعالى: ﴿إنَّ هٰؤلاءِ يُحبّونَ العاجِلةَ، ويَذَرونَ وراءَهم يوماً ثقيلاً﴾. وورد ذكرها أيضاً في سور أخرى كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَلٍ سَأُريكُمْ آياتي فلا تستعجلون﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلونَكَ بالعَذابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقوله: ﴿الّذينَ يُسارِعونَ في الكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿يُسارِعونَ في الإثمِ﴾ [المادة: ٦٢].

وقد وردت العجلة المذمومة في سورة القيامة أيضاً في المواطن التالية:

أ ـ في تعجل الكافر الحكم على البعث يوم القيامة بأنه أمر مستحيل الحدوث: ﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ لَنْ نجمَعَ عظامَه؟.. يَسْألُ أيّانَ يومُ القيامة؟﴾، وذلك لقياسه الخالق على المخلوق الضعيف العاجز، ولعدم تبصّره للواقع المشهود، وهو أن الله تعالى قد استطاع فعلاً تركيب جسم الإنسان من نطفة مهينة.

ب ـ في قوله تعالى: ﴿بلْ يريدُ الإنسانُ لِيفْجُرَ أمامَهُ﴾، فقد أورد ابن كثير أنّ من معاني هذه الآية أن الإنسان (يعجّل) الذنوب في دنياه، ويؤجّل التوبة.

لا تحرّك به لسانك لتعجلَ به.. ترابطها بالسورة:

لقد نهى الله رسوله الكريم عن التعجل بقراءة القرآن، حرصاً منه تعالى

على عدم إرهاقه، وطمأنة له بأنه تعالى قد تكفل بحفظ كتابه الكريم وبيان معانيه.

وقد تساءلتُ طويلاً عن ترابط هذا التوجيه الإلهي بما قبله من معاني السورة. نعم، إن هناك سبباً وجيهاً منطقياً دعا إلى إنزال هذا التوجيه في هذا الموضع من السورة، وهو وقوع تعجل الرسول في القراءة فعلاً عند هذا الموضع من السورة في أثناء نزولها.

وهذا السبب كافٍ لتعليل نزول التوجيه هنا.

غير أنني لاحظت معنى دقيقاً يربط ما بين هذه الآيات التوجيهية والآيتين اللتين قبلها: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَئذٍ بما قدّم وأخّر، بَل الإنسانُ على نَفْسِه بَصيرة﴾.

فالإنسان يُنَبَّأ يوم القيامة بما قدّم وأخّر من أعمال في حياته الدنيا. وتفيد السور الأخرى أن ذلك يتم عن طريق (كتاب) قد سُجّلت فيه أعمال الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِه، ونُخرجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يلقاهُ مَنشوراً. إقرأ كتابَكَ كفى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حَسيباً﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقوله: ﴿ووُضِعَ الكتابُ، فَترى المجرمينَ مُشفقينَ ممّا فيهِ، ويقولون: يا ويلتنا مالِ هذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحْصاها؟ وَوَجدوا ما عَمِلوا حاضِراً ولا يَظلِمُ ربُّك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩].

إنّ هذا الكتاب (كشف) للأعمال، أو (بيان) للأعمال، وهو إشعار بأن الله تعالى لا يظلم أحداً، كما ورد في آخر الآية السابقة. فالله تعالى حكَم عَدْل، لا يقضي على المجرم بالإجرام وبالعقاب المناسب له، إلاّ بشهادة، بوثائق دامغة صحيحة. وها هي أعماله مسجلة عليه بكافة تفاصيلها في بيان لا يقبل الشك.

وفي توجيه الله لرسوله بعدم التعجل في قراءة القرآن، نجد أيضاً (كتاباً) هو القرآن الكريم، الذي تكفّل الله بجمعه وحفظه. ونجد (بياناً) لهذا القرآن قد

تكفّل الله به أيضاً ﴿ثمَّ إنَّ علينا بَيانَه﴾ . وهنا نجد أيضاً فكرة (العدالة الإلهية) . ذلك أن الله تعالى حريص على إبلاغ كتابه إلى خلقه وبيان ما هو حلال وما هو حرام عليهم، وبيان المنهج الصحيح والطريق المستقيم السليم الذي ينبغي عليهم سلوكه، قبل أن يحمّلهم المسؤولية وينذرهم بالعقاب. والمثل الحكيم يقول: (قد أعذر مَنْ أنذر).

فبعد إصدار بيان واضح للناس عما هم مكلفون به، يكون من العدل عقاب المخالفين وإكرام الطائعين. أما معاقبة الناس على أعمال لم يُبَلّغوا حُرمتها ولم يُبَيَّن لهم إجرام من يقوم بها، فهو ظلم يتنزّه عنه العدل الإلهي وحكمته تعالى ورحمته.

فالكتابان ـ كتاب الأعمال الأخروي، وكتاب الله القرآن ـ وجهان لظاهرة واحدة هي ظاهرة العدل الإلهي.

فالله تعالى يعدل في الدنيا وينزل إلى الناس كتاباً يحدّد لهم فيه طريق الهدى وطريق الضلال قبل أن يحملهم مسؤولياته، متكفلاً بحفظ هذا الكتاب وبيانه.

وهو تعالى يعدل في الآخرة، فيُبرز لكل إنسان كتاباً فيه بيان صادق لأعماله.

ولا شك أن الكتابين سيجتمعان يوم القيامة، ليُقاس كتاب أعمال الإنسان بكتاب الله القرآن، فتوزن أعمال الإنسان بميزان القرآن: فإن كان كتاب الأعمال مطابقاً لكتاب الله في حلاله وحرامه، كان الإنسان من السعداء، وإن كان كتاب الأعمال مناقضاً لكتاب الله في حلاله وحرامه كان الإنسان من الأشقياء.

أليس هذا انسجاماً تاماً وترابطاً عجيباً بين هاتين الزمرتين من الآيات: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّمَ وأخّر﴾ و ﴿لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ لِتَعْجَلَ به. . .﴾؟! ﴿أفلا يتدبّرونَ القرآن؟ ولو كان من عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾. . !

التناسق بين المعنى واللفظ:

إن هنـاك تنـاسقاً رائعاً بين معاني هذه السورة وألفاظها وإيقاعها السريع الحافل بالحركة. انظر إلى اختتام كل آية من آيات مطلعها بالهاء الساكنة (حين الوقف عليها): القيامهْ، اللوامهْ، عظامهْ، بنانهْ، أمامهْ.

إنها توافق معاني السورة تمام الموافقة. فالوقف على الهاء الساكنة يوحي بالنفَس اللاهث المتقطع السريع، وذلك يوافق مفاجآت يوم القيامة التي ينبهر لها البصر ﴿فإذا بَرِقَ البَصَر﴾، وتتقطع لها النفَس وتلهث خوفاً وهلعاً.

وانـظر إلى حرف الـراء السـاكنـة حين الوقف عليه في الزمرة الثانية من الآيات: البصرْ، القمرْ، المفرْ، وزرْ، المستقرْ...

إن حرف الـراء ينتـج عنـه ذبذبة اللسان، وهو بذلك يشبه حركة رجلين تتذبذبان حين الركض السريع، مما يوحي بمحاولة الركض للهرب من أهوال يوم القيامة، كما يوحي بالاضطراب والزلزلة التي تسود الكون يوم القيامة[1].

وعندما تصل السورة إلى حالة الاحتضار التي يقع فيها الكافر، فإنها تغيّر حرف الفاصلة إلى حرف (القاف): التراقي، راقْ، الفراقْ، بالساقْ، المساقْ.

إن حرف القاف هذا يصدر من أعماق الحلق، فهو بذلك يوحي بالضيق والاختناق، مما يوافق حالة الاحتضار التي تتلجلج فيها الروح في الجسم، وتُنتَزع منه انتزاعاً عسيراً. ومن مراحل ذلك وصول الروح إلى الحلق: ﴿كلّا إذا بلغَتِ التـراقي﴾[2]، حين يشعـر المحتضـر بالكـرب العظيم من ناحيتين: (أولاهما) شعوره بمفارقته للدنيا العاجلة التي أحبّها حباً جماً، (وثانيتهما) اللوم والتقريع

---

(١) يلاحظ أن حرف الراء ـ بسبب تأديته لهذا المعنى ـ قد ورد في كثير من الألفاظ التي تفيد الحركة ومنها: الهرب، الفرار، الحركة، الرحيل، الشرود، الطيران، المرور. الخ.

(٢) التراقي جمع (ترقوة)، وهي عظمة قريبة من الحلق.

الذي يسمعه من الملائكة ومن صوت ضميره الذي يخاطبه قائلاً: ها أنت تغادر حياتك فلا صدّقت ولا صلّيت، ولكن كذّبت وتوليت ثم ذهبت إلى أهلك تتمطّى، ﴿أولى لك فأولى﴾!

وعندما تصل السورة إلى ذكر حالة الكافر في الدنيا من عدم الاستجابة إلى الدين الحق الجديد الذي يتطلب العمل الدؤوب والجهاد المتواصل، وخاصة إقامة الصلوات في أوقاتها، وإيثار هذا الكافر التكاسل والتباطؤ والإخلاد إلى الراحة البدنية، تتغيّر الفاصلة إلى اللام المشدّدة أو الطاء المشدّدة الممدوتين بالألف بعدهما: صلّى، تولّى، يتمطّى، أولى. وهذان الحرفان بما فيهما من تشديد ومدّ يوحيان بهذا التثاقل والتكاسل والإهمال للحق والإعراض عنه.

إن استخدام حروف الفاصلة بهذه الصورة للإيحاء بمعاني الآيات وتأكيدها، هو توفيق بديع وسر عجيب، وفتح جديد، لم يرد في كلام البشر من قبل!

إنّه بصمة من بصمات يد الإبداع الإلهي!

□□□□□

سورة الناس

الوسواس الخناس . . والبرمجة المضادة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ
ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى
يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

الأفكار الجديدة في سورة الناس

١ ـ سر ذكر أسماء الله الحسنى الثلاثة (الرب، الملك، الإله).

٢ ـ التنويم المغناطيسي وبرمجة شياطين الإنس.

٣ ـ الربط بين سورتي الفاتحة والناس من النواحي التالية:

أ ـ من حيث موقعهما في طرفي كتاب الله بدايته ونهايته.

ب ـ من حيث أن الفاتحة تعالج (البرمجة الإيجابية) لقلب الإنسان، وأن سورة الناس تعالج (البرمجة المضادة) الشيطانية.

جـ ـ من حيث اشتراك السورتين في أسماء الله الحسنى الثلاثة (الرب، الملك، الإله).

* * *

إن هذه السورة الكريمة هي سورة الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعاذة به من شر عظيم، هو شر وسوسة الشياطين. وقد سبق أن ذكرت في أثناء دراستي لسورة الفاتحة، أن هذه السورة ـ بتكرارها في الصلوات الخمس اليومية عدة مرات ـ تهدف إلى برمجة الكمبيوتر الإلهي ـ وهو قلب الإنسان ـ على المعاني الخيّرة النبيلة والسلوك الكريم الصحيح، من تفاؤل ورحمة وعدل وإحساس بالمسؤولية، وسعة الأفق والشعور الجماعي وغيرها.

إن سورة الفاتحة ـ أولى سور القرآن الكريم ـ هي سورة (البرمجة الإيجابية)، أما سورة الناس ـ آخر سور الكتاب العزيز ـ فهي تعالج (البرمجة المضادة السلبية)، أي الصفات الذميمة التي يوسوس بها شياطين الجنّ والإنس في قلب المؤمن، ليبطلوا ما تبرمجه الفاتحة من صفات طيبة.

إن هناك عدوّين رئيسيين يحاولان إحلال الهوى والشهوة في قلب المؤمن بدلاً من الإيمان والتقوى. هذان العدوان هما: شياطين الجن وشياطين الإنس: ﴿مِنَ الجنةِ والنَّاس﴾.

شياطين الجن:

أما الجنّ فهم كائنات خلقها الله من نار: ﴿وخَلَقَ الجانَّ مِن مارِجٍ من نارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، وهم من ذُرّية إبليس. قال تعالى: ﴿وإذْ قُلنا للملائكةِ اسجُدوا

لآدَمَ فسَجَـدوا إلاَّ إبليسَ كانَ من الجِنِّ، فَفَسَقَ عن أمرِ ربِّهِ، أفتَتّخِذونَهُ وذُرِّيَتَهُ أولياءَ مِن دوني وهُم لكُم عَدُوّ؟﴾ [الكهف: ٥٠].

والجن يعيشون مع الناس ويستطيعون أن يروهم؛ أما الناس فلا يستطيعون رؤية الجن. قال تعالى: ﴿إنَّه يراكم هو وقَبيلُهُ من حيث لا تَرونَهُم﴾ [الأعراف: ٢٧].

ويستطيع شيطان الجن أن يوسوس إلى الإنسان من داخل نفسه، مستثيراً شهـواتـه وأهواءه، حافزاً إياه على عصيان ربه، وهذا ما يجعل خطره كبيراً لأن وسوسته تختلط بحديث الإنسان لنفسه، فيظنّ أن وساوس الشيطان هي أفكاره الخاصة، غافلاً عن وجود هذا العدو الخطير الذي يدخل بينه وبين نفسه.

أساليب الشيطان وأفانينه في الوسوسة:

إن من يدرس القـرآن الكريم باحثاً عن وسوسة الشيطان للإنسان، يجد للشيطان أساليب شتى للإيقاع بالإنسان وإيذائه. وفيما يلي بعض هذه الأساليب:

(١) ـ **الـوسـوسـة بالتـزيين**: قال تعـالى: ﴿وزَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٤٣]. فالشيطان يغري الإنسان بالعمل القبيح فيراه حسناً: ﴿أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سوءُ عملِه فرآهُ حَسَناً﴾ [فاطر: ٨].

وبهذا الأسلوب أوقع الشيطان أبانا آدم في معصية ربه. فقد جعل يزيّن له الأكل من الشجرة المحرمة ويقنعه بأن أكلها يورث الخلود والملك الذي لا نهاية له، حتى أكل منها: ﴿فوَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ: قال يا آدمُ، هَلْ أدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى؟. فأكلا منها، وبَدَتْ لهُما سوءاتُهما وطَفِقا يخصِفان عليهما مِنْ وَرَقِ الجنَّة، وعصى آدمُ ربَّهُ فَغَوى﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

(٢) ـ **الوسوسة بالنسيان**: يحاول الشيطان أن يُنسي الإنسان كل ما ينفعه في الدنيا والآخرة، فيثير في نفسه أفكاراً تلهيه عن ذلك. وذلك ما في قوله تعالى:

﴿فإنّي نَسِيتُ الحوتَ وما أنسانِيهُ إلاّ الشيطانُ أنْ أذكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقوله: ﴿فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربّه﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

(٣) ـ الوسوسة بالهمز: قال تعالى: ﴿وقُلْ ربِّ أعوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين. وأعوذُ بِكَ رَبِّ أنْ يَحْضُرونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]. والهمز هو (النخس)، ويبدو أن للشيطان طعنات مؤلمة يوجهها إلى قلب الإنسان.

(٤) ـ الوسوسة بالتخويف: قال تعالى: ﴿إنَّما ذلِكُمُ الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَهُ، فلا تخافوهُمْ وخافونِ إن كُنْتم مؤمِنين﴾ [آل عمران: ١٧٥].

(٥) ـ الوسوسة بالنزغ: قال تعالى: ﴿إنَّ الشيطانَ يَنْزِغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والنزغ هو الإفساد بين الناس. ويشبه ذلك إثارة الشيطان للعداوة والبغضاء بين الناس في الخمر والميسر: ﴿إنّما يُريدُ الشيطانُ أنْ يوقِعَ بينَكمُ العَداوةَ والبغضاءَ في الخمرْ والميْسِر ويَصُدَّكُم عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ فهل أنتم مُنْتَهون؟﴾ [المائدة: ٩١].

(٦) ـ الوسوسة بالأزّ: قال تعالى: ﴿ألَمْ تَرَ أنَّا أرْسلنا الشياطينَ على الكافِرينَ تَؤُزُّهُمْ أزّاً﴾ [مريم: ٨٣]. ومن معاني (الأزّ) الإزعاج والمضايقة والألم والإغراء. فهو إغراء مؤلم!

وتفسير ذلك أن الشيطان، عندما يريد إغراء إنسان بفعل قبيح، ويجد هذا الإنسان قوي الإرادة صعب المنال، فإنه يعجز عن مواجهته مباشرة، فيلجأ إلى أسلوب اللف والدوران والمراوغة، ويزيّن له ما يريده تزييناً، بعبارات منمّقة مزخرفة. حتى يصل إلى هدفه. ومثال ذلك إغراؤه إنساناً بشرب الخمر، فإنه في بادىء الأمر يجد لديه إرادة صلبة تقاوم شرب الخمر، فيُزينه له بشتى أساليب التحبيب والترغيب حتى يشرب الخمر وتتمكن منه عادة شرب الخمر، فتضعف

هذه العادة إرادته أو تعطلها، فيصبح الإنسان طوع إرادة الشيطان، لا يستطيع عصيان أمره، وحينئذ يجرّه الشيطان إلى شرب الخمر رغماً عنه، مزعجاً إياه بشتى الهزات والهمَزات النفسية ويؤزّه أزّاً.

طبيعة الوسوسة وخطرها:

عندما يوسوس الشيطان للإنسان بشيء فإنه لا يكرهه على فعله إكراهاً، بل يعرضه عليه مجرد عرض. وللإنسان الخيار، فهو إما أن يستجيب للشيطان وإما أن يخالفه. يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وقال الشيطانُ لمّا قُضِيَ الأمْرُ: إنَّ الله وعدَكُم وعْدَ الحقِّ ووعَدْتُكمْ فأخْلفتُكم، وما كانَ لي عليكم مِن سُلطانٍ إلّا أن دَعَوْتكم فاسْتَجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فإن استجاب إنسان لوسوسة الشيطان فإن الإنسان هو المسؤول عن هذه الاستجابة وهو المحاسب على فعله الناتج عن استجابته له.

هذه هي طبيعة الوسوسة. فما هو خطرها؟

إن الوسوسة أعظم خطر يجابه الإنسان!

وهل سبب شقاء البشر بأسرهم إلّا وسوسة الشيطان لأبيهم آدم؟ قال تعالى: ﴿وإذْ قُلنا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ فسَجدوا إلاَّ إبليسَ أبىٰ. فقلنا يا آدمُ إنَّ هٰذا عُدوٌّ لك ولزوجكَ فلا يُخرِجنّكما من الجنَّةِ فتشقى﴾، ثم قال تعالى: ﴿فوسوسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدُلّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبلى؟ فأكلا مِنها فَبَدَتْ لهما سَوْءاتُهما، وطَفِقا يَخْصِفانِ عليهما مِنْ وَرَقِ الجنَّةِ وعصى آدمُ ربَّهُ فغَوىٰ. ثم اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَليهِ وهَدىٰ. قال اهْبِطا منها جَميعاً﴾ [طه: ١١٦ ـ ١٢٣].

فوسوسة الشيطان هي التي أخرجت آدم عليه السلام وذريته من نعيم الجنة الأولى إلى الشقاء المؤقت في هذه الحياة الدنيا. لكن خطر وسوسة الشيطان الآن

أخطر وأعظم، لأن الاستجابة لها قد تسبب شقاء الأبد الذي لا مخرج منه يوم القيامة.

شياطين الإنس والتلفزيون والڤيديو:

إنّ من شياطين الإنسان قوماً قد يكونون أخطر من شياطين الجن. إنهم يوسـوسون للإنسان بالكلام المنمق أو الإشارة المغرية أو النغم المطرب. قال تعالى: ﴿وكذلكَ جعلنا لِكل ِ نبيٍّ عَدُوّاً شياطينَ الإنس ِ والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعض ٍ زُخْرُفَ القول ِ غُروراً﴾ [الأنعام: ١١٢].

وضرب الله مثلاً لما يحدث يوم القيامة من خصام بين الإنسان وقرينه من شياطين الإنس فقـال تعالى: ﴿قالَ قرينُهُ ربَّنا ما أَطغَيتُهُ ولكِنْ كان في ضَلال ٍ بَعيدٍ. قالَ لا تَخْتصِموا لدَيَّ وقدْ قدَّمتُ إليكُمْ بالوَعيدِ﴾ [ق: ٢٧، ٢٨].

كما ضرب مثلاً آخر لإنسـانٍ مؤمن لم يستجب للوسواس البشري فنجا مِنْ عذاب يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فأقْبَلَ بعضُهم على بعض ٍ يتساءَلونَ. قال قائلٌ مِنهُمْ: إنّي كانَ لي قَرينٌ. يقولُ أإنك لَمِنَ المُصَدِّقين؟. أإذا مِتنا وكُنّا تراباً وعِظاماً أإنّا لَمَدينون؟ فاطّلَعَ فَرَآهُ في سواء الجحيم. قال تاللهِ إنْ كِدْتَ لتُرْدين، ولولا نعمةُ ربّي لكنْتُ من المحضرين﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٧].

وفي هذه الأيام يظهر الوسواس البشري في صور مختلفة. فقد يكون رفيقاً للطفل في مدرسته، فيوسوس له مغـريـاً بتدخيـن السجاير، فيورثه عادة شديدة الخطر على صحته الجسمية والنفسية. وتكمل شركات السجاير هذه الوسوسة المؤذية فتذيع الإعلانات المنمقة، المصحوبة بالألحان والكلمات المطربة المغرية..!

وقد يكون الوسواس البشري معلماً أو مدرّساً يوسوس لتلاميذه ما شاء له الهوى من أفكار شريرة منحرفة.

وكثيراً ما يكــون الــوســواس البشـري إذاعــة تلفـزيونية حافلة بالأفـلام والمسلسلات واللوحات المخزية، التي تنفث في نفوس الناس الوساوس الشريرة الداعية إلى الفاحشة والفجور والإجرام.

وكم سمعنا عن فتية ارتكبوا الجرائم الرهيبة من قتل وسرقة، ثم اعترفوا بعد إلـقــاء القبض عليهم، بأنهم فعلوا جرائمهم لمجــرد تقليــد ما رأوه في الأفــلام التلفزيونية أو السينمائية.

شياطين الإنس والتنويم المغناطيسي:

مما يؤكد أن طبيعة الإنسان النفسية تشبه طبيعة الكمبيوتر شبهاً شديداً، الأمـور التي تحـدث له حينما يُنوَّم تنويماً مغناطيسياً. فقد يستطيع إنسان قوي الشخصية أن يؤثّر في إنسان آخر، أضعف منه شخصيةً، فينوّمه تنويماً مغناطيسياً، فتصبـح إرادة النـائم (وهو ما يسمى بالوسيط) طوع إرادة المنوِّم. ويقبل النائم (الوسيط) أقوال المنوّم على أنها حقائق لا تقبل الشك، ولو كانت أكاذيب، كما أن النائم ينفّذ أوامر منَوِّمه تنفيذاً تاماً دون مناقشة.

وهذا مما يجعل المنوِّم وسواساً بشرياً شديد الخطر، إذ يستطيع أن يبرمج الوسيط بحيث يأمره بفعل جريمة أو عمل شائن، ثم يوقظه بعد شحنه بهذه المهمة الـوسواسية الإجرامية. وفي الوقت المحدد يجد هذا الوسيط نفسه مدفوعاً إلى تنفيذ العمل الإجرامي دون أن يعرف لذلك سبباً.

وقد حدث ذلك فعلاً في حادثة غريبة في أحد الأقطار العربية. إذ نوّم أحد المشتغلين بالتنويم المغناطيسي رجلاً، وأمره وهو نائم أن يقتل رجلاً آخر كانت بينه وبين المنوِّم عداوة بإطلاق النار عليه من مسدس وحدّد له وقت القيام بهذه الجريمة. ثم أيقظه وتركه يذهب. وفي الموعد المحدّد أحسّ الرجل برغبة جامحة لا قِبل له بها في ملاقاة عدوّ المنوِّم. فانطلق يبحث عنه في المكان الذي وصفه

له المنوّم. ولما وجده أطلق عليه النار من المسدس وقتله دون أن يعرف سبب ذلك!

وألقي القبض على القاتل متلبساً بالجريمة، وجرى التحقيق الدقيق معه. ولم يجد المحققون أي سبب منطقي يدعو القاتل إلى القتل، غير أنهم توصلوا في النهاية إلى الحقيقة وكشفوا المجرم الحقيقي، وعرفوا أن القاتل لم يقتل ضحيته بإرادته، وإنما قتله وهو مسلوب الإرادة، مدفوعاً بالإيحاء المغناطيسي الذي شحنه به المنوّم المجرم. وكانت النتيجة معاقبة المنوّم وتبرئة الوسيط..!

فهذا مثل حي من أمثلة الوسواسين من شياطين الجن.

برمجة الجنود والمواطنين على العدوان:

ومن أنواع البرمجة، التي هي من قبيل الوسوسة الشيطانية، برمجة الجيوش و المواطنين على أفكار العدوان والإثم: فتوجه إليهم «البرامج» الإذاعية الخاصة المتضمنة شعارات وأفلاماً ولوحات توحي بالأفكار العنصرية العدوانية، فيندفع الجنود إلى العدوان، ولو أدى ذلك إلى موتهم وكأنهم نائمون مغناطيسياً.

ومن الأمثلة على ذلك جنود هتلر النازيون سابقاً، والمنظمات والعصابات الصهيونية العنصرية النازية الجديدة.

الرب، الملك، الإله... لماذا؟

لقد أمرت السورة الإنسان أن يستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان الوسواس الخناس، مُسهِدةً إليه تعالى ثلاث صفات من صفاته الحسنى، وهي (الرب والملك والإله) مضيفة هذه الصفات إلى كلمة الناس ﴿رب الناس. ملك الناس. إله الناس﴾، فلماذا أوردت السورة هذه الصفات الحسنى الثلاث؟

إن الله تعالى واحد لا يتغير، لكن الناس هم الذين يتغيرون، والناس

يختلفون باختلاف الزمن أو السنّ، طبقاً لقوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكُمْ مِنْ ضَعفٍ، ثم جَعَلَ مَنْ بعدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثمَّ جَعَلَ من بعد قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً، يَخلُقُ ما يَشاءُ وهُوَ العليمُ القَديرُ﴾ [الروم: ٥٤].

لقد قسمت هذه الآية الكريمة حياة الإنسان إلى ثلاث مراحل، هي:

أ ـ **المرحلة الأولى**: مرحلة الضعف الأول غير الواعي، حين يكون الإنسان طفلاً لا يستطيع أن يعيش بقدراته الذاتية، بل هو في حاجة ماسّة إلى من يربيه ويرعاه ويعطف عليه، ويعلمه ما لم يكن يعلم. ويتمثل هذا المربي الراعي في الأم.

والطفل ـ في هذه الحالة ـ لا يعرف الله تعالى معرفة واعية.

ب ـ **المرحلة الثانية**: مرحلة القوة، وهي مرحلة عنفوان الشباب التي يكون فيها الإنسان شاعراً تمام الشعور بقوته وصحته وأنانيته وشهواته وأهوائه وتكون هذه الشهوات والأهواء في أوج قوتها. ويكون له من القدرات العقلية والعلمية ما يجعله يعرف الله تعالى، لكنّ شدة أهوائه كثيراً ما تحجبه عن التقيد بالتعاليم الإلهية، أو حتى الاجتماعية الضرورية لإقامة مجتمع سعيد.

وباجتماع مجموعة كبيرة من الشبان في مجتمع واحد، لا بدّ لأهوائهم من أن تتصادم وتتصارع، لأن هذه الأهواء مبنية على حبّ الذات، وإيثار الشاب لنفسه على غيره، مما يسبب طغيان بعض الشبّان على غيرهم. ولا يكفي هنا وجود أم حنون عطوف لردع الشبان الطاغين عن طغيانهم، ولا يُجدي معهم معسول الكلام ولا لطيف المعاملة، بل لا بدّ من وجود قوة خاصة مسيطرة رادعة، توقف كل صاحب هوى وطغيان عند حدّه، وتمنعه من العدوان على الآخرين.

وهذه القوة تتمثل في المجتمعات الإنسانية في الحاكم أو (الملك).

أي أن الإنسان ينتقل في هذه الحالة من رعاية (المربي) ـ وهو الأم ـ إلى رعاية الحاكم أو (الملك).

جـ ـ المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الضعف الثاني الواعي، مرحلة الكهولة. وهي تبدأ بعد أن تأخذ مشاعر الشاب في البرود وتأخذ قوته في النقصان وصحته في الاعتلال، وتأخذ آلام الأمراض في الطغيان. وكثيراً ما يتعب الكهل الأطباء ويتعبونه دون جدوى، مما يجعله يفكر في التطلع إلى غير الأطباء.

لقد أدرك الآن أنه ضعيف، وأن البشر كلهم ضعفاء، وأن هناك من هو أقوى من البشر، ومن يدبّر حياة هؤلاء البشر ويرعاهم. وهكذا يبدأ الكهل في الاتجاه نحو قوة غيبية يلجأ إليها لتسعفه وتنجده من أمراضه ومصائبه ومشكلاته. أي يأخذ في البحث الواعي عن (إله).

والإله هو الكائن الأعظم والأقوى الذي يلجأ إليه الإنسان ليكشف كربه ويغدق عليه النعم. قال تعالى: ﴿أمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاهُ ويكْشِفُ السوءَ ويجعلُكُم خُلفاءَ الأرضِ؟ أإلهٌ مَعَ اللهِ؟ قليلاً ما تَذَكّرون﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿أمَّنْ خلقَ السماواتِ والأرْضَ وأنْزَلَ لكُم مِنَ السَّماءِ ماءً، فأنْبَتْنا بهِ حَدائقَ ذاتَ بَهْجَةٍ، ما كانَ لكُمْ أنْ تُنْبِتوا شَجَرَها؟ أإلهٌ مَعَ اللهِ؟! بل هُمْ قومٌ يعْدِلون﴾ [النمل: ٦٠].

والآن، ما علاقة هذه المراحل الثلاث التي يمر بها الناس بأسماء الله الحسنى الثلاثة: (الرب، الملك، الإله)؟

١ ـ الربّ ومرحلة الطفولة:

إن كلمة (الرب) تشير إلى مرحلة الطفولة التي يحتاج فيها الإنسان الطفل إلى مُرَبٍ رحيم ودود. فإنّ من معاني كلمة (الرب) ـ المربيّ والمصلح. فالله تعالى هو المربي الحقيقي للأطفال. وما الوالدان إلّا مجرد واسطة لتربية الطفل.

فقد قذف الله بمحض رحمته الحنان والرحمة في قلب الأم نحو ولدها. جاء في الحديث الشريف المتفق عليه: ﴿إنَّ للهِ مِئَةَ رحمةٍ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِ والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها. وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة﴾ [مشكاة المصابيح: ٢٣٦٥].

٢ ـ الملك ومرحلة الشباب:

إن كلمة (الملك) تشير إلى المرحلة الثانية من حياة الإنسان، وهي التي يحتاج فيها الناس إلى حاكم أو ملك يحفظ حقوق الناس ويقضي بينهم بالحق. والله تعالى هو الحاكم الحقيقي والملك الحقيقي. وما الحكام والملوك إلّا حُكّام بإذن الله. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُل اللهمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتي الملكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاء وتُعزُّ مَنْ تشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تشاءُ، بيَدِكَ الخيرُ إنّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله: ﴿قُلْ يا أيُّها الناسُ إني رَسولُ اللهِ إليكم جميعاً، الذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ لا إلهَ إلّا هُوَ يُحيي ويُميت﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٣ ـ الإله والمرحلة الثالثة:

إن كلمة (الإله) تشير إلى المرحلة الثالثة، مرحلة الكهولة، التي يتطلع فيها الإنسان إلى الكائن الأعظم متجهاً إليه لينقذه من آلامه ومشكلاته. والله تعالى هو الإله الحقيقي وحده الذي ينبغي التوجّه إليه.

لذلك كانت هذه المرحلة مرحلة نضج الإنسان وتألق وعيه، فكان منها الشعار الإسلامي العظيم (لا إله إلا الله) الذي يفرّق بين المسلم والكافر، فليس من إله جدير بالعبادة والدعاء إلا الله.

وهكذا اتضحت الحكمة في ترتيب أسماء الله الحسنى الثلاثة ﴿ربِّ

النَّاس، مَلِكِ النَّاس، إله النَّاس﴾ بهذا النسق، الذي يدلّ على أنّ كل كلمة في كتاب الله العزيز لها وزنها ولها معناها المتميز، ولها موقعها المعجز.

المعنى العام للسورة:

كأنّ المؤمن من حين يتلو هذه السورة يستعيذ بالله جل جلاله قائلاً:

اللهم يا من ترحم الطفل الضعيف الذي لا يعرفك، يا رب الجنين الذي ترحمه وهو في بطن أمه دون دعاء منه ولا طلب، وتحفظه بفضل إحسانك وكرمك من شتى الأخطار، احفظني من وساوس الشيطان.

اللهم يا ملك الأمم جميعها، يا أحكم الحاكمين، يا من تحفظ الأمم من أهـواء الشبـان وتقمـع شهواتهم ونزواتهم وعدوانهم، أسألك أن تقمع وساوس الشيطان من قلبي، وأن تقمع عدوانه عليّ، وأن تقمع من قلبي أهوائي ونزواتي التي يستغلها الشيطان لإضلالي وإيقاعي في معصيتك.

اللهم إنك تحسن إلى الطفل الذي لا يعرفك ولا يدعوك، فكيف لا تحسن إلى من اتخذك إلهاً، واتّجه إليك خاشعاً متضرعاً يسألك أن تحفظه من أعظم شر، وهو وسوسة الشيطان التي أخرجت أبانا آدم من الجنة الأولى، والتي نحن معرضون ـ إن لم ترحمنا ـ إلى أن نُحرَم بها من جنة الآخرة التي لا ينتهي نعيمها، وإلى أن نقع بتأثيرها في عذاب جهنم التي لا ينتهي شقاؤها.

الموازنة بين سورة الناس وسورة الفاتحة:

لما كانت هاتان السورتان تقعان في طرفي كتاب الله، فالفاتحة في بدايته وسـورة الناس في نهايته، فهما متناظرتان ولا بدّ أن يكون هناك مجال للموازنة بينهما. وقد سبق التلميح إلى ذلك في بداية هذه الدراسة.

أولاً: إن سورة الفـاتحة وسورة الناس تعالجان موضوعاً واحداً هو برمجة

القلب الإنساني (الكمبيوتر الإلهي).

فسورة الفاتحة هي سورة (البرمجة الإيجابية)، إذ يكرّرها المسلم في كل صلاة من صلواته اليومية مراراً لتوحي إلى القلب بالمعاني والأخلاق الخيّرة الكريمة.

وأما سورة الناس فموضوعها (البرمجة السلبية)، إذ إن الشيطان ـ عدوّ الإنسان الأكبر ـ يحاول بالوسوسة أن يبرمج قلب الإنسان على الأخلاق السيئة والعادات الذميمة فهي برمجة مضادة لبرمجة سورة الفاتحة.

وقد سمّت السورة الشيطان بأنه ﴿خنّاس﴾، أي أن وساوسه تنقطع فوراً بمجرّد ذكر الإنسان لربه. قال تعالى: ﴿إنّ كَيْدَ الشيطانِ كانَ ضَعيفاً﴾ [النساء: ٧٦].

كما سمّت السورة الشيطان بأنه ﴿وسواس﴾ أي أن من طبعه الوسوسة التي لاتنقطع. فدواء وسوسته التي لا تنقطع هو ذكر الله الذي لا ينقطع.

ثانياً: إن كلاً من السورتين تشتركان في أن كلاً منهما دعاء إلى الله وحده، واستعانة به ولجوء إليه وحده. فالفاتحة دعاء طلب للخير ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، وسورة الناس دعاء دفع للشر ﴿شر الوسواس الخنّاس﴾.

ثالثاً: رأينا فيما تقدم أن سورة الناس أوردت ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى هي (الرب، الملك، الإله). ولننظر فيما يلي أين نجد نفس هذه الأسماء الثلاثة في سورة الفاتحة:

١ ـ ﴿ربِّ النَّاس﴾ في سورة الناس يقابلها ﴿ربِّ العالمين﴾ في سورة الفاتحة.

٢ ـ ﴿ملك النَّاس﴾ في سورة الناس يقابلها ﴿مالك يوم ِ الدِّين﴾ أو ﴿ملك

يوم الدين﴾ في إحدى القرائتين للآية، في سورة الفاتحة.

٣ ـ ﴿إله النَّاس﴾ في سورة الناس يقابلها ﴿إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين﴾ في سورة الفاتحة، فالعبادة والاستعانة هما صفتا (الإله) الأساسيتان. ومما يؤيد ذلك أن هناك آياتٍ عديدةً في كتاب الله تقرن بين (الإله) والعبادة، وبين (الإله) والدعاء الذي هو (استعانة) بالله. فمن ذلك:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وما أُمِروا إلَّا ليَعْبُدوا إلٰهاً واحداً﴾ [التوبة: ٣١].

ب ـ وقوله: ﴿ربُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرضِ لن نَدْعُوَ مِنْ دونِه إلٰهاً﴾ [الكهف: ١٤].

جـ ـ وقوله: ﴿والذين لا يدعونَ معَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

د ـ وقوله: ﴿قالوا نعبُدُ إلٰهكَ وإلٰهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيل وإسْحٰقَ إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٣].

فسورة الفاتحة لم تذكر (الإله) باللفظ، بل ذكرته بالمعنى، وذلك لسببين ـ والله أعلم ـ وهما:

أولاً: أن اسم الله قد ورد في سورة الفاتحة ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾ وهو يتضمن اسم (الإله).

ثانياً: أن ذكر مَعنيي الإله الأساسيين (وهما العبادة والاستعانة) هو تأكيد للناحية العملية من مفهوم (الإله)، فهو وحده الذي يستحق العبادة، وهو وحده القادر على إعانة مخلوقاته، الجدير بتوجههم إليه طلباً لمعونته.

وهكذا تتناظر هاتان السورتان العظيمتان وتتكاملان لتثبتا في قلب الإنسان كل خير، ولتدفعا عنه كل شر وشقاء.

والحمد لله رب العالمين.

الهندسة الإلهية في أركان الإسلام

الأفكار الجديدة في دراستها

١ ـ اشتراك أركان الإسلام الخمسة جميعاً في فكرة واحدة هي : (النفي ثم الإثبات) أو (التطهير ثم التقطير) :

الشهادتان : (لا إله) ـ نفي ⟵ (إلا الله) ـ إثبات

الصلاة : الطهار المادية والمعنوية ـ نفي ⟵ ذكر الله ـ إثبات

الصيام : طرد سموم الجسم وعيوب النفس ـ نفي ⟵ ذكر الله ﴿لتكبروا الله﴾ ـ إثبات

الحج : الطهارة المادية والمعنوية ـ نفي ⟵ ذكر الله ﴿ويذكروا اسم الله﴾ ـ إثبات

الزكاة : نفي الشح والصراع الطبقي ـ نفي ⟵
ذكر الله ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله﴾ ـ إثبات

٢ ـ أركان الإسلام الخمسة كإخوة متحابين يتزاورون ويتبادلون الهدايا. (انظر المخطط في آخر البحث).

الهندسة الإلهية في أركان الإسلام

قال تعالى: ﴿إنَّ الدينَ عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩].

هذا الدين دين منظم، بديع التنسيق، لأنه صادر عن الله العظيم الحكيم، الـذي أبـدع بلورات الثلج ذات الهنـدسة الرائعة، والذي جعل للأزهار أبعاداً هنـدسية وأشكـالاً بديعة، ولبعض الطيور ألواناً متدرّجة متمازجة، تثير إعجاب الناظرين، والذي جعل أجهزة الجسم وغدده متناسقة مترابطة...

إن ما يجتـذب النـظر في هذا الـدين، أنّ نبيّه الأميّ يضع «التعاريف» العميقة لأصول الدين بصورة دقيقة جامعة مانعة، كالإسلام والإيمان والإحسان وغيرها. ولأضرب مثلاً بالحديث الشريف الذي رواه مسلم وغيره، والذي يسأل فيه جبـريل الـرسول الكريم «تعريف» بعض المفاهيم ذات الأهمية الخطيرة، فيجيبه إجابات رائعة. وفيما يلي جزء من هذا الحديث: «قال (أي جبريل): يا محمد أخبِرني عن الإسلام فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبـده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً... قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخـر وتؤمن بالقـدر خيره وشـره... قال: فأخبـرني عن الإحسان. قال: أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه فإن لم تكنْ تَراه فإنَّه يراك».

إن هذا الحـديث يبيّن أن لهـذا الدين أعمالاً ظاهرية تنسجم مع عقيدة قلبية. أما أعماله الظاهرية فهي الإسلام بأركانه الخمسة التي تقوم بها الجوارح الجسمية، كالصلاة والزكاة. وأما باطنه فهو الإيمان الذي يستقر في القلب. فإذا اتفق هذا الظاهر مع هذا الباطن شكّلا قمة عظيمة هي الإحسان. فإن الإحسان يتضمن «العبـادة» (أن تعبـد الله) وهي الأعمـال الجسمية، كمـا يتضمن حالة «القلب» الذي يشعر بأن الله تعالى أمام ناظريه (كأنّك تراه)، وهي حالة إيمانية

عليا. إنها تعاريف في منتهى الدقة والروعة.

غير أنني أود هنا أن أبحث في أركان الإسلام الخمسة وحدها، مبيّناً ترابطها وتناسقها، و«الهندسة الإلهية» التي تتجلى فيها.

جوهر الحياة:

إن هذه الحياة هي «حياة قلب»، فمن كان قلبه حياً بالخشوع لله، فهو الحي الحقيقي. ومن كان قلبه قاسياً ميتاً، مهما اشتدت حركاته ودوّت كلماته. ألم يقل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يأْنِ لِلَّذينَ آمنوا أنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُم لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحقِّ؟ وَلا يَكونوا كالَّذينَ أُوتوا الكتابَ مِن قَبْلُ فَطالَ عليهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلوبُهم وكَثيرٌ مِنهُمْ فاسِقونَ. اعْلَموا أنَّ اللهَ يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، قدْ بَيَّنّا لكُمُ الآياتِ لَعَلكم تَعْقِلونَ﴾ [الحديد: ١٦ - ١٧].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الأخيرة إن فيها «إشارة إلى أن الله تعالى يليّن القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلّتها، ويفرج الكروب بعد شدّتها. فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة».

إن هذا القلب - كما وصفه القرآن الكريم - يحيا ويموت، ويمرض ويعمى. فالآية السابقة بيّنت حياته بخشوعه لذكر الله، وموته بقسوته عند ذكر الله. أما مرضه فورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠]، وفي قوله تعالى: ﴿يا نِساءَ النَّبيِ لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ، إنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بالقَولِ فَيَطْمَعَ الّذي في قَلبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. وأما عماه فورد في قوله تعالى: ﴿فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ ولكِنْ تعمى القُلوبُ التي

في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وسعادة الأبد وشقاء الأبد مدارهما على هذا القلب: ﴿يومَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ، إلّا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

سلامة القلب بتطهيره ثم تعطيره:

سئل الإمام ابن تيمية، فيما أذكر، يوماً عن العاصي يريد أن يتوب، فهل يبدأ بالاستغفار أم بالصلاة على النبي ﷺ؟ فأجاب: «الثوب الوسخ في حاجة إلى الصابون قبل أن يوضع عليه الطيب». أي عليه أن يبدأ بالاستغفار من ذنوبه، إذ إن الاستغفار تطهير للقلب، والصلاة على الرسول ﷺ تعطير له.

ولقد سلّط الله على القلب الشهوات والأهواء، والشيطان يوسوس له، لكنه أعطى الإنسان عقلاً وإرادة يكبح بهما شهواته، وأعطاه الفرصة لكي يلجأ إليه تعالى مستعيناً به إذا أخطأ أو عثر مستغفراً تائباً: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها، فألْهَمَها فُجورَها وتَقْواها. قَدْ أفلَحَ مَنْ زَكّاها وقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾.

فالإنسان مسؤول عن صلاح قلبه أو فساده، وهو مدعوّ إلى تطهير قلبه من كل ما يعكّره أو يحجب عنه الأنوار الإلهية.

القلب الزجاجي وحجاباه الدخان والغبار:

يشبه قلب الإنسان غرفة زجاجية، جدرانها شفافة، تشرق عليها أنوار شمس الرحمة والعلوم الإلهية، لكنّ زجاج هذه الغرفة معرّض دائماً إلى دخان وغبار قد يتكاثفان حتى يحجبا أنوار رحمة الله ويمنعاها من الدخول إلى القلب منعاً تاماً. يشير إلى ذلك المعنى الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب واستغفر صُقِل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلكم الران الذي ذكر الله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رانَ على قُلوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبونَ﴾» [مشكاة المصابيح : رقم ٢٣٤٢].

أ ـ الجهل بصفات الله دخان :

إن التصوّر الخاطىء لصفات الله تعالى حجاب عظيم فالله تعالى كامل الصفات : فهو واحد عليم حكيم رحيم قدير على كل شيء . . . إلى آخر صفاته الحسنى . فمن ظنّ للحظة واحدة أن الله تعالى قد يعجز عن شيء، أو ظنّ أنه ـ تعالى علوّاً كبيراً ـ قد أخطأ في إصابته بإحدى المصائب، اعترى قلبه سواد عظيم كالدخان المتكاثف. فيجب عليه أن يبادر إلى نفي هذا الوهم الخاطىء من نفسه، وطرد هذا الظنّ الآثم من قلبه، وذلكِ بالتسبيح، إذ إن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص وعيب. فالتسبيح «تطهير» للقلب من السواد والدخان اللذين يصيبانه.

التسبيح تطهير والحمد تعطير :

وبعد تطهير القلب بالتسبيح، ينبغي تعطيره وتحليته بحمد الله تعالى، بذكر صفاته الحسنى . وهذا معنى العبادة التي خلق الله الإنس والجن من أجلها : ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدونِ﴾ [الذاريات : ٥٦].

فالتسبيح تطهير أو تخلية من الأقـذار، والحمد تعطير وتحلية بذكر الله، لذلك كثيراً ما وردا متلازمين كما في قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِحمدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣].

ومثال الحمد قوله تعالى في الفاتحة : ﴿الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، الرحمنِ الـرحيمِ، مالِـكِ يَوْمِ الـدِّينِ﴾، فهنـا نحمـد الله تعالى بذكر صفاته الحسنى الأساسية، وهي ربوبيته للعالمين (أي خلقه ورعايته لهم)، ورحمته وملكه ليوم الحساب (أي قدرته على محاسبة الناس جميعاً والعدل بينهم).

ب ـ الذنوب هي الغبار:

قد يخطىء الإنسان بفعل شهوة تغلب عليه، أو هوى يطغى عليه، فيتكاثف بعض الغبـار على قلبـه، فحينئـذ يجب عليه أن يطهّـر قلبـه من هذه الغبـار بالاستغفـار، وقد ذكر الله تعالى التسبيح والحمد والاستغفار في قوله في سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وٱسْتَغْفِرْهُ إنَّه كانَ تَوّاباً﴾.

الصفة المشتركة بين أركان الإسلام:

إن ما ذكرته سابقاً يؤدي بنا إلى الصفة المشتركة بين أركان الإسلام الخمسة التي تجعلها متناسقة فيما بينها متحدة في هدفها، وهي التطهير ثم التعطير، أو التخلية ثم التحلية، أو النفي ثم الإثبات، أي نفي أقذار الباطل والشهوات، ثم إثبات ذكر الله تعالى بصفاته الحسنى، مما ينعكس على قلب الإنسان بالأنوار الكريمة والسعادة الحقيقية.

ولنقم الآن بجولة في أركان الإسلام الخمسة متبيّنين فيها النفي والإثبات، التطهير والتعطير.

١ ـ النفي والإثبات في الشهادتين:

إن العقل والفطرة يشهدان شهادة لا ريب فيها، بأن الله هو وحده إله هذا الكـون وربـه ومـدبر أموره كلها، لا شريك له ولا مثيل. فهذا الكون الرحيب المنظم، وما فيه من ظواهر فلكية وفيزيائية وكيماوية وبيولوجية متناسقة مترابطة، يدل على صنعة متقنة وتدبير مدهش. انظر إلى جسدك وما فيه من أجهزة رائعة، كل منها يؤدي وظيفته التي خُلق من أجلها، متناسقاً مع غيره من الأجهزة. انظر إلى الجهاز الهضمي كيف يتلقى الأغذية المتعددة فيحوّلها بمعجزة كيماوية خارقة إلى لحم وعـظم وشعـر وأظفـار. . . إنهـا عملية مدهشـة يقف أمـامهـا أعظم الكيماويين فاغراً فاه مشدوهاً، لا يدري كيف تتم. . !

لكنّ هناك من البشر من يتخذ من دون الله آلهة، وشرّ إله يتخذه الإنسان هو الهوى: ﴿أرأيتَ مَنْ اتَّخذَ إلٰهَهُ هَواهُ؟ أفأنْتَ تكونُ عليهِ وَكيلاً؟﴾ [الفرقان: ٤٣]، بل إن الهوى هو الذي يدفع الإنسان إلى الانحراف عن العقل والفطرة فيتخذ شركاء لله تعالى في ألوهيته: قال تعالى: ﴿قُل إنّي نُهيتُ أنْ أعْبُدَ الّذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ، قُلْ لا أتَّبِعُ أهواءَكُمْ، قَدْ ضَلَلْتُ إذاً وما أنا مِنَ المُهْتَدينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ومن هنا وجب على الإنسان قبل أن يؤمن بالله تعالى أن ينسف ما في قلبه من أهواء تحفزه إلى الإيمان بآلهة أخرى. ومن هنا جاء شعار الإسلام الأول «لا إله إلا الله» نافياً الآلهة الباطلة بقوله «لا إله»، ومثبتاً ألوهية الله وحده بقوله «إلا الله». فهذا الشعار يتضمّن النفي فالإثبات، التطهير فالتعطير، التخلية فالتحلية. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يكْفُرْ بالطّاغوتِ ويُؤْمِنِ باللهِ فَقَد آسْتَمْسَكَ بآلعرْوَةِ الوُثْقى لا آنْفِصامَ لَها﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقد قدّمت الآية الكفر بالطاغوت، أي بالآلهة الباطلة، على الإيمان بالله، إذ لا يمكن للإيمان بالله أن يدخل قلباً مؤمناً بالطاغوت، فالقلب لا يتسع لإيمانهن متناقضين، التطهير أولاً!

وأما الشهادة الأخرى، شهادة «أن محمداً عبد الله ورسوله»، فهي إثبات لحقيقة مشرقة أخرى، تربط القلب بقدوته البشرية، الرسول الكريم، فهو القدوة الكاملة الوحيدة، وكان سلوكه مثالاً أعلى للعبودية لله تعالى، والقدوة ضرورة لا بدّ منها لكل سالك. وهذه الشهادة للرسول بالعبودية لله وبالرسالة ـ وإن كانت إثباتاً ـ فهي تتضمن تلميحاً لا تصريحاً، نفي كل قدوة أخرى غير رسولنا الأكرم، فلا يجوز لنا أن نتبع تشريعاً غير تشريعه ﷺ.

وهكـذا تبيّن لنـا أن ركن الإسـلام الأول ـ الشهـادتين ـ يتضمن النفي

فالإثبات، النفي للآلهة الباطلة المستندة إلى الهوى، وإثبات الإيمان بالله الحق ودوام ذكره، والنفي لكل قدوة بشرية ما عدا الرسول الكريم وإثبات قدوتنا له عبداً رسولاً.

٢ ـ النفي والإثبات في الصلاة:

إن الإسلام دين واقعي عملي فطري، فهو يعطي الروح حقها، كما يعطي الجسد حقه، إذ الإنسان روح وجسد متناسقان متآلفان، مصلحتهما واحدة، ويؤثر أحدهما في الآخر، فالإسلام دين وسط: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾، ينكر هضم حق الجسد بحجة إكرام الروح، فينكر الرهبانية، كما ينكر هضم حق الروح التي هي أساس حياة الإنسان ومحور وجوده، بالإسراف في الشهوات المادية.

ولذلك تضمنت الصلاة، عماد الدين وركنه العظيم، تطهيراً مادياً في نفس الوقت الذي تضمنت فيه التطهير المعنوي، إذ إن التطهير المادي يؤثر حتماً في تطهير الروح ويزيده عمقاً وتألقاً. لذا اشترط الدين الحنيف أن يسبق الصلاة الوضوء والطهارة التامة في الجسد والثوب والمكان.

وأما الصلاة نفسها فتتضمّن تطهيراً نفسياً مباركاً: ﴿إنَّ الصلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكَرِ﴾، والصلاة وحدها تنجح في تطهير النفس من الأهواء، كالهلع والجزع عند إصابة الإنسان بالشر، والمنع والشح حين إصابته بالخير والنعمة. قال تعالى: ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً. إذا مَسَّهُ الشَرُّ جَزوعاً. وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنوعاً. إلاَّ المُصَلّينَ. الّذينَ هُمْ على صلاتِهِم دائِمونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

وقد ورد في حديث صحيح متفق عليه رواه أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» [مشكاة المصابيح: رقم ٥٦٥]. ومغفرة الخطايا

نفي وتطهير للنفس فيها.

أما الإثبات الذي يلي النفي في الصلاة، فهو ذكر الله، قال تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه: ١٤]، وانظر كيف جمعت آية أخرى بين النّفي والإثبات اللذين في الصلاة، بين التطهير من الفحشاء والمنكر، وإثبات ذكر الله، وهي قوله عزّ وجل: ﴿إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحشاءِ والمُنْكَرِ، ولَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالنهي عن الفحشاء والمنكر نفي وتطهير وتخلية، وذكر الله إثبات وتحلية.

وهناك تعطير مادي في الصلاة أيضاً، يتناسق مع التعطير الروحي. فمن سنن الصـلاة التطيّب بالروائح العطرة وخاصة في صلاة الجمعة. ويرافق ذلك تطهير ونفي، وذلك بالنهي عن التسبب في إشاعة الروائح الكريهة في المساجد بأكل البصل والثوم ونحوهما. وهناك تحلية مادية أخرى في الصلاة، وهي أمر الله بالتزيّن ولبس أحسن الملابس حين دخول المساجد للصلاة، إذ قال تعالى: ﴿يا بَني آدَمَ خُذوا زينتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وهكذا تبيّن لنا أن الركن الثاني من أركان الإسلام، وهو الصلاة، يتضمن النفي للأهـواء النفسية والأقذار الجسمية والروائح الكريهة، والإثبات لذكر الله والتعطير المادي أيضاً.

٣ ـ النفي والإثبات في الصيام:

إن في الصيام تطهيراً مادياً وتطهيراً معنوياً، أما التطهير المادي فيتجلى في أن الجسم حين الصيام يتفرغ للتخلص من السموم والرواسب والفضلات التي تتـراكم في أعضـائـه في الأشهر التي تسبق رمضان، كما يضطر إلى استهلاك الشحوم المختزنة فيه، التي يسبب تراكمها ضغطاً على نشاط الجسم وعلى القلب بصورة خاصة.

وأما التطهير المعنوي في الصيام فيتجلى في نفي الأهواء وأمراض القلب

التي تحث المرء على اغتياب الناس، ومقابلة عدوانهم بالسباب والشتيمة. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» [البخاري: مشكاة المصابيح رقم ١٣٩٩]. وقال رسول الله ﷺ أيضاً في الحديث المتفق عليه: «الصيام جُنّة فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفُثْ ولا يصخَبْ، فإنْ شاتمه أحدٌ أو قاتلهُ فليقلْ: إني صائم، إني صائم».

ويتجلى التطهير المعنوي أيضاً في الاعتكاف المسنون في العشر الأواخر من رمضان. فالاعتكاف في المسجد يعزل المسلم عن المجتمع العادي المليء بالصخب واللغو، الذي لا يستطيع الإنسان فيه إلّا أن يسمع أو يبصر بعض المحرمات التي تخدش روحه، سواء أكان ذلك في الشوارع أم في البيت. فالاعتكاف نفي لهذه المعكرات لصفو الروح.

وأما الإثبات في الصيام فيتجلى فيما يلي:

أ ـ الصيام إثبات لإرادة الإنسان وتقوية لها بكف النفس عن شهواتها من الطعام والشراب والفحشاء والمنكر.

ب ـ الصيام تكبير لله وتعظيم له تعالى، فهو ذكر له عز وجل، وشعور بقربه، قال تعالى في آية صيام رمضان: ﴿وَلِتكْمِلوا العِدّةَ ولِتُكَبّروا الله على ما هَداكُمْ وَلَعَلّكُم تَشْكُرون. وإذا سألَكَ عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٥، ١٨٦].

جـ ـ إذا جاءت ليلة القدر في رمضان، فإنها تعمر القلب بالطمأنينة والسلام: ﴿سَلامٌ هيَ حَتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾.

د ـ في صيام رمضان إثبات لفرحتين تغمران القلب: فرحة حين يفطر الصائم وفرحة حين يلقى ربه، كما في الحديث.

٤ ـ النفي والإثبات في الزكاة:

الزكاة عمل مادي، لكنّ له آثاراً نفسية واجتماعية بالغة الخطورة. فمن قام بدفع الزكاة فإنه بذلك يطهّر نفسه من هوى الشح الذي لا تخلو منه نفس من النفوس البشرية. فقد قال تعالى: ﴿وأُحْضِرَتِ الأنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿وَمَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿إنْ تُقْرِضوا الله قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لكُم ويغْفِر لكُم والله شَكورٌ حَليمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، والمغفرة تطهير من الذنوب.

هذا التطهير من هوى النفس والنفي لشحّها، يعقبه إثبات لذكر الله في القلب، فدافع الزكاة يدفعها وهو يعلم أنه ينفق في سبيل الله: ﴿وما آتَيْتُم مِنْ زَكاةٍ تُريدونَ وَجْهَ اللهِ فأُولئِكَ هُمُ المُضْعِفونَ﴾ [الروم: ٣٩]، فهو يثبت ذكر الله في قلبه. وهناك إثبات آخر هو مضاعفة الثواب للمزكّي.

هذا ما يحدث بالنسبة إلى الفرد دافع الزكاة من نفي وإثبات، من تخلية وتحلية. أمّا ما يحدث منهما بالنسبة إلى المجتمع، فهو أمر خطير جدير بالبحث. فالمجتمع بطبيعته يحوي طبقتين رئيسيّتين: هما طبقة الفقراء وطبقة الأغنياء، فإن كان التفاوت بينهما فاحشاً، أدى ذلك إلى تصدّع المجتمع. إذ يحقد الفقير الجائع على الغني المترف البطر، وينشأ الصراع المرير بين الطبقتين الذي قد يدمّر المجتمع ويُشقيه.

أما عندما يدفع الغني زكاة ماله إلى الفقير، فإنه بذلك يزيل التفاوت الفاحش بين الطبقتين، ويزيل الحقد الذي يملأ نفس الفقير، ويمنع الصراع المدمّر الذي قد يتعرّض له المجتمع، وهذا يعني تطهير المجتمع من الفقر ونفي الحقد والصراع منه، وتخلية عوامل الشرّ فيه.

وإذا تم ذلك فإن المجتمع تسوده المحبة والوئام، فتصبح الزكاة إثباتاً

للسعادة والإنسجام في المجتمع المسلم، وتحلية لجوه وآفاقه.

٥ ـ النفي والإثبات في الحج:

في الحج أيضاً نفي وإثبات، تطهير وتعطير، تخلية وتحلية.

فالحاج يبدأ حجه بأعمال الإحرام، مفتتحاً ذلك بالاغتسال، وهو «تطهير» مادي.

ثم ينزع الحاج الثياب المخيطة ويلبس غير المخيطة. وهو عمل مادي، إلا أنه يرافقه أثر نفسي تطهيري بالغ فنزع الثياب المخيطة وما فيها من تعقيد وبذخ وترف ينزع من النفس ميلها إلى التكبّر والتميّز عن الناس، فحين الإحرام ينظر الغني فيرى في ملابسه كالفقير، ويرى رأسه عارياً لا يتميّز عن الفقير بطاقية مزخرفة أو عمامة مزينة أو تاج محلى.

ويطلب من الحاج أيضاً أن يطهّر نفسه من الشهوات والأهواء. قال تعالى: ﴿الحَجُّ أشهُرٌ معلوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فيهنَّ الحَجَّ، فلا رفَثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ في الحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ونحر الأضحية في الحج يجعل دمها يسيل، فهو تطهير لها من الدم النجس، فلا يبقى منها إلا اللحم الطيب الطاهر، يأكله الحاج ويطعم منه الفقراء. فالنحر نفي للدم النجس وإثبات للحم الطاهر.

وأما دفع نفقات الحج من أجور للسفر وثمن للأضحية وغيرها، فهو تطهير للنفس من الشح وتعويد لها على السماحة والكرم، فذلك نفي للشح وإثبات للكرم، كما مر في بحث الزكاة.

وأما الإثبات في الحج فيتجلى في قوله تعالى: ﴿وأَذِّنْ في النّاسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كُلِّ ضامرٍ يأتينَ مِنْ كُلِّ فجٍ عميقٍ، لِيشهَدوا منافعَ لَهُمْ ويَذْكروا

آسمَ اللهِ في أيَّامٍ مَعْلوماتٍ على مارَزَقَهُمْ مِنْ بَهيمةِ الأنعام﴾ [الحج: ٢٧ - ٢٨].
ففي الحج إثبات لذكر الله في القلب وإثبات لمنافع متعددة مادية ومعنوية كإطعام الفقراء.

الحاج منسجم مع الكون:

إن الكـون تجمّـع هائل لمليارات المليارات من الذرات المادية التي لا يمكن مشاهدتها حتى بالمجهر. وكل ذرة منها مهما اختلف نوع مادتها، تتركب من نواة ضخمـة الوزن نسبياً تتمركز في الوسط، تدور حولها الكترونات ضئيلة الوزن. وهي تطوف حول النواة كما يطوف الحجاج حول الكعبة.

والمجموعة الشمسية تتركب من الشمس في الوسط، تدور حولها الكواكب كالأرض والمريخ والزهرة وغيرها، طائفة كما يطوف الحاج حول بيت الله.

فالكون كله يطوف، الكترونات حول نواة في الذرة، وكواكب حول شمس في المجمـوعـات الشمسية، التي تدور بدورهـا حول مركز المجرة، وينسجم المسلم الحاج مع هذا الكون الهائل بأسره، دقيقه وعظيمه، فيطوف حول بيت الله الحرام الكعبة.

- **الطواف رمز الخضوع:**

إذا كانت الأرض تدور في فلك الشمس، فإنها تكون بذلك خاضعة لها، فهي لا تستـطيع الابتعـاد عنها، لأنها واقعة في أسر جاذبيتها، لذلك أصبحت عبارة: «يدور في فلك كذا» تعني «يخضع لكذا». فيقال مثلاً: «الدولة الفلانية تدور في فلك الدولة الفلانية» أي تخضع لها.

ولما كانت الأرض تظهر ولاءها للشمس، وخضوعها التام لها، فإن الشمس بمشيئـة الله، تفيض على الأرض من بركـاتها، جزاءً لها على إظهارها الطاعة

والخضوع، فأنوار الشمس ودفئها تملأ جوانب الأرض وتهيء نزول الأمطار بإذن الله، وتحيي الأرض بعد موتها، وتكسوها بالرياض الغناء والمراعي النضرة.

كذلك ينسجم الحاج مع الكون كله، فيطوف حول بيت الله تعالى مظهراً خضوعه التام له عز وجل، فيفيض عليه الله من أنواره وسعاداته الغامرة ويحيي قلبه.

فالحج نفي للتمرد على أمر الله وإثبات للخضوع له تعالى ولتلقي نفحاته.

أركان الإسلام إخوة متحابّون

بيّنت فيما سبق أن أركان الإسلام الخمسة تترابط فيما بينها وتشترك في هدف ثنائي رئيسي واحد، هو تطهير للنفس بنفي الهوى والشرك ثم إثبات لذكر الله وتعطير القلب بصفاته الحسنى مما يضفي على القلب السلام والطمأنينة والفرح.

غير أن هناك ترابطات أخرى متشعبة بين أركان الإسلام تجعلنا نشعر بأنهم كالإخوة المتحابين المتآلفين الذين يزور بعضهم بعضاً، ويصل بعضهم بعضاً ويتهادون الهدايا. ويتجلى هذا الترابط الرائع في الأمور التالية:(١).

١ ـ ركن الإسلام الأول، الشهادتان: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» يزور أخاه ركن الصلاة، وذلك في أثناء التشهد عند جلوس المصلي.

٢ ـ ركن الصلاة يقدّم إلى ركن الصيام في رمضان ثلاث هدايا نفيسة هي:

(١) إن ما يتعلق بترابط ركن الصلاة بغيره من الأركان مستقى من أفكار العلامة محمد متولي شعراوي.

صلاة التراويح، وصلاة عيد الفطر، والاعتكاف في المسجد، الذي هو من السنن في العشر الأواخر من رمضان. كما أن ركن الصلاة يتلقى هدية من الصيام، وهي أن المصلي يجب أن يمتنع عن الطعام والشراب في أثناء صلاته، فهو صائم طيلة هذه الفترة، وتبطل الصلاة بالأكل والشرب في أثنائها.

٣ ـ ركن الصلاة يتلقى هديتين من ركن الزكاة، الذي هو في حقيقته «تضحية بالمال» في سبيل الله، سواء في الزكاة المفروضة أم في الصدقة الطوعية. وأولى هاتين الهديتين هي أن التاجر أو العامل، عندما يسمع الأذان للصلاة، فإنه يترك ما بيده من تجارة أو بيع مضحياً بأرباحهما، لكي يذهب إلى المسجد فيصلي. قال تعالى: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمنوا إذا نودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاَسْعوا إلى ذِكْرِ الله وذَروا البَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. فهذه تضحية بالمال، وهي الهدف الأساسي للزكاة.

وثاني الهديتين اللتين تتلقاهما الصلاة من الزكاة، هي الزكاة الطوعية التي يقوم بها المسلمون لبناء المساجد التي تقام فيها الصلاة: ﴿إنَّما يَعْمُر مَساجِدَ اللهِ مَنْ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزّكاةَ﴾ [التوبة: ١٨].

٤ ـ إن ركن الصلاة وركن الحج يلتقيان في الكعبة بيت الله الحرام. فالمصلّي لا بدّ له من أن يستقبل الكعبة، كما أن الحاج لا بدّ له من أن يطوف حول الكعبة.

كذلك يتلقى ركن الحج من ركن الصلاة هدية نفيسة، هي صلاة عيد الأضحى.

٥ ـ إن ركن الزكاة يقدم هدّية قيّمة إلى ركن الصيام، وهي زكاة الفطرة التي تتم في شهر رمضان.

٦ ـ إن ركن الزكاة يقدم هديتين إلى ركن الحج. فالزكاة تضحية بالمال،

والحاج يضحي بالمال في أمرين، أولهما، حينما يدفع ثمن الأضحية، وثانيهما حينما يدفع نفقات الحج من أجرة ركوب وغيره.

٧ ـ يلتقي ركن الصيام وركن الحج في أمور كثيرة أوضحها فيما يلي:

أ ـ يشترك الصيام والحج في نزول القرآن الكريم. فإن بداية نزوله وإشراق أنواره كان في ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وأما اكتمال نزول الشريعة الإسلامية فقد تم في التاسع من ذي الحجة في حجة الوداع. فقد أورد ابن كثير حديثاً صحيحاً عن طارق بن شهاب قال: «جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرأون آية في كتابكم، لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأيّ آية؟ قال: قوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت على رسول الله ﷺ: عشية عرفة في يوم جمعة».

ب ـ وهناك عشرة أيام مقدسة في كل ركن من الركنين: العشرة الأخيرة من رمضان لبدء نزول القرآن فيها، والعشرة الأولى من ذي الحجة لاكتمال نزوله فيها.

جـ ـ هناك وتر في رمضان هو ليلة نزول القرآن (ليلة القدر) التي يرجح أنها السابعة والعشرون من رمضان، كما أن هناك وتراً في ذي الحجة هو يوم التاسع من ذي الحجة الذي اكتمل فيه نزول الشريعة الإسلامية.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى في مطلع سورة الفجر: ﴿والفَجْرِ، وَلَيالٍ عَشْرٍ، والشَّفْعِ والوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ﴾، حيث «الشفع» (التي معناها الزوج) إشارة إلى زوج من العشرات: عشر رمضان وعشرِ ذي الحجة. والوتر إشارة إلى الوتر في كل منهما (٢٧ رمضان، ٩ ذي الحجة). والفجر إشارة إلى تدفق أنوار القرآن ببدء نزوله في رمضان؛ و﴿اللّيلِ إذا يَسْرِ﴾، إشارة إلى زوال ظلام الشرك

والكفر، وانمحائه تماماً باكتمال نزول القرآن الكريم.

د - كل من ركني الصيام والحج ينتهي بعيد، فرمضان يعقبه عيد الفطر، الذي هو في حقيقته احتفال بفرحة نزول أول آيات القرآن، والحج ينتهي بعيد الأضحى، الذي هو احتفال بفرحة اختتام نزول الشريعة الإسلامية.

هـ - يمتاز ركنا الحج والصيام على سائر الأركان بأنّ كلاً منهما يثبت برؤية الهلال.

٨ - يشترك ركن الحج وركن الصيام وركن الزكاة في أنها جميعها سنوية، أي تحين في السنة مرة واحدة.

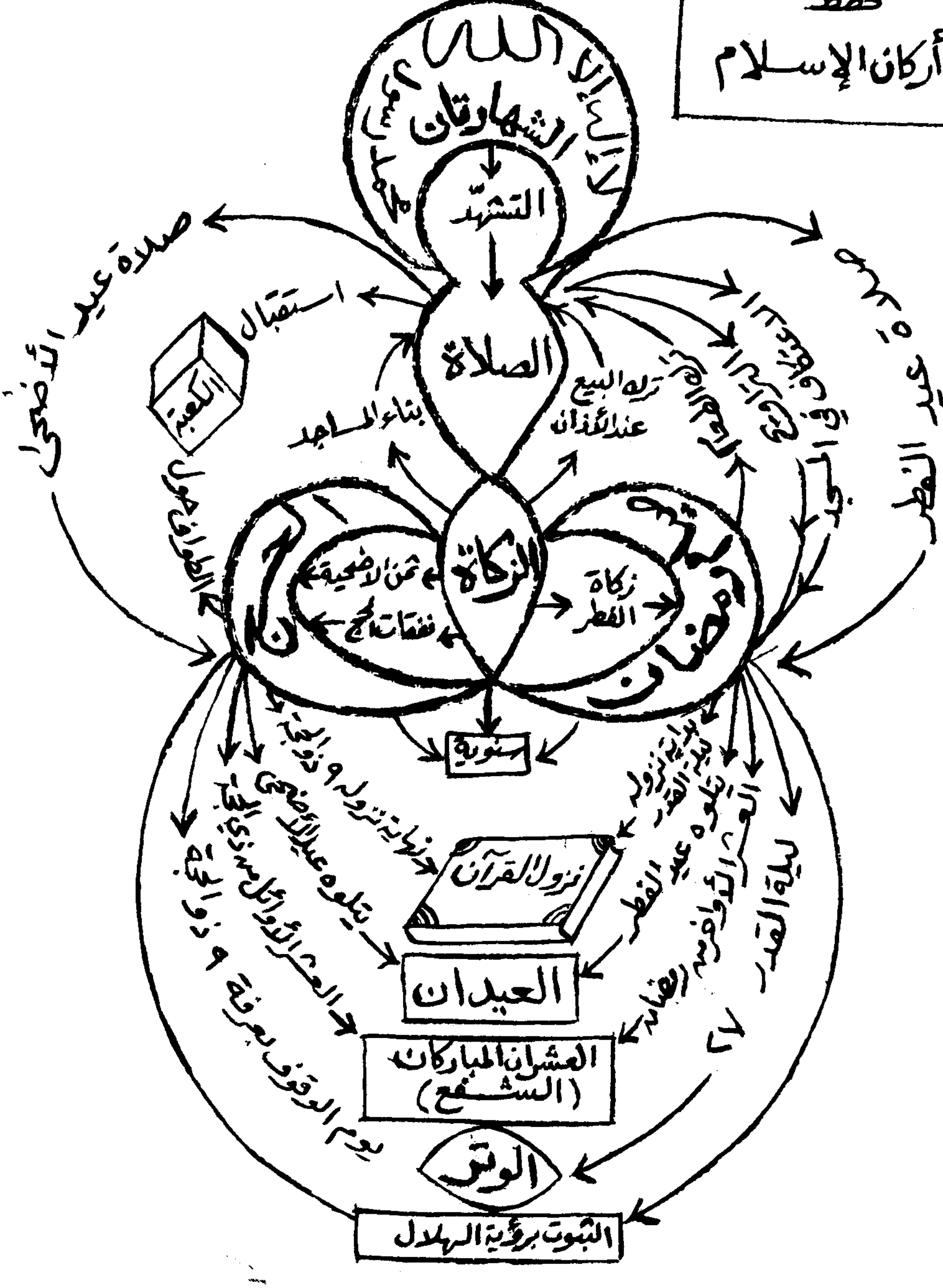
وهكذا تتجلى الهندسة الإلهية الرائعة في أركان الإسلام الخمسة التي فرضها على عباده، فجعل بينها هذا الترابط والتناسق في الهدف والأساليب.

والحمد لله رب العالمين ﴿ولَوْ كانَ مِنْ عِندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختِلافاً كثيراً﴾.

ملاحظة: الرجاء دراسة الشكل التالي والخلاصة التي تليه.

□□□□□

مخطط
أركان الإسلام



ترابط أركان الإسلام

	النفي (التطهير)	الإثبات
الشهادتان	١ ـ نفي الآلهة الباطلة (لا إله . . . . . . ٢ ـ نفي اتباع الرسل السابقين لرسولنا.	١ ـ إثبات الإيمان بالله وذكره . . . . . إلا الله) ٢ ـ إثبات الإيمان برسالة النبي ﷺ واتباعه
الصلاة	١ ـ نفي الأقذار المادية بالوضوء وطهارة الجسم. ٢ ـ نفي الأقذار النفسية من فحشاء ومنكر. ٣ ـ ترك الروائح الكريهة كالبصل والثوم.	١ ـ إثبات ذكر الله ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾. ٢ ـ التعطر بالطيب.
الصيام	١ ـ تطهير الجسم مادياً من رواسبه وشحومه. ٢ ـ تطهير النفس معنوياً من المنكرات كالغيبة والنميمة والتسابب. ٣ ـ تطهير النفس بالاعتكاف بالمسجد.	١ ـ إثبات ذكر الله ﴿وَلِتكَبِّروا اللهَ على ما هَداكُمْ﴾. ٢ ـ إثبات للإرادة. ٣ ـ إثبات لطمأنينة القلب وسلامة ليلة القدر ﴿سَلامٌ هِيَ حتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾. ٤ ـ إثبات للفرحتين حين يفطر الصائم وحين يلقى ربه.
الزكاة	١ ـ نفي للشح من نفس الفرد. ٢ ـ نفي للتفاوت الطبقي والحقد والحسد والصراع في المجتمع.	١ ـ إثبات لذكر الله ﴿وما آتيتُمْ مِنْ زكاة تُريدونَ وَجْهَ اللهِ فأولئك هُمُ المُضعِفونَ﴾. ٢ ـ إثبات للثواب المضاعف. ٣ ـ إثبات للسعادة والتآلف في المجتمع.
الحج	١ ـ تطهير مادي بالاغتسال عند الإحرام. ٢ ـ نفي للتكبّر بنزع الثياب المخيطة. ٣ ـ تطهير النفس من الشهوات بترك الرفث والفسوق والجدال. ٤ ـ نفي للشح بالأضحية ودفع نفقات الحج. ٥ ـ نفي للتمرّد على الله بالطواف حول بيته.	١ ـ إثبات ذكر الله ﴿وَيَذْكُروا اسمَ اللهِ في أيّامٍ مَعْدوداتٍ﴾. ٢ ـ إثبات للمحبة بين الفقراء والأغنياء بإطعام الفقراء والصدقة عليهم. ٣ ـ إثبات للخضوع لله بالطواف والانسجام مع الكون.

رجعات البصر الثلاث . . .

في سورة المُلك

الأفكار الجديدة في دراستها

١ ـ إرســال ثلاث نظرات في عالَـمَـي (الـمـوت والحياة) ـ الأمــوات (الجمادات) والأحياء.

النظرة الأولى: إلى عالم الأموات (الجمادات) وحده.

النظرة الثانية: إلى عالم الأحياء وحده.

النظرة الثالثة: إلى التفاعلات والترابطات بين عالمي الجمادات والأحياء.

٢ ـ ظهور بصمات يد القدرة الإلهية في الكون وأهمها:

أ ـ السُباعية (سَبعَ سماواتٍ): الألوان السبعة ـ الأنغام السبعة ـ المدارات الالكترونية السبعة . . .

ب ـ الطبقية (طِباقاً): طبقات الذّرة، طبقات الخلية . . .

جـ ـ الحـركـة الـدورية (زيّنـا السّمـاءَ الـدنيا بِمصابيحَ): دورة الأجرام السمـاوية، دورة الحياة والمـوت، دورة الالكتـرونات، دورة المياه، دورة الدم والغذاء في الأحياء، دورة الأوكسجين . . .

من أسرار القرآن الكريم:

رجعات البصر الثلاث . . . في سورة الملك

﴿فَٱرْجِعِ ٱلبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطورٍ؟ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلبَصَرَ كَرَّتَيْنِ، يَنْقَلِبْ إليكَ البصرُ خاسِئاً وهو حَسيرٌ﴾.

حقاً إن هذا الكون لعجيب!

كيف تنتشر الحياة على هذه الأرض، وتزدهر مالئةً الأرض بالبساتين النضرة، والحيوانات النشطة، والطيور الجميلة المحلّقة، والحشرات المنتشرة، والأسماك السابحة؟

كيف يحدث ذلك على هذه الأرض، التي هي كذرّة من الغبار بالنسبة إلى هذا الكون الشاسع، هذا الخضم الهائل من النيران اللاهبة، والانفجارات النووية اللانهائية التي لا تفتر؟

جميعنا يعلم أن كل ما نراه في السماء من نجوم ـ عدا القليل جداً من الكواكب ـ إنما هو شموس كشمسنا هذه، أو أعظم منها مراراً عديدة. غير أنّ هذه النجوم لا نراها مضيئة كإضاءة شمسنا لأنها بعيدة جداً عنّا. وبعضها يبعد عنّا بُعداً خرافياً يبلغ ملايين السنين الضوئية. . !

ونحن نعلم أن شمسنا جسم شديد الحرارة بسبب الانفجارات النووية الهائلة التي تحدث فيها باستمرار، إذ تبلغ درجة حرارة نواتها (١٥) مليون درجة مئوية. . . ولما كانت النجوم شموساً، فإنها أيضاً شديدة الحرارة بسبب الانفجارات النووية الهائلة التي تحدث فيها باستمرار.

فالكون كله متفجّر، والكون كله شديد ارتفاع درجات الحرارة، هائل الإشعاع النووي، فكيف يمكن أن توجد في بعض زواياه أماكن مثل الأرض تنعم

باعتدال الجو وازدهار الحياة فيها؟

أليست معجزة وجود مثل هذه الأماكن الباردة في هذا الخضمّ الناري الجهنميّ الهائل، وبقاؤها باردة ملايين السنين دون أن تصيبها الانفجارات النووية الهائلة بأدنى أذى؟ بل إن هذه النجوم، مصدر الانفجارات، تبدو لنا منظراً بهيجاً وزينة: ﴿ولَقَدْ زَيَّنّا السَّماءَ الدُنيا بِمَصابيحَ﴾ [المُلك: ٥].

أليس أغرب من ذلك أيضاً أن تكون جهنم أخرى قريبة جداً من سطحها، هي باطنها الملتهب الذي نشعر أحياناً ببعض زمجراته اللاهبة. حينما يحدث زلزال في منطقة من مناطق الأرض، أو حينما يصب بركان من البراكين صخوره المنصهرة: ﴿أأمِنْتُم مَن في السَّماءِ أنْ يَخسِفَ بِكمُ الأرضَ فإذا هي تَمُور؟﴾.

ومع ذلك تستمر الحياة مزدهرة على سطح الأرض ملايين السنين، وهي واقعة بين نارين هائلتين: نار من فوقها، هي الشموس العاتية المحيطة بها من كل جانب، ونار من تحتها تكمن في مركزها. ألا يُشبه هذا الموقف تمام الشّبه موقف سفينة ورقيّة، تبقى سالمة ملايين السنين دون أن تغرق في وسط إعصار بحري هائل لا يتوقف؟ فكيف يحدث هذا؟!

لا بدّ أن هناك مَنْ يُلجم هذه القوى الهائلة فيلزمها حدوداً لا تستطيع تجاوزها. إنه الله: ﴿أأمِنتُم مَنْ في السَّماءِ أنْ يَخسِفَ بِكُمُ الأرضَ فإذا هي تَمورُ؟﴾، ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أنْ تَقَعَ عَلَى الأرْضِ إلاَّ بإذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

هذه «بصمة» من «بصمات» يد القدرة الإلٰهية، تشير إلى قوة مالك الملك وسيطرته التامة على ملكه: ﴿تَبارَكَ الّذي بِيَدِهِ المُلْكُ وهُوَ علىٰ كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾. إن هذه السورة الكريمة، سورة الملك، تريد أن تدل الناس على هذه «البصمات» الإلهية المتجلية في هذا الكون، والمطبوعة في كافة ثناياه، التي بثّها الله في كافة مخلوقاته من أحياءٍ وأموات: ﴿الّذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

إنها آثار واحدة، تدل على إله قدير واحد. . .

تطالب السورة الإنسان العاقل المفكر أن ينظر في الكون ثلاث نظرات تأملية، منعماً النظر في أرجائه، باحثاً عن عيوب فيه، عن تفاوت، عن فطور، عن شذوذ. وقد سمّت السورة هذه النظرات الثلاث برجع البصر: ﴿فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطورٍ؟ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كرَّتَيْنِ﴾.

إنه إذا قام بهذه النظرات، فإنَّ بصره سيكلّ من طول قيامه بالبحث والتنقيب، ثم لا يجد أدنى عيب أو خلل في هذا الكون، بل يجد فيه النظام والتدبير والإنسجام والتناسق، لأن يد القدرة الإلٰهية المسيطرة على كل شيء تحفظه من كل عيب.

فما هذه النظرات الثلاث يا ترى؟

لا يستطيع أحد الجزم بمراد الله تعالى من هذه النظرات. إلا أن بعض أجزاء السورة قد توحي بما يمكن أن يلقي ضوءاً عليها. ولقد أمرنا الله تعالى بتدبّر القرآن الكريم، متفحّصين سوره وآياته محاولين فهم الإنسجام والترابط بينها: ﴿أفَلا يَتَدَبَّرونَ القرآنَ؟ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدوا فيه اخْتلافاً كَثيراً﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿كِتابٌ أنْزَلْناهُ إليك مُبارَكٌ لِيَدَّبَروا آياتِهِ وَلِيَتَذكَّرَ أُولوا الألبابِ﴾ [ص: ٢٩].

فإنْ وجدنا ترابطاً وانسجاماً خاصّاً بين معاني قسم من آياته، بحيث لا يخلّ ذلك بقواعد اللغة العربية، ولا يخرج عن المبادىء الإسلامية، كان عملنا هذا، إن شاء الله، طاعة لأمر الله بتدبّر كتابه.

تُشير الآية الثانية من السورة: ﴿الّذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ﴾ إلى أن الله خلق «الموت» قبل «الحياة»، وعالم «الأموات» أي الجمادات، قبل عالم «الأحياء». ومن المعلوم أن الله بدأ خلق الأحياء من الجمادات، وهي التراب

والماء. وكل حي من هذه الأحياء يكمل في حياته «دورة» تبدأ بالطفولة. ثم تأتي مرحلة الشباب فالشيخوخة فالموت، أي العودة إلى الحالة الجمادية الأولى، إلى التراب.

وهنا يمكننا أن نتعرف إلى النظرات الثلاث بالصورة التالية:

أ ـ النظرة الأولى نوجهها إلى الجمادات وحدها متبيّنين ما فيها من انسجام وتماثل يدل على بصمة يد القدرة الإلهية فيها.

ب ـ النظرة الثانية نوجهها إلى الأحياء وحدها.

جـ ـ النظرة الثالثة نوجّهها إلى الترابط بين عالمي الجمادات والأحياء والإنسجام والتفاعل بينهما.

وقد أشارت السورة إلى صفات عامة تتصف بها المخلوقات. فمن هذه الصفات:

(١) السُّباعية: أي تكوّن الشيء من سبعة أقسام.

(٢) الطبقية: أي تكوّن الشيء من طبقات.

وهاتان الصفتان وردتا في قوله تعالى: ﴿الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾.

(٣) الحركة: وهي قسمان:

(أ) حركة دائرية، وهي حركة يسير فيها المتحرك حول شكل دائري. كمسافر يبدأ السير من القاهرة مثلاً، ويتجه غرباً دون توقف حول الأرض، فهو يعود إلى حيث بدأ، إلى القاهرة، بعد أن يكون قد دار دورة حول الكرة الأرضية. وقد أشارت السورة إلى الحركة الدائرية بحركة النجوم والشمس الظاهرية بقولها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنّا السَّماءَ الدُنيا بِمَصابيحَ﴾، والمصابيح هي الأجرام السماوية المضيئة الدائرة.

(ب) حركة دورية: وهي حركة يعود فيها المتحرك أيضاً إلى المكان الذي بدأ منه حركته، وإن كان لا يسير حول شكل دائري، كما لو قذفت بحجر من مكان ما في الأرض إلى الأعلى، فإن الحجر يعلو متباطئاً حتى يقف، ثم يعود أدراجه، مدفوعاً بقوة الجاذبية إلى الأرض، دون أن يرسم دائرة في حركته هذه وإلى ذلك أشارت السورة بقولها: ﴿أَأَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أنْ يُرْسِلَ عليكُم حاصِباً﴾. والحاصب هو الريح التي تحمل الحجارة، فتنقلها من الأرض إلى الأعلى ثم تهوي بها إلى الأرض.

وتدخل في هذا النوع الحركات الاهتزازية، لأن اهتزاز وتر مشدود مثلاً، يعني أنه يبدأ حركته من اليمين إلى اليسار ثم يعود إلى اليمين، إلى حيث بدأ، ثم تتكرر هذه الدورة الاهتزازية، ويشبه ذلك أيضاً حركة الأمواج عند شاطىء البحر، إذ تنشأ الموجة عاليةً على بُعد عدد من الأمتار من الشاطىء، وتتدحرج نحو الشاطىء، متناقصاً حجمها شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى عند اليابسة. ثم تبدأ موجة أخرى من جديد مكرّرة ما فعلته الموجة الأولى... وهكذا.

لننظر الآن إلى مخلوقات الله متبيّنين انتشار هذه الصفات الثلاث فيها، مما يدل على أن خالقها واحد، إذ جعلها كلها على نظام واحد، أدّى بها إلى أن تعمل جميعها في تناسق وانسجام يحفظ بقاء هذا الكون بحيث يؤدّي كل جزء من أجزائه دوره الذي خلق من أجله.

ولنبدأ بالنظرة الأولى: النظرة إلى الجمادات:

أ ـ النظرة الأولى: إلى الجمادات:

إن الجمادات تتكوّن أساساً من المادة، التي تصدر عنها الأضواء المختلفة والأصوات المختلفة.

(١) العالم الأصغر: الذرّة: سباعية وطبقية وحركة دورية:

إن المادة تتكون من ذرّات، والذرة، كما هو معلوم، تتكوّن من نواة موجبة الشحنة الكهربائية، يدور حولها عدد من الالكترونات السالبة الشحنة، وتتوزع هذه الالكترونات على عدد من «الطبقات» أو «المدارات». ويختلف عدد هذه الالكترونات بحسب نوع المادة التي تنتمي إليها الذرة. إلا أن هذه الالكترونات لا يمكن أن تتعدى «سبع» طبقات أو مدارات تحيط بالنواة. ولأضرب أمثلة على ذلك:

إن ذرة عنصر الهيدْروجين لها الكترون واحد فقط يدور في الطبقة الأولى المحيطة بالنواة.

وأما عنصر الحديد ففي ذرته ستة وعشرون الكتروناً تتوزع على أربع «طبقات» تدور.

وأما عنصر الاورانيوم، فلذرّته اثنان وتسعون الكتروناً موزعة على الطبقات السبع المحيطة بالنواة.

وكذلك، فإن النواة، التي تتوسط الذرة، تدور حول نفسها، وهي تحوي عدداً من الجسيمات المتناهية في الصغر تسمى «النوكليونات»، يفترض أنها تتوزع في «طبقات» أو مدارات، وهي بذلك تشبه الطبقات التي تتوزع عليها الالكترونات.

فهنا نجد في تكوين الذرة الصفات الأساسية، وهي: السباعية (إذ أن عدداً الطبقات الالكترونية سبع)، والطبقية (إذ إن الالكترونات والنوكليونات تدور في طبقات بعضها فوق بعض)، والحركة الدائرية التي تقوم بها الالكترونات حول النواة، والنواة حول نفسها.

(٢) العالم الأوسط: المجموعة الشمسية:

وأما في عالم المجموعة الشمسية (المركب أصلاً من ذرات متراكمة هائلة العـدد)، فنجـد تركيباً مشابهاً لتركيب الذرة. فكل مجموعة شمسية تتألف من شمس في الـوسط تدور حول نفسهـا (كما تفعل النواة في الذرة). وحول هذه الشمس تدور كواكب متعددة في مدارات أو «طبقات» أو «أفلاك» بعضها فوق بعض. وفي حالـة مجمـوعتنا الشمسية يبلغ عدد هذه الكواكب تسعة من بينها أرضننا هذه. فهنا أيضاً نجد صفتي: الطبقية، والحركة الدورية الدائرية.

(٣) العالم الأكبر: عالم المجرّات:

في عالم المجـرّة الأكبر نجد أيضاً أن المجموعات الشمسية تدور حول مركز المجرة. فمجموعتنا الشمسية تتم دورة واحدة حول مركز المجرة في مدة (٢٥٠) مليون سنة.

إنه نفس النظام، نفس بصمة يد القدرة الإلهية، يسري في العوالم كلها: الأصغر والأوسط والأكبر.

(٤) الأضواء السبعة:

والآن نرجع البصر في ظاهرة مادية بالغة الأهمية، وهي ظاهرة «الضوء». فنرى أن الضوء المرئيّ ينقسم إلى «سبعة» أضواء أو ألوان هي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، وهي تنتظم في «طبقات» بعضها فوق بعض، كما نراها في قوس قزح الذي يظهر أحياناً في فصل الشتاء.

ومن المعلوم أيضاً أن الضوء حركة اهتزازية موجية، إذ ينتقل في الفضاء بشكل موجات متساوية تماماً، إحداها تكرار للأخرى، فهي تتحرك حركة دورية.

ففي الضوء أيضاً نجد صفات: السباعية والطبقية والحركة الدورية.

وقد أشارت السورة إلى الضوء بقولها: ﴿ولقد زينّا السَّماء الدنيا بمصابيح﴾، والمصابيح تصدر الضوء.

(٥) الأصوات السبعة:

إن الأصوات الموسيقية التي ترتاح لتسلسلها الأذن البشرية هي سبعة أصوات معروفة. وهذه الأصوات السبعة تتكرر في «مدروجات» أو «طبقات» صوتية بعضها أعلى من بعض، فيقال مثلاً إن صوت فلان من «طبقة» صوتية عالية أو منخفضة.

ومن المعلوم أيضاً أن الصوت حركة اهتزازية موجية تنتقل في الهواء، فهو حركة دورية.

ففي الصوت إذن، نجد صفات: السباعية والطبقية والحركة الدورية.

وقد أشارت السورة إلى الصوت بقولها: ﴿وأسرّوا قولَكم أو اجهروا به﴾، فالقول صوت.

(٦) السماوات السبع:

لقد ذكر الله أن السماوات سبع ﴿الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾ وهنا نجد أيضاً صفتي السباعية والطبقية.

(٧) جهنّم سبع طبقات:

قال تعالى: ﴿وإنَّ جَهَنَمَ لموْعِدُهُم أَجْمعينَ. لها سَبْعة أبوابٍ، لِكُلِّ بابٍ مِنْهُم جُزْءٌ مَقْسومٌ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤] ومن المعلوم أن جهنم درجات أو «طبقات»، كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إنَّ المُنافِقينَ في الدَرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وقد أشارت سورة الملك إلى جهنم بقولها: ﴿ولِلَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصيرُ﴾.

(٨) الأرض سبع طبقات:

قال تعالى: ﴿الله الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ، وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالأرض سبع طبقات مثل السماوات. فهنا نجد أيضاً السباعية والطبقية. ونجد أيضاً الحركة الدورية لأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس. وقد أشارت السورة إلى الأرض بقولها: ﴿هُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلولاً﴾، ﴿هُوَ الّذي ذَرَأَكُم في الأرضِ وإليهِ تُحشَرونَ﴾.

(٩) الطاقة: سبعة أشكال:

إن للطاقة (القدرة) أشكالاً لا يمكن تحويل أحدها إلى الآخر، ويمكن حصرها في سبعة أشكال هي:

أ ـ الطاقة الضوئية، كما في الأشعة المرئية وغير المرئية.

ب ـ الطاقة الكهربائية المغناطيسية.

جـ ـ الطاقة الكيماوية التي يمكن تحويلها إلى الشكل الحراري أو الكهربائي بتفاعل موادّ معينة.

د ـ الطاقة الحركية (الميكانيكية).

هـ الطاقة الحرارية.

و ـ الطاقة النووية.

ز ـ المادة شكل من أشكال الطاقة يمكن تحويله إلى أشكال أخرى من الطاقة بحسب معادلة اينشتاين الشهيرة:

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الصوت.

وهكذا نجد ـ بعد أن قمنا بهذه النظرة إلى الجمادات ـ أن الكون المادي

بأسره خاضع لصفات محددة تسري فيه، هي السباعية والطبقية والحركة الدورية.

ب ـ النظرة الثانية إلى الأحياء:

لنقم الآن بجولة ثانية إلى عالم الأحياء متبيّنين فيه التناسق والإنسجام، متفحصين بصمات يد القدرة الإلهية فيه:

١ ـ **الخلية طبقات**: كما أن عالم الجمادات يتألف من وحدة أساسية تتكون منها جميع المواد وهي الذرة، كذلك فإن لعالم الأحياء وحدة أساسية تتألف منها جميع الأجسام والكائنات الحية، وهي الخلية.

والخلية شديدة الشبة بالذرة، إذ تتوسطها «النواة» التي تحيط بها طبقات من أنسجة مختلفة. وأبسط مثال لذلك وأوضحه هو البيضة العادية، فهي خلية واحدة كبيرة. فجنين الطير يقع في الوسط، يحيط به الصفار، فطبقة من البياض، فطبقة من القشرة الرقيقة، فطبقة من القشرة القاسية.

٢ ـ **الثمار طبقات**: إن الثمار المعروفة كثمرة المشمش أو التمر أو الخوخ، تتألف من البذرة في الوسط، تحيط بها القشرة القاسية، فطبقة طرية من مواد سكرية حمضية، وأخيراً طبقة القشرة الرقيقة.

٣ ـ **في أجسام الأحياء طبقات وحركات دورية**: فجسم الإنسان مثلاً يتألف من طبقة الشعر الخارجية، تليها طبقة الجلد، فطبقة العضلات، فطبقة العظام، وبعض هذه الطبقات كالجلد والعظام ينقسم إلى طبقات فرعية. كما أن في الجسم الحركات الدورية التالية:

أ ـ الجهاز الدوراني للدم، وفيه يقوم القلب بدفع الدم إلى جميع أجزاء الجسم حاملاً الغذاء لكل عضو من أعضاء الجسم وإلى الرئتين لطرح غاز ثاني أوكسيد الكربون الناتج عن احتراق الأغذية. وحركة القلب هذه دورية منتظمة.

ب ـ الجهاز الهضمي يتلقى الطعام عن طريق الفم وينقله إلى المعدة فالأمعاء حيث يهضمه ويرسل النافع منه إلى الدم ليوزعه على الجسم، كما يطرح الفضلات غير النافعة إلى خارج الجسم. وهي حركة دورية تتكرر عند أخذ كل طعام عن طريق الفم.

جـ ـ الجهاز التنفسي له دورة تتألف من شهيق وزفير لأخذ الأوكسجين وطرح غاز ثاني أوكسيد الكربون وهي حركة دورية.

٤ ـ **الظواهر الحسية سبع**: يحسّ الإنسان عن طريق حواسه بسبع ظواهر مادية حسّيّة مختلفة هي:

(١) الضوء، الذي يحس به بعينه.

(٢) الصوت، الذي يحس به بأذنه.

(٣) الطعم، الذي يحس به بلسانه.

(٤) الروائح، التي يحس بها بأنفه.

(٥) الحرارة والبرودة، ويحس بهما بجلده.

(٦) أشكال الأجسام، ويحس بها بجلده أيضاً، فعندما يلمس الإنسان جسماً بيديه (ولو أغمض عينيه) فإنه يستطيع أن يدرك شكله، فيدركه إن كان كروياً أو مكعباً أو مستطيلاً، كما يدرك نعومته وخشونته.

(٧) الألم، الذي يحس به بجلده أيضاً، كما يحدث إذا وخزته إبرة.

٥ ـ **العين طبقات**: تتركب العين من طبقات هي: القرنية والمشيمية والشبكية والخلط الزجاجي.

٦ ـ **الأذن طبقات**: تتركب الأذن من طبقات هي الأذن الخارجية والأذن

الوسطى فالأذن الداخلية. وقد أشارت السورة إلى العين والأذن بقولها: ﴿وَجَعَلَ لكُم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ قَليلاً ما تَشكُرونَ﴾.

٧ ـ **الأحياء تتحرك**: إن الحركة من صفات الأحياء، فالحيوانات تتحرك، وحتى النباتات لا تخلو من الحركة، فهي ترسل حبّات الطلع على جناح الريح أو على أجنحة الحشرات إلى الأزهار الأنثوية ليتم تلقيحها. كما أن بذور النباتات تتحرك بالسقوط إلى الأرض، لتنبت نباتاً جديداً...

وهكذا نرى أن صفات الطبقية والسباعية والحركة الدورية سارية في عالم الأحياء أيضاً.

جـ ـ النظرة الثالثة: إلى الأحياء والجمادات معاً:

لنقم الآن بجولة ثالثة، نرجع فيها بصرنا في العلاقات بين عالمي الأحياء والجمادات، متبيّنين الانسجام والترابط الذي يسري فيما بينها.

إن الأحياء مكونة أساساً من عناصر مادية، تعتمد على المادة العضوية وغير العضوية غذاء لها، لاستمرار حياتها، أي أنها بحاجة إلى «الرزق» المذكور في السورة في قوله تعالى: ﴿هو الذي جعلَ لكُمُ الأرضَ ذَلُولاً، فامشوا في مَناكِبها، وكُلوا من رزقِه وإليه النُشور﴾. ويترتب على ذلك تفاعل بين الجمادات والأحياء، وبين الأحياء أنفسهم بحيث تكون جميع الجمادات والأحياء مسخرة لسيّدها الإنسان.

١ ـ دورة الموت والحياة:

بدأ الكائن الحي من التراب ـ أحد الجمادات ـ كما ذكر الله في كثير من الآيات، ثم ينمو في مراحل أو أطوار، هي الطفولة فالشباب فالكهولة فالهرم، ثم تنتهي دورة حياته بالموت الذي هو عودة إلى التراب الذي بدأت منه حياته.

ثم تتكـرر الـدورة نفسهـا بأبنـاء ذلـك الحي ، الـذين يعيـدون سيـرة أبيهم الأولى ، سواء أكان ذلك في البشر أو في الحيوانات أم النباتات . فهذه حركة دورية أشار الله إليها في السورة بقوله تعالى : ﴿الذي خلقَ الموتَ والحياةَ﴾ .

ومن هذا القبيل دورات حياة الأمم وموتها ، فهي كالأفراد ، لها أطوار الطفولة والشباب والهرم والموت .

٢ ـ دورة الماء في الأرض:

الماء في حدّ ذاته مادة ميتة من الجمادات ، غير أنه المادة الأساسية لحياة الأحياء جميعاً وللماء دورة تتكرر بحيث تستفيد منها الأحياء فائدة عظمى بالتفاعل معـه . وتبـدأ الدورة بإثارة الرياح للسحاب من مياه البحر، ثم حمله إلى سماء الأرض اليابسة ، ثم نزوله مطراً بإرادة الله تعالى بعوامل جوية معينة ، ثم استيداع بعضـه في باطن الأرض ليستفيد منـه الناس والحيوانات والنباتات ، في أوقات انقطاع المطر، وعودة بعضه إلى البحر بعد أن يجري أنهاراً فوق اليابسة . وقد أشارت السورة إلى ذلك بقولها : ﴿قُلْ أرَأيْتُم إنْ أصْبَحَ ماؤكُم غَوْراً فَمَنْ يأْتيكُم بماءٍ مَعينٍ؟﴾ .

٣ ـ دورة غازي ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين :

يحتـاج الإنسـان ـ والحيوانـات والنبـاتات ـ إلى الأوكسجين ليتمكن من تحـويل الأغذية التي في دمه إلى طاقة حرارية وطاقة حركية . والأوكسجين غاز موجـود في الهواء ، يأخذه الإنسان حين يقوم بالشهيق فيمتصّه الدم في الرئتين محـوّلاً الأغذية إلى طاقة ، ومحوّلاً الأوكسجين باتحاده بالكربون إلى غاز ثاني أكسيد الكربون ، الذي يعود فيخرج إلى الهواء بعملية الزفير.

ولـو استمـرت الأحياء في التنفس جميعـاً هكـذا ، لاستهلكت جميع الأوكسجين الذي في الهواء وحوّلته إلى غاز ثاني أوكسيد الكربون ، وحينئذ تموت

جميع الأحياء لفقدان الأوكسجين.

غير أن الله أراد للحيوانات والبشر أن تستمر في حياتها على سطح الأرض، فجعل النباتات تقوم بعملية معاكسة تماماً لما تقوم به الحيوانات والبشر. فالنباتات تمتص غاز ثاني أوكسيد الكربون الذي تطلقه الحيوانات إلى الجو، وتحوّله بعملية التركيب الضوئي إلى غذاء كامل توزعه على أجزائها، وفي نفس الوقت تطلق النباتات غاز الأوكسيجين في عملية التركيب الضوئي نفسها.

وهكذا يدور هذان الغازان بين النباتات والحيوانات دورة تجعل حياتهما مستمرة معاً.

وهذا الانسجام والتكامل بين الحيوانات والنباتات في دورة غازي ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين، يذكرنا بالانسجام والتوازن الرائع الكائن بين أنواع الحيوانات المختلفة. فالأسماك مثلاً تعيش أنواع مختلفة منها في منطقة واحدة من البحر، ويقتات بعضها ببعض، لكنّ هذه الأنواع قويّها وضعيفها تظل باقية لا تنقرض.

وكذلك الحيوانات البرية من وحوش مفترسة وآكلات نباتات متعددة تبقى أنواعها محفوظة، وإن كانت الثانية فريسة للأولى. إنه نظام منسجم لا تفاوت فيه ولا فطور.

وكذلك الحشرات ـ رغم صغر حجومها ـ فإنها تحافظ على بقائها بأمور كثيرة عجيبة، منها كثرة ما تنتجه من البيض الذي يتحول إلى يرقات هائلة العدد. ومنها تشابه ألوانها مع ألوان النباتات التي تلجأ إليها، وبذلك تقوم بنوع من التستّر، فلا يراها أعداؤها ولا فريستها، بل تظنها من أصل غصن النبات الذي تكون عليه.

ومن الانسجام الرائع بين المخلوقات الذي يدل على إبداع إلهي، أن تقوم الحشرات كالنحل والفراش بتلقيح النباتات، إذ تنقل حبات الطلع المذكرة إلى

المياسم المؤنثة من زهرة إلى زهرة.

ومن روائع الإبداع الإلهي ما تقوم به بعض أنواع البكتريا والفطور من القضاء على بقايا الأجسام الميتة التي تخلّفها الحيوانات والنباتات بعد موتها، فتحوّلها إلى غازات وأسمدة تصلح غذاءً للنباتات الحية. وبعض الغازات الناتجة عن ذلك تستعمل للوقود كغاز البوتان تماماً. كما أن بعض هذه البكتريا استخدم أخيراً لتوليد التيار الكهربائي. . ! وبعضها لصنع البلاستيك. . !

٤ ـ دورتا اليقظة والنوم وطلب الرزق:

تدور الأرض ـ وهي من الجمادات ـ حول نفسها، متعرضةً إلى ضوء الشمس، دورة يومية ينتج عنها الليل والنهار، وتتفاعل هذه الدورة مع الأحياء، منتجة دورتين أخريين للأحياء ـ وخاصة الحيوانات والبشر ـ هما دورة اليقظة والنوم، ودورة طلب الرزق. فعندما تشرق الشمس، تستيقظ الأحياء من نومها، وتنتشر في الأرض تبتغي الرزق. ويخرج الناس من بيوتهم صباحاً ليعملوا على كسب رزقهم وإصلاح شؤونهم، ثم يعودون إلى بيوتهم وقد جمعوا الأغذية والنقود وغيرها. وقد أشارت السورة إلى ذلك بقولها: ﴿هُوَ الّذي جَعَلَ لكُم الأرْضَ ذَلُولاً فَآمْشوا في مَنَاكِبِها وكُلوا مِنْ رِزْقِهِ وإليهِ النُّشورُ﴾.

ثم يرخي الليل سدوله، فينامون حتى تكمل الأرض دورتها اليومية وينبلج فجر جديد.

ويشبه ذلك خروج الطيور من أوكارها صباحاً وطيرانها هنا وهناك، لتكسب رزقها ثم عودتها في المساء إلى أوكارها حيث تنام حتى الصباح، وقد أشارت السورة إلى ذلك بقولها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطيرِ فَوْقَهُم صافَّاتٍ﴾.

أما النباتات فتؤثر فيها دورة النهار والليل كما يلي: في النهار تتعرض النباتات لأشعة الشمس، فتقوم بعملية التركيب الضوئي التي سبق ذكرها منتجةً

الأوكسجين. وفي الليل تتوقف هذه العملية ويقوم النبات بعملية التنفس العادي وحدها مستهلكاً الأوكسجين ومطلقاً لغاز الكربون.

وهكذا اجتمعت الأجرام المادية من أرض وشمس، والأحياء من بشر وغيرهم في دورة واحدة، انسجمت فيها الجمادات مع الأحياء محققةً استمرار الحياة.

٥ ـ دورة الفصول الأربعة:

تدور الأرض حول الشمس دورة سنوية تنتج عنها الفصول الأربعة وهي الربيع فالصيف فالخريف فالشتاء. وهذه الدورة السنوية الفصلية تنتج في الأحياء دورات خاصة، منها نموّ النباتات وازدهارها في الربيع بعد تجمد نموها في الشتاء. ومنها دورات التكاثر لدى بعض الحيوانات التي لتكاثرها أوقات معينة في السنة. ومنها الدورات السنوية البشرية المألوفة كالدورات التعليمية التي تبدأ في المدارس في فصل الخريف وتنتهي في فصل الصيف، والدورات الحكومية التنظيمية المختلفة التي تتكرّر كل سنة، كوضع الميزانية للدولة وتسجيل المعلومات الإحصائية.

فكل هذه الأعمال الدورية ارتبطت فيها الأحياء بدورات أجسام مادية هي الشمس والأرض.

٦ ـ الدورات الاصطناعية البشرية:

اكتشف الإنسان منذ القدم قيمة الحركات الدورية في الحياة العملية، فاخترع العجلات لتسيير العربات باحتكاك بسيط فوق الأرض. وأما في العصر الحديث فالآلات الحديثة تزخر بالعجلات والمسننات التي تحقق انجازات رائعة في عالم الصناعة والزراعة والمواصلات. وما التيار الكهربائي المتناوب (المتردد) الذي هو أساس المدنية الحديثة، إلا حركة دورية كما هو معلوم.

الدورية والسباعية في العبادات الإسلامية:

إن الكـون كله ـ كمـا رأينا ـ يزخر بصفات السباعية والطبقية والحركات الدورية. ولما كان المسلم خاضعاً لله تعالى في أمره ونهيه، فهو لا بدّ أن يكون منسجماً مع الكون كلّه، مع قوانين هذا الكون التي أرادها الله له وأجراه عليها بمشيئته. فلننظر كيف انسجمت العبادات الإسلامية مع الكون انسجاماً تاماً في صفات الدورية والسباعية والطبقية:

ففي الحج يطوف المسلم حول الكعبة سبعة أشواط (دورات) ويسعى بين الصفـا والمـروة سبعـة أشـواط أيضاً. وإذا نظرت إلى الطائفين حول الكعبة، وجـدتهم يشكّلون دوائـر متفـاوتـة في الكبـر يحيط بعضها ببعض، فهي أشبه بالـطبقـات، ومثلهم في ذلـك مثـل الكـواكب وهي تدور حول الشمس أو الالكترونات وهي تدور حول النواة في الذرّة.

وأمـا الصـلاة، فهي أولاً، مرتبـطة بدورة الأرض اليومية حول نفسهـا، فمواقيتها كالصبح والظهر مرتبطة بحركة الشمس الظاهرية. وهي ثانياً ـ عند إقامة صلاة الجمـاعة ـ وقوف في صفوف بعضها وراء بعض. فإذا نظرت إلى جميع المسلمين المصلّين في جميع أقطار الأرض وهم مصطفون متجهين نحو الكعبة، وجدتهم في صفوف دائرية مركزها الكعبة مشكّلين دوائر يلي بعضها بعضاً فهم أشبه بالطبقات الدائرية.

وأما الزكاة والصيام اللذان يجبان على المسلم مرة واحدة في السنة فهما يرتبطان بدورة الأرض السنوية فهما دوريان. فتبارك الله مالك الملك القدير على كل شيء، والحمد لله رب العالمين.

□□□□□

آيتان لامعتان . . .

من سورة آل عمران

الأفكار الجديدة في دراستهما

سريان أفكـار: (المُلك، الحركة الدورية، العلو والانخفاض، الدخول والخروج، التناظر) في الآيتين:

أ ـ **المُلك**: العز مُلك ـ الشمس ملكة النهار، والقمر ملك الليل، الروح ملكة الجسم، الدماغ ملك أجسام الأحياء، الرزق مُلك.

ب ـ **الحـركة الدورية**: الليل والنهار ينتجان عن دورة الشمس، المُلك دورة، الموت والحياة دورة، الرزق دورة.

جـ ـ **العلوّ والانخفاض**: الملك علوّ ونزعه انخفاض، النهار علوّ للشمس والليل انخفاض لها، الحياة علو والموت انخفاض.

د ـ **الدخول والخروج**: المُلك دخول لقصر الحكم ثم خروج منه، دخول الليل في النهار، خروج الحي من الميت، دخول الرزق لأجسام الأحياء . . .

آيتان لامعتان . . . من سورة آل عمران

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُوتي المُلكَ مَنْ تَشاءُ وتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ، وتُعزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ، بِيَدِكَ الخيرُ إنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ. تُولِجُ الليلَ في النهارِ وتُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ ، وتُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ وتُخرِجُ الميِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بغيرِ حِسابٍ﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧].

إذا أخذ الإنسان يقرأ سورة آل عمران ، ثم وصل إلى هاتين الآيتين ، فإنه لا شك يشعر بلمعان خاص فيهما ، وتألق يلفت النظر إليهما ، ويميزهما عما قبلهما وما بعدهما. والقرآن كله كلام الله المنير، لكنّ تميّز بعض آياته على بعض أمر وارد. ففي حديث رواه البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني النبي ﷺ، فلم أجبه حتى صليت، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إن كنت أصلي . قال : «ألم يقل الله ﴿استَجيبوا للهِ وللرَّسولِ إذا دَعاكُمْ﴾؟ ثم قال : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟» فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يا رسول الله ، إنك قلت : لأعلمنك أعظم سورة من القـرآن ، قال ﴿الحمـدُ للهِ ربِّ العالمين﴾ ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» . [مشكاة المصابيح رقم ٢١١٨].

كما ورد في حديث آخر رواه مسلم قوله ﷺ : «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله تعالى معك أعظم؟ قلت : ﴿الله لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القَيّومُ﴾ . قال فضرب في صدري وقال : ليهنك العلم يا أبا المنذر!» [مشكاة المصابيح رقم ٢١٢٢].

ومن أسباب تألق هاتين الآيتين الكريمتين ، روعة موضوعهما ، ألا وهو الله جل جلاله ، وعرضهما قدرته تعالى ومشيئته وسريانهما في الكون بأسره ، في البشر خاصة وفي الأحياء عامةً ثم في الجمادات .

وليست الآيتان دعاء نطلب فيه الرحمة والخير من الله، بل هما تعليم لنا كيف نناجي ربنا، الملك العظيم، كيف نعظمه ونمجده، وأين نجد مواطن عظمته وكمال قدرته في خلقه وبديع صنعه، في سيطرته على الملك كلّه والخير كلّه، في تقليبه الليل والنهار، في إحيائه للميت وإماتته للحي.

إنهما عرض رائع لملك الله الحقيقي الذي يتضاءل أمامه ملك الدنيا الزائلة. وهما تذكّران بقصة إبراهيم عليه السلام مع أحد طغاة الملوك: ﴿أَلَم تَرَ إلى الّذي حاجَّ إبراهيمَ في رَبِّهِ أنْ آتاهُ الله المُلكَ؟ إذ قالَ إبراهيمُ: رَبِّيَ الّذي يُحيي ويُميتُ. قال: أنا أُحيي وأُميتُ. قال إبراهيمُ: فإنَّ الله يأْتي بالشَّمسِ من المَشْرِقِ، فأْتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ، فَبُهِتَ الّذي كَفَرَ، والله لا يَهْدي القَومَ الظالِمينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وإذا تأملنا الآيتين، وتدبّرنا معانيهما، وجدنا هذه المعاني متلاحمةً مترابطة، تسري فيهما أفكار واحدة ثابتة، تجعل فيهما انسجاماً غريباً وتماسكاً عجيباً، يبيّن إعجاز الأسلوب الإلهي في الكلام.

ولأشرع في الكشف عن هذه الأفكار المشتركة المختبئة وراء الألفاظ، مستعيناً بالله تعالى.

١ ـ فكرة المُلك:

أ ـ هذه الفكرة واضحة في الآية الأولى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ﴾. فملك الدنيا بيد الله، لا يصبح إنسان ملكاً أو حاكماً على أمة إلا بإذن الله تعالى.

وفكرة المُلك أيضاً واضحة في قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ﴾. فإن من كان عزيزاً في قومه، أو في أسرته، كان كمثل الملك. ولذلك خاطب إخوة يوسف عليه السلام قائلين: ﴿يا أيُّها العَزيزُ﴾ عندما عيّنه ملك مصر

مُشرفاً على خزائن الأرض. وسمّى يوسف ذلك مُلكاً فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَني مِنَ المُلْك﴾ [يوسف: ١٠١]. فالعزّ والملك مقترنان.

ب ـ **المُلك في إيلاج الليل والنهار**: تذكر الآية الثانية أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. وهنا نلاحظ أن لكلٍ من الليل والنهار ملكاً مسيطراً عليه. فالشمس هي مَلِك النهار، تشرق في أوله، وتعلو فتصبح في قمة سطوعها وجلالتها عند الظهر، ثم تأخذ في الانخفاض حتى تختفي عند الغروب، فينزع الله ملكها، ويظهر مُلك جديد في الليل، فملك الليل هو القمر ورعيته النجوم، ولا يزال هذا الملك مسيطراً على السماء حتى يعود ملك النهار ـ الشمس ـ إلى الظهور عزيزاً قوياً، فينزع الله مُلك القمر ويعود ذليلاً بعد عزة. وهكذا...

وقد ذكر أحد الشعراء هذا المعنى مشبّهاً الملك الذي يمدحه بالشمس، وغيره من الملوك بالكواكب فقال:

كأنَّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

جـ ـ **المُلك في الإحياء والإماتة**: تذكر الآية أيضاً أن الله تعالى يخرج الحي من الميت والميت من الحي. وهنا نلاحظ سريان فكرة «المُلك» أيضاً. فكل مخلوق حي أشبه بأمة كاملة لها ملك يحكمها. خذ الإنسان مثلاً: فمن المعلوم أن دماغه هو الذي يدير شؤون جسمه جميعاً، فهو الذي يتلقى جميع المعلومات عن العالم الخارجي عن طريق الحواس من بصر وسمع ولمس وغيرها، وبحسب تلك المعلومات يصدر الأوامر إلى أعضاء الجسم عن طريق أعصاب الحركة فتتحرك طبقاً لأوامره محققة المصلحة العامة للجسم.

فالدماغ «مَلِك» قد آتاه الله مُلك الجسم، وقد ينزع الله منه الملك بكامله، وذلك عندما يموت الإنسان، فيفقد كل حس وكل حركة.

وإذا انتقلنا إلى أصغر وحدة حية، وهي الخلية، التي تتركب منها جميع الأحياء من حيوانات ونباتات، وجدناها تتركب من نواة في الوسط تحيط بها مواد أخرى. والنواة بمثابة «مَلك» يحكم الخلية كلها، ويوجه حركاتها، ويتحكم في عملياتها الكيماوية المعقّدة. وعندما تموت الخلية ينزع الله هذا المُلك.

د ـ **المُلك في الرزق**: قال تعالى: ﴿وترزقُ مَن تشاءُ بغيرِ حساب﴾. ومن آتاه الله الرزق، فقد آتاه نوعاً من «المُلك»، فهو يتصرف في الرزق كما يشاء. ولقد سمّى الله الرزق الذي يؤتيه أهل الجنة «مُلكاً»، فقال: ﴿وإذا رأَيْتَ ثَمَّ رأيْتَ نَعيماً وَمُلكاً كبيراً. عالِيَهُم ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ، وحُلّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ وسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهوراً﴾ [الإنسان: ٢٠، ٢١].

٢ ـ فكرة الحركة الدورية:

إن الحركة الدورية تعني الحركة التي يبدأ فيها المتحرك حركته من أحد الأماكن، فيبتعد عنه، ثم يعود إلى حيث بدأ.

أ ـ **الحركة الدورية في «المُلك»**: قبل أن يصبح الإنسان ملكاً يكون من عامة الناس، وهذا هو مكان الانطلاق، ثم يعلو فيصبح ملكاً. فإذا أراد الله نزع ملكه منه بالموت أو غيره أعاده من حيث أتى: إلى التراب أو إلى عامة الناس. وليس المقصود بالملك هنا المعنى الحرفي للكلمة، أي الملك المتوّج الذي يخلف أباه، بل المقصود به هنا من يملك أمر الناس، سواءً أكان ملكاً متوّجاً يرث الملك وراثةً، أم كان خليفةً، أم رئيس جمهورية يختاره الناس.

فرئيس الجمهورية مثلاً يكون من عامة الناس، ثم ينتخبه الناس فيصبح رئيساً للجمهورية، أي ملكاً بالمعنى الواسع للكلمة، وعندما تنتهي فترة رئاسته، يعود إلى صفوف عامة الناس، إلى حيث كان، ثم تبدأ دورة رئاسية جديدة لإنسان آخر من عامة الناس فيعلوا إلى سدّة الرئاسة، وهكذا.

ب ـ **الحركة الدورية في الليل والنهار**: من المعلوم أن الليل والنهار ينتجان من «دورة» الأرض حول نفسها تجاه أشعة الشمس. فهي تقوم بحركة «دورية» بل «دائرية» أيضاً. ونحن نلاحظ هذه الحركة الدائرية عن طريق الحركة الظاهرية للشمس التي تشرق من جهة الشرق صباحاً ثم تعلو دائرةً حتى تتوسط السماء ظهراً، ثم تنحدر حتى تغيب وراء الأفق.

وهناك «دورة» أخرى للأرض حول الشمس، وهي الدورة السنوية التي تنتج عنها الفصول الأربعة: الربيع فالصيف فالخريف فالشتاء. وينتج عن هذه الدورة اختلاف طول كل من الليل والنهار، فالنهار في أول أيام الربيع مثلاً يكون مساوياً لليل في طوله، فيكون طول كل منهما اثنتي عشرة ساعة. ثم يأخذ النهار في سلب جزء من حصة الليل تدريجاً حتى يبدأ فصل الصيف، وحينئذ يبلغ النهار أقصى طول له في السنة. ثم يبدأ الليل في استرداد ما سلبه النهار تدريجاً حتى يتساويا في أول الخريف، ثم يأخذ الليل في سلب النهار جزءاً من حصته الأصلية (الاثنتي عشرة ساعة) حتى أول الشتاء، حيث يبدأ النهار في استرداد ما سلبه منه الليل، حتى يعودا فيتساويان في أول الربيع... وهكذا.

وقد سمّت الآية الكريمة هذه الظاهرة «إيلاج» الليل في النهار. أي أن الليل «يدخل» بأمر الله في بعض الزمن الذي كان مخصصاً للنهار، ثم تنعكس الآية فيدخل النهار في بعض الزمن الذي كان مخصصاً لليل. فهذه حركة دورية ظاهرة يعود فيها وضع النهار من حيث بدأ.

جـ ـ **الحركة الدورية في الإحياء والإماتة**: ﴿تُخرِجُ الحيَّ من المَيِّتِ وتُخرِجُ المَيِّتَ من الحيِّ﴾، بدأ الله خلق البشر من تراب، ثم من نطفة تنمو في بطن الأم لتأخذ أطواراً عديدة من علقة ومضغة وغيرها ثم يدخل بعد الولادة في أطوار الطفولة فالشباب فالكهولة فالهرم ثم يموت فيعود إلى التراب من حيث بدأ.

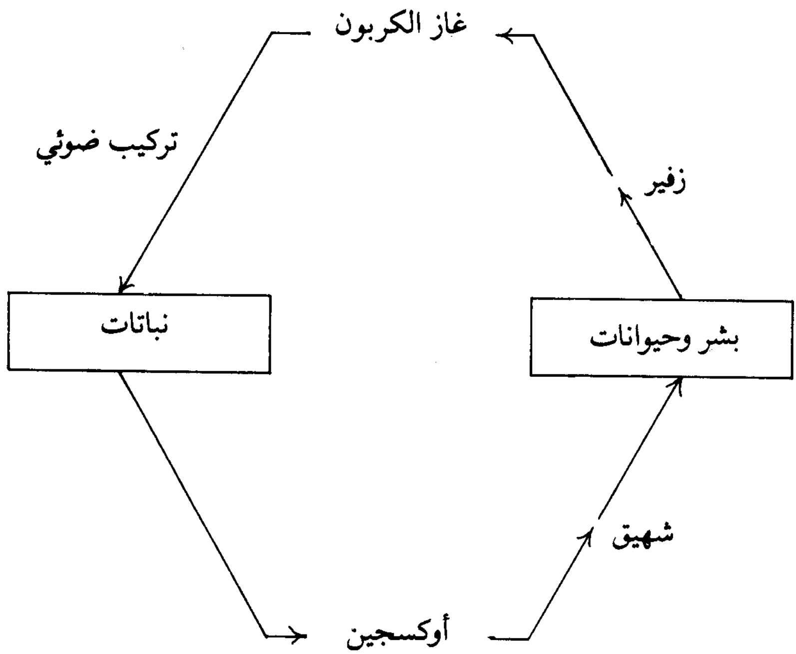
وهذه هي دورة الحياة والموت التي تتكرر في ولد الإنسان الأول. كما أن جثة الميت تتحلل إلى تراب يعود فيدخل في تركيب جسم حي جديد نباتي أو حيواني.

د ـ **الحركة الدورية في الرزق**: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بغَيْرِ حِسابٍ﴾، إن رزق البشر يتألف من النباتات والحيوانات والجمادات. فأما النباتات والحيوانات، فهي كالإنسان أحياء يبدأ الله خلقها من تراب، ثم تنمو وتشتد ثم تضعف وتهرم، فتموت، فلها نفس الدورة التي ذكرتها سابقاً.

وأما الجمادات التي تدخل في «رزق» البشر، فأبرزها مادتان: الماء وغاز الأوكسجين.

فالماء له دورة معروفة. إذ إن مصدره الأصلي البحر، الذي يتبخّر ماؤه بفعل حرارة الشمس وبفعل إثارة الرياح، كما قال تعالى: ﴿والله الّذي أرسلَ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً فَسُقْنَاهُ إلى بلدٍ مَيّتٍ فأَحيَيْنا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوتِها كذلكِ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. ثم تسوق الرياح السحاب إلى جو اليابسة، حيث ينزل بمشيئة الله مطراً يرزق الله به الأحياء جميعاً. والمطر هو من الرزق السماوي الذي قال الله فيه ﴿وفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وما تُوعَدونَ﴾. ويجري بعضه أنهاراً، تعود، فيصب ماؤها في البحر، إلى حيث بدأ.

وأما غاز الأوكسجين، الذي هو أيضاً من رزقنا الذي في السماء، فله دورة رائعة في الطبيعة، قد دبّرها الله تعالى تدبيراً محكماً، ليحفظ به حياة الناس والحيوانات والنباتات. وتفصيل هذه الدورة كما يلي:



يأخـذ الناس غاز الأوكسجين من الهواء بعملية الشهيق، فيدخل رئاتهم حيث يتحـد الأوكسجين بالأغـذية المـوجـودة في الدم، مولداً الحرارة والطاقة اللازمتين لأعمال الإنسان الحيوية، ومتحولاً إلى غاز ثاني أوكسيد الكربون، الذي يلفظه الجسم إلى الجو بعملية الزفير، ولو استمرت هذه العملية ،ون تدبير إلهي وعناية إلهية خاصة، لتحول كل أوكسجين الجو إلى غاز ثاني أوكسيد الكربون، ولنفذ الأوكسجين من الهواء، وحينئذ يموت جميع الناس والحيوانات، لأن غاز الأوكجسين ضروري جداً للحياة.

غير أن التدبير الإلهي الحكيم جعل النباتات تحتاج إلى غاز ثاني أوكيسد الكربون الذي يلفظه الإنسان والحيوان، لتصنع منه غذاءها الضروري لحياتها. فهي تصنع ـ بقدرة الله ـ من غاز ثاني أوكسيد الكربون بمساعدة أشعة الشمس، وما يردها من محاليل الأملاح من جذورها، تصنع من كل ذلك غذاءها المركّب أساساً من

مواد نشوية سكرية، وذلك كالأغذية التي تتحفنا بها الفواكه والحبوب. وهذه العملية تسمّى «التركيب الضوئي» (التمثيل الكلوروفيلي)، التي يشكّل اليخضور (الصبغة الخضراء التي في ورق النبات) عاملاً أساسياً من عوامل إتمامها.

ومن روائع نتائج هذه العملية النباتية أنها تطلق في الجو غاز الأوكسجين، فهي بذلك تحوّل غاز ثاني أوكسيد الكربون الضار إلى غاز الأوكسجين النافع، إلى جانب أنها تنتج أيضاً «رزقاً» للإنسان من فواكه وخضروات يتغذّى بها الإنسان (والحيوان)، ويصنع منها ثياباً، كما يصنع من أخشابها مساكن وأثاثاً وغيرها.

٣ ـ فكرة العلوّ والانخفاض:

تسري أيضاً فكرة العلوّ والانخفاض في الآيتين الكريمتين.

أ ـ العلو والانخفاض في المُلك: بيّنتُ سابقاً أن المَلك يكون من عامة الناس، فإذا شاء الله أن يؤتيه الملك رفعه إلى عرش ملكه أو سدة الرئاسة. ثم إذا شاء أن ينزع ملكه أهبطه إلى مستوى عامة الناس، أو إلى التراب بالموت. أي أن إيتاء الله الملك ونزعه من إنسان يعني إعلاءه بعد انخفاض ثم خفضه بعد علو.

ب ـ العلو والانخفاض في الليل والنهار: يحدث الليل والنهار ـ كما رأينا ـ من دورة الأرض حول نفسها تجاه أشعة الشمس، وتحدث من ذلك حركة ظاهرية للشمس هي التي تعنينا الآن. وفيها نجد ظاهرة العلو والانخفاض. فالشمس تكون في الصباح منخفضة عند الأفق، ثم تعلو حتى تتوسط السماء ظهراً، ثم تأخذ في الانخفاض حتى تغيب وراء الأفق. وهكذا تعلو الشمس بعد انخفاض ثم تنخفض بعد علو. وقل مثل ذلك عن الحركة الظاهرية للنجوم ليلاً.

جـ ـ العلو والانخفاض في الإحياء والإماتة: يبدأ إحياء الحي من التراب الميت المتوضع في الأرض المنخفضة، ثم يأخذ الحي في النمو، في الارتفاع، حتى يصل إلى أقصى حدّ مقدّر له، ثم يأخذ في الضعف وفي انحطاط القوى،

حتى يموت، فيرجع إلى الانخفاض إلى تراب الأرض.

ففي الإحياء والإماتة علو بعد انخفاض ثم انخفاض بعد علو.

والمثال على ذلك إحياء النبات، إذ يوضع النبات بشكل بذرة منخفضاً في باطن الأرض، ثم تتفتح البذرة، ويخرج منها عِرق يعلو في الهواء حتى تصبح النبتة شجرة باسقة، ثم إذا ماتت هوت ساقطة إلى الأرض.

د ـ العلو والانخفاض في الرزق: يتناول الكائن الحي رزقه أي غذاءه، فيدخله إلى جسمه حيث يهضمه الجهاز الهضمي، ثم يدور به الدم في سائر أنحاء الجسم صعوداً وهبوطاً ليغذي به سائر أعضاء الجسم، فهذا علو وانخفاض للرزق.

وفي حالة النبات، يمتص الجذر المحاليل الغذائية من التربة، ثم يصعد هذا «الرزق» إلى الأعلى، إلى الأوراق التي تدخله في عملية التمثيل الكلوروفيلي فيتحول إلى غذاء كامل يسري في جميع أجزاء النبات عاليه وسافله ليغذي جميع أعضائه. فهذا أيضاً علو وانخفاض.

٤ ـ فكرة الدخول والخروج:

تسري أيضاً فكرتا الدخول والخروج في معاني الآيتين جميعاً:

أ ـ الدخول والخروج في المُلك: عندما يصبح الرجل ملكاً أو رئيس جمهورية، فإنه يدخل القصر الملكي أو القصر الجمهوري، وبذلك يدخل في تجربة هائلة ومسؤولية عظيمة، ويدخل شعبه في إطار سيطرته، وقد يدخل في سجل التاريخ وسجل الخالدين. وعندما ينتهي ملكه أو تنتهي فترة رئاسته، فإنه يخرج من القَصْر، ويخرج من التجربة الضخمة، ويخرج شعبه من إطار سيطرته. وهكذا تتجلى فكرتا الدخول والخروج في «المُلك».

ب ـ **الدخول والخروج في الليل والنهار**: صرحت الآية بدخول الليل في النهـار ودخول النهار في الليل، فإنها قالت: ﴿تُولجُ الليلَ في النهارِ﴾، وتُولج معناها «تُدخل».

جـ ـ **الـدخول والخروج في الإحياء والإماتة**: صرحت الآية أيضاً بلفظ الإدخال والإخراج في حادثتي الإحياء والإماتة فقالت: ﴿وتُخرجُ الحيَّ من الميت وتُخرج الميِّتَ من الحيّ﴾. فالحي يخرج من الحالة الترابية الميتة إلى الحالة العضوية الحية، التي يخرج منها إلى الحالة الترابية الميتة عندما يموت.

د ـ **الدخول والخروج في الرزق**: لا بدّ للحي لكي يستفيد من رزقهِ، من أن يدُخله جسمه، وهذا هو الدخول. ثم إذا هضمه وانتفع به فإنه يخرج فضلات الرزق من جسمه، ومن بينها غاز ثاني أوكسيد الكربون الذي ينتج من إتحاد الغذاء بالأوكسجين. وما الجهاز الهضمي إلاّ جهاز إدخال وإخراج.

٥ ـ التناظر (ذكر المتضادين) في الآيتين:

يسري في الآيتين ذكر أزواج من المعاني المتضادة، وهي:

أ ـ ﴿توتي المُلْكَ﴾، وضدها: ﴿تَنْزِعُ المُلْكَ﴾.

ب ـ ﴿تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ﴾، وضدها: ﴿تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ﴾.

جـ ـ ﴿تولجُ اللّيْلَ في النَّهارِ﴾، وضدها: ﴿تولجُ النَّهارَ في اللّيلِ﴾.

د ـ ﴿تُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميّتِ﴾، وضدها: ﴿تُخرجُ الميّتَ مِنَ الحَيِّ﴾.

وذلك يضفي على المعاني السابقة كلها إيقاعاً مطرباً.

٦ ـ صفات الله الحسنى:

عرضت الآيتان أحداثاً كونية ضخمة متكررة، فالكون كله متحرك بين ليل

ونهار وإحياء وإماتة، بين صعود ملك ونزوله، بين عز قوم وذلهم، لكن الكون كله متوازن: الليل هنا يوازنه النهار هناك، والحياة هنا يوازنها الموت هناك.. وهكذا...

تشرق الشمس وتغرب، وتأتي سنون وتذهب دهور، وتختفي أجيال وتظهر أجيال، وتندثر أمم وتظهر شعوب، ويعلو ملوك على عروش، ويهبط حُكّام عن سدة الحكم، ويشعر أناس بالعزّ، ويشعر آخرون بالمهانة والذل، ويفرح أناس بالنصر ويتذوق آخرون مرارة الهزيمة.

والحياة مسرح كبير دوّار، يبرز فيه كل فرد وكل جماعة، فيلعبون أدوارهم المقررة لهم. ثم تنقضي أدوارهم، لكن المسرح لا يفرغ من لاعبي الأدوار أبداً. بل يحل لاعبون محل لاعبين.

ولكن من أين تبدأ السلسلة حلقاتها؟

بتعاقب الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها تتهيأ على الأرض ظروف مثالية للحياة، من درجة حرارة مناسبة ورطوبة مناسبة ورياح مناسبة، على أرض تحوي تربة مناسبة، وجوّاً هوائياً مناسباً، فيه نسبة خاصة من غاز الأوكسجين وغاز الآزوت وغاز ثاني أوكسيد الكربون وغيرها. فتنشأ الحياة، هذه الظاهرة الفريدة المدهشة، التي حار العلماء في معرفة سرّ نشوئها واستمرارها، وسلّم العقلاء منهم بأنها من صنع خالق مدبّر حكيم عليم.

وتستمر الأحياء يخلف بعضها بعضاً، إحياء فإماتة فإحياء، وتستمر أرزاقها في التدفق عليها لا تنقطع أبداً، في توازن عجيب بين الرزق والمرزوق، ويستمر الصراع على هذه الأرزاق بين الأحياء المتنافسين، ويشاء الله أن يغلب الإنسان سائر الأنواع، فيؤتيه الله الملك على الحيوان والنبات، لخواص متميزة فيه.

ثم ينشأ صراع بين البشر أنفسهم على الأرزاق، فيحتاجون إلى ملك أو

حاكم يُخضع الجميع لسلطته ليعطي كل ذي حق حقه. فيؤتي الله الملك من شاء من عبــاده. ويتنـافس الملوك ويلجـؤ ون إلى الحـروب التي تخـوضهـا الأمم مع ملوكها، فينتصر قوم وينهزم قوم، وتعزّ أمة وتذل أمة.

هذا هو ترتيب الأحـداث الكـونية الكبرى التي وردت في الآيتين، كما تحدث في واقع الحياة. وهو ترتيب دقيق يدل على تدبير ومشيئة إلهية، كما يدل على القدرة الإلهية العظيمة الهائلة. وقد ذكرت الآيتان المشيئة والقدرة الإلهيتين. أما المشيئة فقد كررتها الآيتان خمس مرات في لفظتي ﴿مَنْ تشاء﴾. وأما القدرة ففي قوله تعالى: ﴿إنَّك على كُلِّ شَيءٍ قدير﴾.

أ ـ المشيئة الإلهية: هاتان الآيتان ترجعان كل الظواهر الكونية إلى المشيئة الإلهية، ولا مجال لتصوّر حدوثها بطريق الصدفة المحضة التي تعشش في أوهام بعض الناس، والتي أثبت العلم الحديث بالبرهان الرياضي الشامخ استحالتها.

إن نشوء جزيء واحد من الأحماض الأمينية(وهي المركبات الأساسية الـلازمـة لجسم الخلية الحية)، أمـر لا يمكن أن يحدث بالصدفة، كما يزعم البعض الـذين يظنـون أن ظروف الأرض من ملايين السنين بما فيها من أبخرة وغازات بركانية ودرجة حرارة مناسبة، كانت تسمح لنشوء أحد الأحماض الآمينية بطريق الصدفة، وأن نشوء هذا الحمض كان يسمح بنشوء خلية حية، هكذا دون تدبير مدبّر ودون إرادة مريد. . . بزعمهم.

وقد حسب أحد علماء الرياضيات أنه ـ بحسب قوانين الاحتمالات ـ إذا كان للصدفة المحضة أن تنتج جزئياً واحداً من حمض أميني من المواد الكونية، فإن ذلك يحتاج إلى مقدار من المادة يساوي ضعفي مقدار المادة المتوفرة في الكون بأسره. . ! ويكون الناتج حينئذ جزيئاً ميتاً، لا حياة فيه. . !

فلا بدّ إذاً من المشيئة الإلهية لبناء هذا الكون وتحريكه بهذا النظام الآخاذ.

ب ـ **القدرة الإلهية**: تتجلى القدرة الإلهية كما ذكرت الآيتان في الأمور التالية:

١ ـ في حيازته تعالى للملك بأسره: ﴿مالك الملك﴾.

٢ ـ في قدرته على منح الملك لمن يشاء ونزعه ممّن يشاء.

٣ ـ في قدرته على إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء.

٤ ـ في قدرته على جعل كل حدث من الأحداث خيراً وبركة أو غير ذلك: ﴿بيدك الخير﴾، فإن الله قد يؤتي الملك رجلًا، ويجعل هذا الملك خيراً له وللناس. فقد آتى الخلافة ـ وهي من أنواع الملك بمعناه العام ـ أبا بكر رضي الله عنه، فكان ملكه خيراً له وللمؤمنين. وكم من ملك آتاه الله الملك، فكان ملكه وبالاً عليه وعلى قومه.

٥ ـ في قدرته على تحريك الأجرام السماوية الهائلة العدد والحجم وذلك بالإشارة إلى إيلاج الليل في النهار وبالعكس.

٦ ـ في قدرته على الإحياء والإماتة.

٧ ـ في قدرته على توفير الرزق لجميع خلقه بحيث تستمر حياتهم دهوراً في جميع الظروف وفي توازن مدهش.

٨ ـ في قدرته تعالى على إحداث كل ذلك دون قيامه بأي حساب مُسبق. إذ الإعداد والتهيئة لصنع الأشياء من خصائص الإنسان الضعيف. أما الله جل جلاله فليس في حاجة إلى إجراء الحسابات لخلق المخلوقات والأحداث المتعلقة بها. بل إن هذه المخلوقات والأحداث تتكوّن صحيحة دقيقة منتظمة بمجرد قوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾، ﴿وتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.

وبعد، فقد تجلت في الآيتين الكريمتين الوحدة والتناسق والغزارة في

المعاني. فإيتاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، والإحياء والإماتة، والرزق، جميعها تشترك في أفكار واحدة تسري فيها هي: «الملك، والحركة الدورية، والعلو والانخفاض، والدخول والخروج، والتناظر».

كما بينت الآيتان قدرة الله العظيمة ومشيئته الحكيمة في تصرفه في هذا الكون البديع. كل ذلك في كلمات معدودات وفي إيقاع مطرب، وهندسة إلهية رائعة معجزة، لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أَنْ يأْتوا بِمِثْلِ هٰذا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾ فتبارك الله رب العالمين.

□□□□□

بصَمات يد القُدرة الإلٰهية في

الكون المتحرك

فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ
وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ
ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ
أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ

خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

[الروم: ١٧ ـ ٢٧]

الأفكار الجديدة في دراسة هذه الآيات

١ ـ سريان فكرة (الحركة) في الآيات العشر.

٢ ـ سرّ الأمر بالتسبيح عند المساء والصباح، ثم حمد الله عند الظهر والعشيّ.

٣ ـ تطابق حركات المصلي في صلاته وحركات الشمس وتوافق التسبيح والحمد فيهما.

٤ ـ الحركة الدورية في عالمي الجمادات والأحياء وترابطهما.

٥ ـ الحركة الانتشارية وأسبابها، وكيف تترابط عدة آيات متلاحقة لتبين أسباب الحركة الانتشارية التي منها: طلب الرجل للزّوجة وآختلاف ألسنة الناس وألوانهم وطلب الناس للغذاء.

نحن البشر، ركاب مركبة فضائية، أو سفينة فضائية، هي أرضنا هذه، وهي تتحـرك بسرعة عظيمة، تنتقل حول الشمس على مدار مُحدّد لها، يسيّرها الله تعالى على هذا المدار على أبعاد معيّنة من الشمس، فيقرّبها منها بحيث لا يؤذي حرّها اللافح ركاب السفينة، ويبعدها عنها بحيث لا يتجمد ركابها من البرد، بل يؤدّي سيرها على هذا المدار إلى ازدهار الحياة على سطحها منذ ملايين السنين.

غير أن أكثـر البشـر ساهـون عن مسير سفينتهم، غافلون عن ربّهم البرّ الرحيم، الذي ترك آثاراً يد قدرته منطبعةً في جميع أنحاء الكون، وذلك لكي يعرفه الناس فيتّجهوا إليه معترفين بفضله مسبّحين بحمده: ﴿فَسُبْحانَ اللهِ حينَ تُمْسونَ وَحينَ تُصْبِحونَ، وَلَهُ الحْمدُ في السَّماواتِ والأَرْضِ وَعَشِيّاً وحَينَ تُظهرونَ﴾.

إن هذه الـزمـرة من الآيات الكـريمة تشير إلى ظاهرة (الحركة) في هذا الكون... كل شيء يتحرك، كل شيء ينتقل من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن حال إلى حال:

الأوقات تنتقل من الربيع إلى الصيف فالخريف فالشتاء.

والأرض تنتقل من الصباح إلى الظهر فالمساء فالعشي.

والماء ينتقل من البحر إلى اليابسة، ثم من اليابسة إلى البحر.

والأحياء تنتقل من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت، إلى التراب.

حتى الذرّة، أصغر جسم مادي، تتحرك فيها الالكترونات دائرةً حول النواة...

لكنّ هذه الحـركـات كلهـا تتمّ بتناسق غريب وتوازن عجيب بالرغم من كثـرتها. ولا يسع الإنسان العاقل ـ إذا تدبّرها ـ إلّا أن يدرك تدبير الله وحكمته

الكامنة وراءها، وعنايته، التي لا تتوقف، بخلقه.

إن الآيات تتناول بيان قدرة الله تعالى في هذا الكون المتحرك بشقّيه: عالم الجمادات (الأموات)، وعالم الأحياء. وتلفت الآيات أنظارنا إلى نوعين محدّدين من الحركات هما:

١ ـ الحركة الدورية المتكررة.

٢ ـ الحركة الانتشارية.

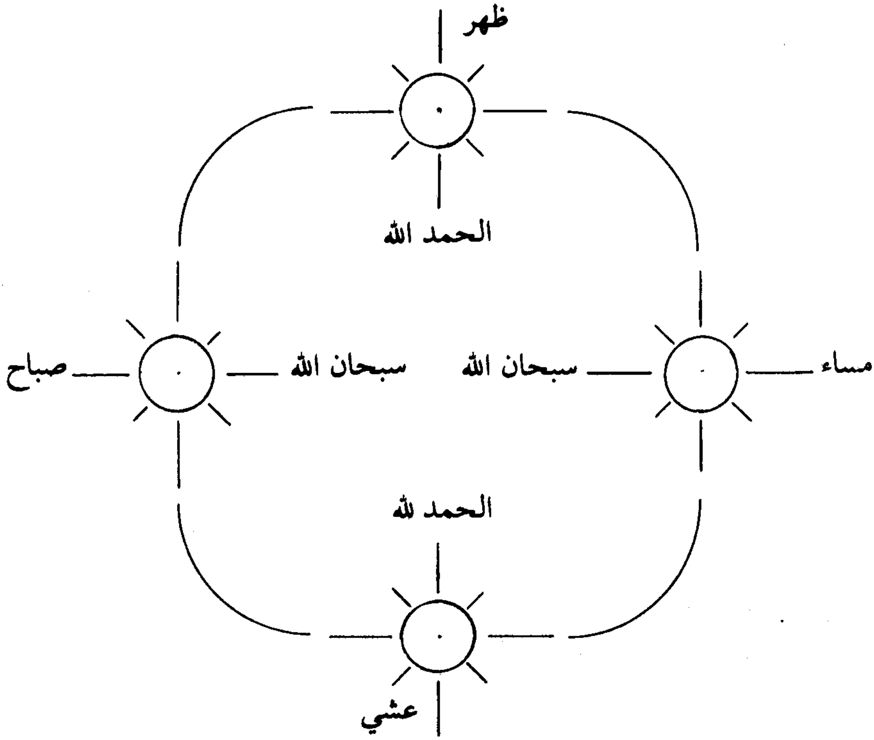
١ ـ الحركة الدورية في عالم الجمادات:

أ ـ الحركة الدورية اليومية: تشرق الشمس صباحاً بنور ضعيف يشتدّ شيئاً فشيئاً حتى تعلو الشمس إلى كبد السماء ظهراً (في حركتها الظاهرية)، ثم تأخذ في الانحدار من أوج عظمتها تدريجياً، حتى تهوي إلى حضيض الأفق عند المساء، تاركة شيئاً ضئيلاً من نورها، يصدره الشفق الأحمر، ثم لا يلبث أن يختفي هذا النور تماماً عند العشيّ، ثم تكمل الشمس دورتها هذه لتبدأ دورة جديدة.

إلى هذه الدورة الظاهرية للشمس، الناشئة عن دورة الأرض حول نفسها، أشار قوله تعالى: ﴿فَسُبْحانَ اللهِ حينَ تُمْسونَ وحينَ تُصْبِحون، ولهُ الحمدُ في السماواتِ والأرْضِ وَعَشِيّاً وحَينَ تُظهِرون﴾.

التسبيح في البدء والحمد عند الاكتمال:

نلاحظ هنا أن الله تعالى أمرنا في هذه الآيات بأن نسبّحه عند الإمساء وعند الإصباح: ﴿فسُبحانَ اللهِ حينَ تُمْسونَ وحينَ تُصبِحونَ﴾، أي في بداية الليل وبداية النهار. كما أمرنا بأن نحمده حين اكتمال سلطان الليل ﴿عشياً﴾، وحين اكتمال سلطان الشمس نهاراً ﴿وحين تُظهِرون﴾.



فلماذا كان التسبيح حين البدايات والحمد حين الاكتمالات؟

إن التسبيح هو تنـزيه الله عن النقص، وصرف الذهن عن الظن بأن الله تعالى قد يخطىء في علمه، أو أنه سبحانه قد يفعل ما هو ناقص.

أمـا الحمد، فهو ذكر الله بصفاته الحسنى الكاملة، من القدرة على كل شيء والعلم بكل شيء، والرحمة والكرم، وذلك عند مشاهدة أفعاله البديعية التي تدل على هذه الصفات.

ولأضرب مثلاً: إنك حين ترى رسّاماً يبدأ في رسم منظر طبيعي، فإنك حين تشاهده في بداية رسمه، لا ترى سوى بعض الخطوط الغامضة، التي لا فنٌ فيهـا ولا إبـداع. وحينئذ قد تستهين بقدرة هذا الرسام على الرسم، وتظنّ فيه الظنون، وهذا هو الخطأ: التسرّع في الحكم عند البدايات...

أما عندما تكتمل الصورة التي يرسمها هذا الرسّام، فإنك ترى من إبداعه في الرسم ما يجعلك تُعجب به وتهنّئه، وهذا شبيه بالحمد.

كذلك مخلوقات الله ـ ولله المثل الأعلى ـ فقد شاء الله أن يخلق الأحياء على مراحل أو أطوار، بحيث يبدأ المخلوق ناقصاً، ثم يتدرّج نحو الاكتمال، وذلك لحكمة بالغة، وهي أن يعلم الإنسان أن أصله النقص والضعف، فلا يغترّ بنفسه حين تكتمل قواه، وليعلم أن كماله مؤقّت لا يدوم: ﴿الله الّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثمَّ جَعَلَ من بعد قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

فمن المناسب تسبيح الله أي تنزيهه عن النقص، إن شاهدنا بعض خلقه ناقصاً في أوّل أطواره، كقلة الإضاءة في أول النهار، فإنّ هذا النقص عابر، ولا بدّ أن يتلوه الاكتمال. إذا رأيت طفلاً رضيعاً لا يحسن الكلام ولا المشي ولا التفكير ولا نقل الأثقال، فلا تعترض على نقائصه هذه، فهي مرحلة عابرة يتلوها اكتمال عقله وقوته. لا تظن أن الله ـ سبحانه ـ قد خلقه ناقصاً عن عجز منه تعالى، بل سبح ربك ونزّهه عن العجز.

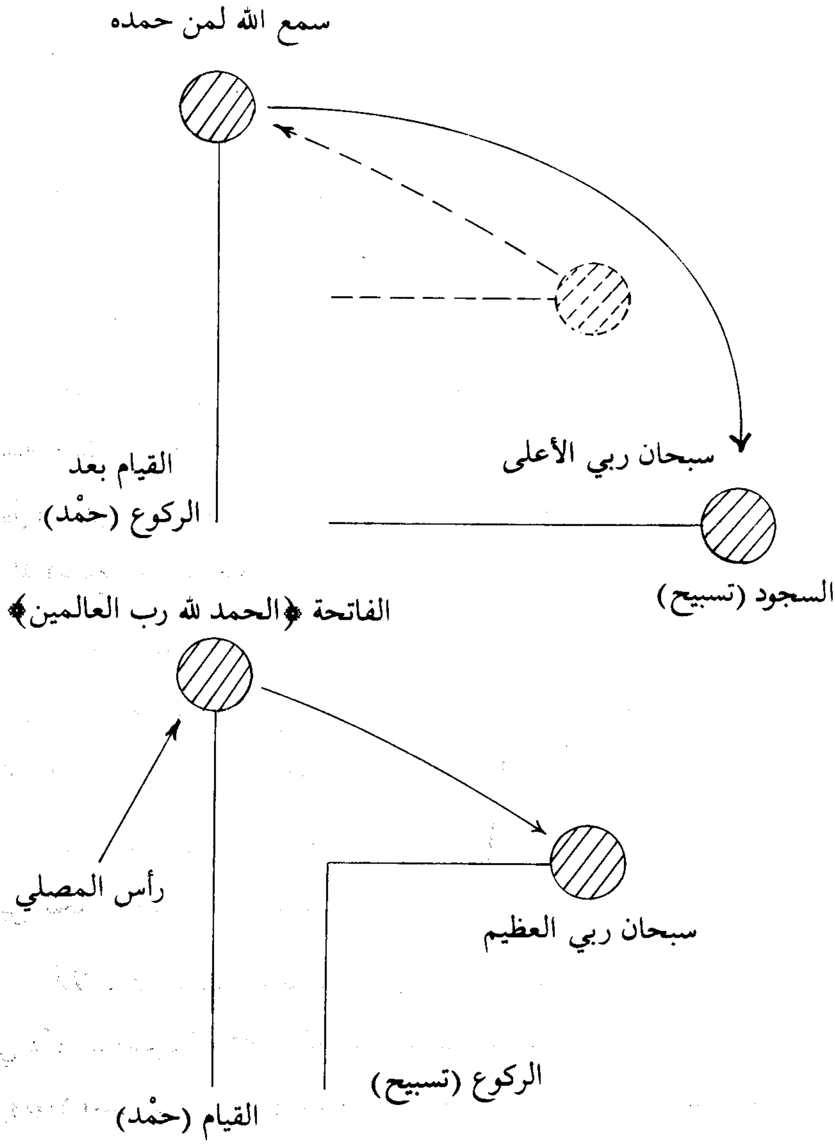
وهذه هي حكمة التسبيح عند البدايات.

أما حينما يكتمل ضوء الشمس ﴿حين تُظهِرون﴾، فيتجلّى كمال قدرة الله، وتتجلّى صفاته الحسنى، فينطلق اللسان بحمد الله على كمال قدرته ورحمته لخلقه والإعجاب بإبداعه.

وهذه هي حكمة الحمد عند الاكتمالات.

الحمد والتسبيح في الصلاة: في الصلاة أيضاً حمد وتسبيح، ولكل منهما مواطن تلفت النظر. فالحمد يتم حين القيام في أول الركعة حين قراءة الفاتحة: ﴿الحمد لله رَبِّ العالَمين﴾، ثم بعد أن يهوي المصَلّي راكعاً فإنّه يسبح (سبحان

ربي العظيم)، وحين ينهض من الركوع عائداً إلى وضع القيام، فإنه يحمد الله قائلاً: (سمع الله لمن حمده). ثم حين يهوي إلى السجود فإنه يعود فيسبح ربه (سبحان ربي الأعلى).



وهنا ألاحظ تشابهاً وتناسقاً بين حركة الشمس في دورتها اليومية، وبين رأس المصلّي في حركتـه. فحين القيام يكـون رأس المصلي في حالـة تشبـه حالة الشمس وهي في أعلى السماء ظهراً. وقد أمر الله المؤمن بحمده حينئذ: ﴿وَلَهُ الحمدُ في السماواتِ والأرضِ وَعَشيّاً وَحينَ تُظهِرون﴾، كما أن المصلي وهو في تلك الحالة يحمد الله ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾.

وحين الركوع يهبط رأس المصلي في حركة منحنية إلى وضع أفقي، وهو بذلـك يشبـه بحركة رأسه تماماً هبوط الشمس من أوجها ظهراً إلى الأفق حين الغروب. وفي الحالتين يُطلب إلى المؤمن التسبيح، عند الإمساء ﴿فسُبحانَ اللهِ حينَ تمسونَ﴾، وعند الركوع يقول المصلي (سبحان ربي العظيم).

وحين النهوض من الركوع، يعود المصلي إلى وضع القيام، فيشبه وضع رأسـه حينئـذ وضع الشمس في أوجها عند الظهر (أو عند العشي في منتصف الليل). وفي كلتـا الحالتين يُطلب إلى المؤمن أن يحمد ربه. ويقول المصلي حينئذ (سمع الله لمن حمده).

ثم حين يهوي رأس المصلي ساجداً، فإن وضعه يشبه وضع الشمس حين تهوي من أوجها إلى الأفق حين الغروب. وهو مُطالب في الحالتين أن يسبح الله ﴿فسبحان الله حين تُمسون﴾، (سبحان ربي الأعلى).

أليس هذا انسجـاماً رائعاً بين حركات الشمس وحركات رأس المصلي؟ وبين الحمد والتسبيح في حالتيهما؟

أولاً يذكّرنا ذلك بالحديث النبوي الشريف المتفق عليه الذي جاء فيه عن أبي ذرّ، أن رسول الله ﷺ سأله حين غربت الشمس: أين تذهبُ الشمس حينَ غروبها؟ فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم. فقال الرسول ﷺ: «فإنّها تذهب حتى تسجدَ تحت العرش» [مشكاة المصابيح: ٥٤٦٨].

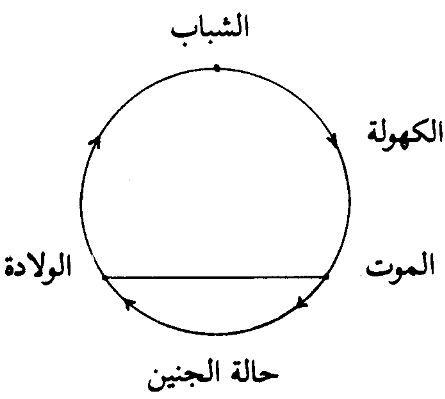
فالشمس ـ كما ينصّ الحديث ـ «تسجد» بغروبها عند الأفق، تماماً كما ينحدر رأس المصلي إلى الأفق عند سجوده.

ب ـ **الحركة الدورية السنوية**: من المعلوم أن الأرض تدور حول الشمس دورة سنوية تنتج عنها الفصول الأربعة (الربيع والصيف والخريف والشتاء). وبقدرة الله ورحمته تنتج عن هذه الدورة السنوية للأرض، دورات حرارية ودورات مائية، إذ تشتد الحرارة على الأرض، ثم تفتر بحسب الفصول وبحسب موقع المكان من الأرض، كما تنزل المياه برحمةِ الله في دورات خاصة. فمنها الأمطار الشتوية ومنها الأمطار الموسمية الصيفية.

وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُريكمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيُحْيي بِهِ الأرضَ بعدَ موتِها﴾.

٢ ـ الحركة الدورية في عالم الأحياء:

رأينا أن هناك حركة دورية في عالم الجمادات ظهرت في حركة الشمس اليومية الظاهرية حول الأرض، وحركتها السنوية الفصلية.



غير أن هناك دورة بالغة الأهمية تحدث في عالم الأحياء، هي ظهور الحياة نفسها من التراب الميت - بقدرة الله وحكمته - ثم موتها. والمثل على ذلك الإنسان. فجسمه ترابيّ المنشأ، إذ إن عناصر الجسم البشري تتألف من نفس عناصر التراب كالكربون والأوكسجين والهيدروجين . . . الخ.

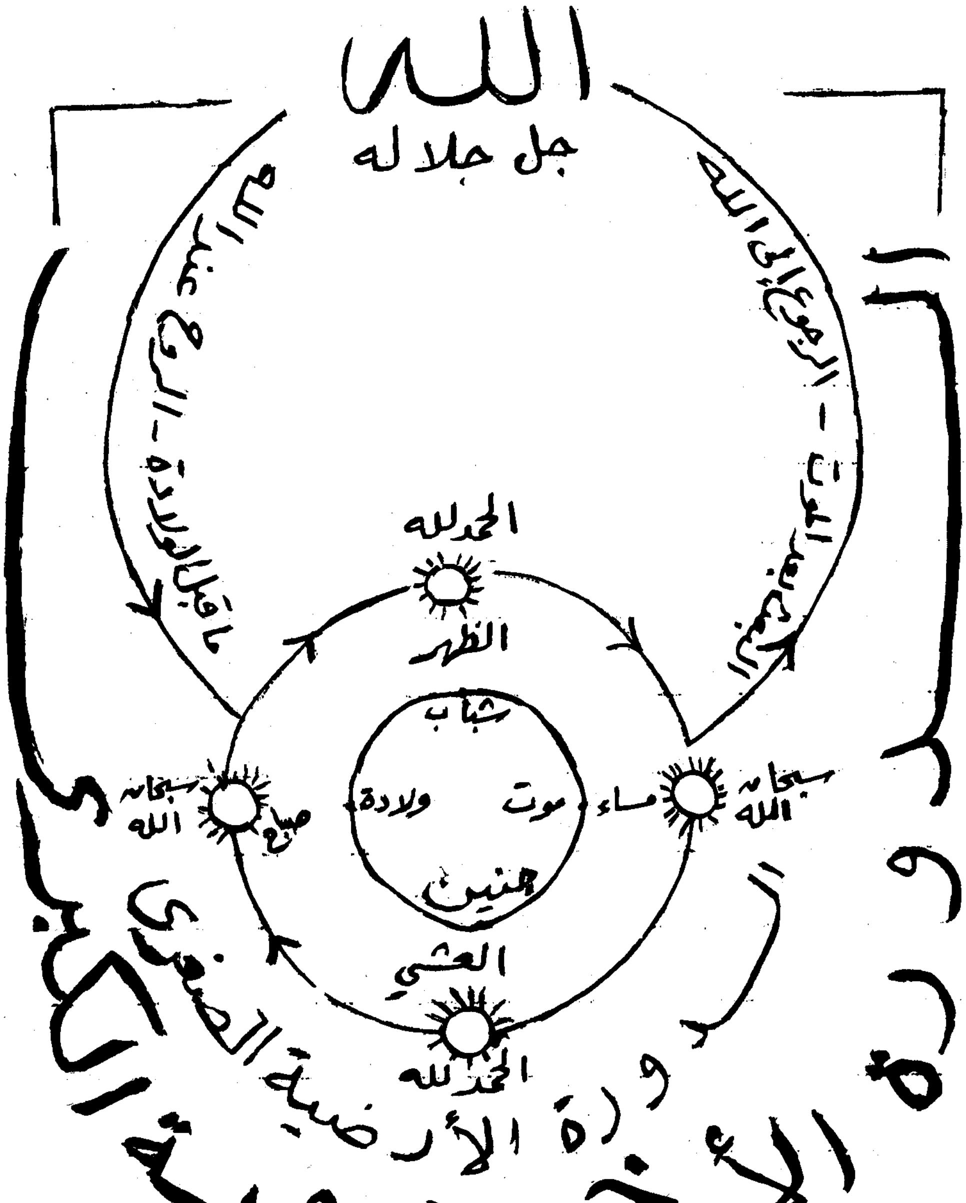
وهو يبدأ دورته الحية في مرحلة الجنين من نطفة فعلقة فمضغة . . . ثم يولد طفلاً ثم ينمو شاباً. وتتجمع أنسجته من تراب الأرض عن طريق ما يتغذى به من نباتات تتكون أنسجتها من التراب الذي تأخذها جذورها من الأرض.

ثم ينحدر الإنسان من طور الشباب الكامل القوة إلى طور الكهولة فالهرم فالموت الذي يعود به إلى التراب.

لكن دورة جديدة تبدأ بقدرة الله في ولد الإنسان الأول، وهكذا . . .

والدورية تتجلى في الأحياء كافة: تبدأ حياة النبات مثلاً بالبذرة، ثم تتفتح البذرة وتنمو وتكتمل فتصبح شجرة، ثم تموت الشجرة مخلّفةً بذوراً تبدأ دورات جديدة.

وإلى ذلك أشارت الآيات بقولها: ﴿يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميّتِ ويُخرجُ المَيّتَ مِنَ الحيِّ﴾.


الله
جل جلاله
الحمد لله
الظهر
شباب
ولادة
موت
جنين
صباح
مساء
سبحان الله
سبحان الله
العشي
الحمد لله
الصغرى
الأخروية

دورة الحياة الإنسانية الكبرى:

بالإضافة إلى دورة الحياة الدنيا الصغرى المذكورة في الآية: ﴿تُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميّتِ وتُخْرِجُ الميّتَ مِنَ الحيّ﴾، فإنّ هناك دورة كبرى أخرى خطيرة أشارت إليها الآية بقولها: ﴿وَكَذٰلِكَ تُخرجون﴾. وهذه الدورة تشمل بدء خلق روح الإنسان قبل ولادته، كما تشمل الحياة الدنيا، ثم بعث النفس بعد موتها ورجوعها إلى الله. (راجع الشكل المرفَق).

خلق الإنسان قبل ولادته:

قال تعالى: ﴿وإذ أخَذَ ربُّكَ مِنْ بني آدَمَ مِنْ ظُهورِهم ذُرِّيتَهُمْ وأَشْهَدَهُم علىٰ أنْفُسِهِم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالوا: بَلىٰ شَهِدْنا، أنْ تقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنّا كُنّا عَنْ هٰذا غافِلين﴾ [الأعراف: ١٧٢].

إن هذه الآية تفيد أن النفس البشرية كانت موجودة بصورة من الصور قبل أن تولد في هذه الدنيا، وأنها كانت تعي مخاطبة الله لها: ﴿ألسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ وتدرك معنى هذا السؤال، وتستجيب له: ﴿قالوا بلىٰ﴾.

ومعظم المفسّرين يوردون هذا المعنى للآية، ويذكرون أحاديث شريفة تؤيده. وقد أورد الطبري في تفسيره للآية قول محمد بن كعب القرظي: (أقرّت الأرواح قبل أن تُخلَقَ أجسادها) أي اعترفت بربوبية الله قبل ولادتها.

رجوع الإنسان بعد موته إلى الله:

لقدْ وردت آيات كثيرة تفيد أن الإنسان (يرجع) بعد موته إلى الله. ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحيي ويُميتُ وإليهِ تُرجَعون﴾ [يونس: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿واتّقوا يوماً تُرجَعونَ فيهِ إلى اللهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وهذا مما يؤيد أن الإنسان كان واعياً قبل أن يولد في هذه الدنيا، إذ الرجوع يعني أن الإنسان بدأ وجوده عند الله ثم يعود إليه يوم القيامة. فهي دورة كبرى ابتدأت قبل الولادة، وتنتهي بعد الموت والبعث متضمنة دورة الحياة الدنيا الصغرى.

ترابط الحركة الدورية للأرض والحركة الدورية للأحياء:

إن دورات الأحياء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدورة الأرض حول نفسها ودورتها حول الشمس. فإن دورة النـوّم واليقظة اليومية ترتبط بدورة الأرض حول نفسها فالأحياء عموماً تنام ليلاً وتستيقظ نهاراً لتكسب رزقها: ﴿وَمِن آياتِهِ منامُكُمْ باللَّيْلِ والنَّهارِ وابتِغاؤُكُمْ مِنْ فضلِهِ﴾.

كما أن الدورة السنوية للأرض حول الشمس وتعاقب الفصول يؤدي إلى دورات تكاثر عند كثير من الحيوانات والنباتات، التي تتكاثر في أوقات معينة من السنـة. وكذلك فإنّ هذه الدورة السنوية تؤدي إلى دورة نزول ماء المطر الذي تعيش عليه الأحياء جميعاً: ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُريكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيُحيي بِهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها﴾.

الحركة الانتشارية في الدنيا:

بالإضافة إلى الحركة الدورية التي تشمل عوالم الجمادات والأحياء، فإن هناك حركة (انتشارية) تظهر فيهما معاً.

أ ـ الحركة الانتشارية في الجمادات:

ينشـأ عن حركـة الأرض الدورية حول نفسها تعاقب الليل والنهار. وهنا نلاحظ أن ضوء الشمس يأخذ في (الانتشار) في النهار شيئاً فشيئاً. وكذلك ظلام الليل يأخذ في (الانتشار) على سطح الأرض تدريجاً.

وكذلك فإن الحرارة تنتشر في الأرض تبعاً لتنقل الشمس. وكذلك البرودة.

وبفعل تفاوت درجات الحرارة فإن الرياح تنتشر في الأرض، وينتشر معها السحاب في جو الأرض، ثم ينتشر الماء على اليابسة بنزول الأمطار، التي أشارت إليها الآية: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾.

وهكذا نجد أن الضوء والحرارة والرياح والغيوم والماء ـ وهي أمور عظيمة الأهمية ـ تتم بفعل الحركة (الانتشارية).

ب ـ الحركة الانتشارية في الأحياء:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إذا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرونَ﴾.

إنَّ الشق الأول من الآية يتضمّن المعجزة الإلهية العظيمة، وهي خلق الحياة من التراب الميت. وإنه لسرٌّ عظيم عجز عن إدراكه البشر: ﴿إنَّ الذين تدعونَ مِنْ دونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً وَلَو ٱجْتَمعوا له﴾ [الحج: ٧٣].

نعم استطاع البشر صُنع أجهزة مادية تنفع الإنسان في حياته، كالسيارات والغسالات، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخلقوا خلية واحدة حية، لأن هذه الخلية، كما قال بعض العلماء، «امبراطورية»، لها رئيس خفي في داخلها، لا يُعرَف كنهه. وهذا (الامبراطور) يسيطر على كافة حركات الخلية ونشاطاتها، ويعرف مصالح الخلية، فيأمر الأجهزة الملحقة به، أي رعاياه المنوط بها حفظ هذه المصالح، يأمرها بتحقيقها، كالهجوم على الفريسة وإمساكها وتمثّلها. كما يعرف الامبراطور أيضاً ما يضرّ الخلية، فيأمر رعاياه بإبعادها عن الأخطار المحدقة بها.

خَلْقُ الله يتحرك.. وصنع الناس يتحرك... ولكن شتان ما بين الحركتين!

خَلق الله، كالبعوضة، يتحرك، وللبعوضة أجنحة تطير بها، وهي تعرف غذاءها ـ الطاقة المحركة الضرورية لها ـ وتستطيع أن تحصل على غذائها

بنفسها، وهي تتكاثر وتحفظ نوعها.

أما صنع الإنسان، كالطائرة، فهي تطير أيضاً، ولكنها لا تعرف غذاءها، ولا تستطيع أن تأخذه بنفسها، كما لا تستطيع أن تتكاثر وتحفظ نوعها!

ثم هل يستطيع البشر أن يصنعوا طائرة كالبعوضة في صغر حجمها؟!

وأما الشِق الثاني من الآية فيبيّن (انتشار) البشر في الأرض. والحركة الانتشارية في الناس ترتبط بالحركة الدورية كما يلي:

إن الحركة الدورية للكائن الحي تعني أنه ـ وإن مات ـ يواصل حياة جديدة عن طريق أولاده، فهو إذن يتكاثر، وهذا التكاثر يؤدّي بالكائنات الجديدة إلى تكوين أُسَر جديدة، ولما كان المكان الواحد لا يتسع لهذه الأُسر جميعها، فإنها «تنتشر» في الأرض لتكسب لنفسها رزقاً.

والانتشار حركة، وكل حركة تحتاج إلى قوة، إلى طاقة تحرك الجسم. والطاقة التي تحرك الجسم هي الغذاء، والغذاء يدخل الجسم عن طريق الفم، ثم يتم توزيعه على جميع أنحاء الجسم عن طريق (الدورة الدموية)، فهنا أيضاً دورة داخلية في جسم الإنسان لا بدّ منها للقيام بالانتشار.

أسباب انتشار الناس في الأرض:

إذا تساءلنا عن أسباب انتشار الناس في الأرض، فإننا قد نجدها في الآيات التالية للآية السابقة التي ذكرت الانتشار. وهذه الأسباب تتلخص فيما يلي:

(١) ـ طلب الرجل للزوجة.

(٢) ـ اختلاف الناس في لغاتهم وألوانهم، أي في قومياتهم.

(٣) ـ طلب الناس لغذائهم في فترات عمل تتخللها فترات استراحة ونوم.

فلنتأمل هذه الأسباب كما وردت في الآيات الكريمة:

١ ـ طلب الرجل للزوجة:

﴿ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُم من أَنْفُسِكُم أَزْواجاً لِتَسْكُنوا إليها وجَعَلَ بَينكُم مَودَّةً ورَحْمَةً، إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكّرون﴾.

تبقىٰ نفس الرجل مضطربة قلقة حتى يأوي إلى زوجةٍ يسكن إليها وتسكن إليه. وهذا يدفعه إلى (الانتشار) في الأرض ليجمع من المال ما يُرضي الزوجة وما يبني به لها بيتاً يسكنانه هما وأطفالهما. وهذه أيضاً حركة نفسية، فهي انتقال من القلق والاضطراب إلى السكون والاستقرار النفسي بالزواج.

وألاحظ هنا أن القلق والاضطراب عامل سلبي يحفز الإنسان على الزواج. لكن هنـاك أيضاً عاملاً إيجابياً يظهر بعد الزواج ليستمر الرجل في زواجه وبناء أسرته، وهو (المودة والرحمة) التي يوقعها الله بين الزوجين فيوثق العلاقة بينهما.

٢ ـ اختلاف الناس في ألسنتهم وألوانهم:

﴿ومِنْ آياتِـهِ خَلْقُ السَّماواتِ والأَرْضِ واختِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وألوانِكم إنّ في ذٰلكَ لآياتٍ للعالِمين﴾.

إن من دوافع الانتشار والحركة والاضطراب، الاختلاف والتفاوت. وهذا يلاحظ في الظواهر الفيزيائية الكونية، كما يلاحظ في الظواهر الحيوية. فالتيار الكهـربـائي مثلاً لا يتحرك ولا يسري إلاّ إذا كان هناك (اختلاف) في الضغط الكهربائي (التوتر أو الجهد) بين نقطتين. والماء لا يتحرك ولا ينساب من خزان المياه العـالي إلى صنابير المياه في البيوت، إلا بسبب (اختلاف) الضغط بين الماء في الخزان والماء في البيوت.

وهبوب الرياح لا يحدث إلا بسبب اختلاف ضغطي الهواء في منطقتين متجاورتين من الأرض وبسبب التفاوت الحراري بينهما.

وفي الأمور (الحياتية) نجد (اختلاف) البضائع في قطرين مثلاً يسبب حركة تجارية بين البلدين فيتبادل القطران مثلاً البترول مقابل السيارات، فينتشر تجار البلدين هنا وهناك لعقد الصفقات فيما بينهم، كما تنتشر البضائع في الأرض.

وقد أبرزت الآية هنا اختلاف اللغات (الألسنة) والألوان، مما نلمح فيه اختلاف القوميات البشرية، مما يؤدي بدوره إلى عصبيات قومية وعرقية تنجم عنها خصومات وحروب: ﴿ولولا دَفعُ اللهِ الناسَ بَعضَهُم ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ، ولكِنَّ الله ذو فضلٍ على العالَمين﴾ [البقرة: ٢٥١].

وما الحروب إلا تحركات تسبب (انتشار) الناس في الأرض، فالمنتصر يغزو أرض المهزوم ويحتلها أي ينتقل إليها.

الاختلاف والتنوّع من آيات الله:

يذكر الله في نفس الآية أن من آياته، أي الدلائل على وجوده وإبداعه، خلق السماوات والأرض، فهي سماوات عديدة مختلفة، وأرض واسعة يختلف بعض أجزائها عن بعض، فمنها البحار ومنها اليابسة، ومنها الجبال ومنها السهول والوديان، ومنها الحار ومنها البارد ومنها المعتدل.

فكما اختلف السكان في ألسنتهم وألوانهم، اختلفت مساكنهم، وهي السماوات والأرض، وهذا مما يربط الآية بعضها ببعض ربطاً محكماً.

أما كون التنوع والاختلاف من آيات الله العظمى، فمرجعه إلى أن هذا التنوع والاختلاف قد حدث بتدبير واضح وصنعة دقيقة متقنة وإبداع ينمّ عن المبدع.

التنوع المتقن في الإنسان :

انظر إلى أحد مخلوقات الله، الإنسان، تجده مختلف الأجزاء أشد الاختلاف، فرأسه غير يديه، ويداه غير رجليه وغير بطنه، ذلك أن شكل كل منها وتركيبه يساعدها على القيام بالدور المطلوب أن تقوم به، فالجهاز الهضمي يقوم بهضم الطعام واستخلاص المواد النافعة منه بعمليات كيماوية معجزة. والجهاز البولي يقوم بطرد المواد السامة من الجسم. والعظام المتينة المختلفة الأشكال والحجوم تحمل الجسم وتحمي أجهزته الحساسة.

والكرّيات البيض تحمي الجسم من الجراثيم الغازية، فتقاتلها قتالاً عنيفاً، مُوجهةً إليها سموماً خاصة تفرزها بعمليات كيماوية عجيبة. والجهاز التناسلي مُهيّأ لتكاثر النوع بطريقة مدهشة تلفت الأنظار.

وكل ذلك موضوع لغاية واحدة هي استمرار الحياة على وجه الأرض، مما يدل على تدبير بالغ الدقة والإحكام.

الاختلاف والتنوع الرائع في الحيوانات :

هناك الحيوانات الثديية والطيور والزواحف والأسماك والبرمائيات والحشرات. انظر إلى اختلاف أشكال أعضاء الحيوانات باختلاف المكان الذي تعيش فيه: فالأسماك قد صيغ جسمها ليناسب الوسط المائي الذي تعيش فيه، فلها زعانف تساعدها على التحرك في الماء، ولها كيس هوائي يساعدها على الارتفاع والانخفاض.

وللإبل أخفاف تعينها على السفر في الصحاري، ولها فم يساعدها على أكل الأشواك الصحراوية، وبطون ذات مستودعات هائلة لتخزين الماء، وأسنمة لتخزين الأغذية: ﴿أَفَلا ينظرونَ إلىٰ الإبلِ كيفَ خُلِقَتْ؟﴾ [الغاشية: ١٧].

إنه تطابق مدهش بين الحي والمكان الذي يعيش فيه. وهذا التطابق لا يمكن أن يكون قد حدث بالمصادفة العمياء، كما يتوهم بعض السذّج، الذين يغمضون أعينهم عن الحقيقة التي يرونها أمامهم وينكرونها، وإذا قال لك الأعمى إن الشمس غير موجودة لأنه لا يراها، فهل تصدّقه؟!

التنوع الرائع في النباتات:

انظر إلى اختلاف أنواع النباتات، واختلاف ألوان أزهارها الزاهية، واختلاف روائحها العطرة، واختلاف طعوم ثمارها المتعددة، واختلاف أنواع المواد الغذائية التي تنتجها، من مواد سكّرية ونشوية ودسمة وبروتينية ودوائية...

إنها مصانع كيماوية لا تدع مجالاً للشك في مبدعها وتؤكد علمه الواسع وقدرته الجبارة.

التنوع الرائع في السماء:

انظر إلى نجوم السماء المختلفة الحجوم والأبعاد والإضاءة، فمنها شموس ساطعة كشمسنا أو أشد سطوعاً، ومنها الكواكب التابعة للشمس كأرضنا، ومنها الأقمار التابعة للكواكب: نظام رائع فيه الجرم الصغير تابع للجرم الكبير، يدور حوله بدقة ونظام، ومواعيد ثابتة لا تختل أبداً.

كل هذه (الاختلافات) المنظمة، والتنوعات الهادفة آيات بينات، إنها بصمات تدل على الخالق العظيم.

٣ ـ طلب الناس لغذائهم:

﴿ومِنْ آياتِه مَنامُكُمْ بالليلِ وَالنّهارِ وابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يَسْمَعون﴾.

إنّ من الأسباب الواضحة لانتشار الناس في الأرض وحركتهم فيها، سعيهم

الدائب لطلب الرزق ﴿وابتِغاؤكُمْ مِنْ فَضلِهِ﴾ . لكن هذا السعي والحركة يسبّبان للإنسان تعباً، لا بدّ له معه من الراحة والنوم: ﴿ومن آياتِهِ مَنامكُمْ بالليلِ والنهارِ﴾ .

وهنـا (دورة حيـاتيـة) أيضـاً، إذ يتـزايد النشاط والحركة في أول النهار، ثم ينعدمان في الليل على الغالب، وهي دورة مرتبطة بالدورة الأرضية الشمسية .

وهـذا كله منسجم مع مطلع الآيات: فكمـا ينتقل الزمان من الليل إلى النهـار، من الإمساء إلى الإصباح، وكما ينتقل الإنسان من الموت الذي يشبه الليل إلى الحياة التي تتجلى في النهار، كذلك ينتقل الإنسان ليلاً إلى النوم، ثم ينتقل نهاراً إلى الحركة والنشاط (منتشراً) في طلب الرزق.

الماء أساس الرزق:

لما كان طلب الرزق أساس حياة الإنسان، أوضحت الآيات أساس الرزق كله، وهو الماء، الذي تنبت به النباتات، وعليه يعيش البشر والحيوانات ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُريكمُ البرَقَ خوفاً وطمعاً ويُنزِّلُ مِنَ السّماءِ ماءً فيُحْيي بهِ الأرضَ بعدَ مَوْتها﴾ .

وكمـا بيّنتْ آية سابقـة دافعين، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، يحرّكان الرجل لطلب الزوجة، هما القلق ثم المودّة والرحمة، فكذلك بيّنت هذه الآية عاملين، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، يدفعان الإنسان إلى طلب الرزق، هما الخوف والطمع: فالإنسان يخاف من الأخطار، كخطر الجوع والعطش، ويطمع في الحياة وفي لذة الغذاء والشبع والري.

ويعقب هذين العـاملين، بعـد السعي وتحقيق الأمن الغذائي، استقرار نفسي وجسمي، يشبه الاستقرار والسكون الذي يحدث عند الوصول إلى الزوجة.

خاتمة التحرّكات:

﴿وَمِنْ آياتِهِ أنْ تَقومَ السماءُ والأرْضُ بأَمرِهِ، ثمَّ إذا دَعاكُم دعوَةً مِنَ الأرضِ إذا أنتم تخرجونَ﴾.

تقرر هذه الآية أن السماء والأرض ما تزالان قائمتين بأمر الله، تنتقلان من صباح إلى مساء ومن مساء إلى صباح، ومن موت إلى حياة ومن حياة إلى موت، حتى يحين موعد دقيق مضبوط، لا يتقدم ولا يتأخر، فيأمر الله البشر الموتى بالخروج من الأرض إلى حياة أخرى، فيخرجون راغمين، قانتين خاضعين لأمر الله لأنهم ملك له وهذا هو التحرك النهائي؛ الانتقال من الدنيا إلى الآخرة. وفي الآخرة يحدث (الانتشار) الأخير: ﴿يَخرجُونَ من الأَجْداثِ كأنهم جرادٌ منتشر﴾ [القمر: ٧].

الله المحرّك الوحيد:

﴿وَهُوَ الذي يَبْدأُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُهُ، وَهُوَ أهْوَنُ عَليْهِ﴾.

لقد بدأ الله الخلق، الحي منهم وغير الحي، وأمرهم بالحركة والانتقال والانتشار، بالقيام بحركات دورية منتظمة، تشمل كافة أجزاء الكون الواسع. إنها بصمات يد الإبداع الإلهي، تنطبع على الكون بأسره: الحركة، الدورية، دقة المواعيد، تتجلى في الانتقال من الصباح إلى المساء ومن الظهر إلى العشي، ومن الحياة إلى الموت وبالعكس، كما تتجلّى في انتشار البشر في الأرض وتنقلاتهم فيها، بدوافع متعددة، منها طلب الرجل للزوجة، ودافع الخلافات القومية، ودافع طلب الرزق الذي مصدره الأساسي ماء المطر.

كل هذه حركات مترابطة متناسقة متكاملة.

محركها الأول هو الله، الذي يبدأ الخلقَ ثم يُعيده.

فسبحانه وتعالى عن كل نقص، وله الحمد وهو العزيز الحكيم.

لعلك قد لمست أن هذه الآيات اللامعات، التي جالت بنا في الكون كله، وفي داخل نفس الإنسان وخفاياها، مستعرضة الظواهر الكونية والنفسية الأساسية، بأوجز عبارة وأحلى أسلوب. لعلك قد لمست أن هذه الآيات ليست من صُنع بشر، بل تنزيل من إلهٍ جبار، الكونُ كله في قبضته يُسيّرهُ كيف يشاء.

إنه رب العالمين.

□□□□□

الفهرس

المقدمة ٥

سورة الفاتحة والتربية والبرمجة ١٧

القلب والكمبيوتر ٢٧

الفرق بين الرحمن والرحيم ٣٣

رب العالمين وسعة الأفق ٣٩

أيطلبون الهدى وهم مهتدون؟ ٤٦

خلاصة إيحاءات الصراط المستقيم ٥٤

أنواع النعم الإلهية ٥٥

غير المغضوب عليهم: البرمجة بالترهيب ٥٨

الترغيب والترهيب في السورة ٦١

سورة العلق والبُنى الثلاث ٦٧

لماذا أبرزت السورة الصلاة؟ ٧٨

سورة العلق وزماننا هذا ٨٠

سورة الرحمن ٨٥

هل جهنم نعمة؟ ٩١

الرحمن والميزان ٩٣

أنواع التوازن ١٠١

سنفرغ لكم.. والرأي الجديد ١١٧

لماذا جنتان لا جنة واحدة؟ ١٢١
التوازن في الشريعة الإسلامية ١٢٣
التوازن الكوني في القرآن ١٣٢
القرآن كتاب الله حقاً ١٣٦
المعادلات الرياضية موازين ١٤٠
يسيرون نحو التوحيد وهم لا يدرون! ١٤١
اختلال التوازن لإعادة التوازن! ١٤٥
سورة المرسلات والقوى الإلهية المحركة للكون ١٤٩
المرسلات للخلق والتعمير أو التدمير ١٥٣
الظل الثلاثي ١٦٧
سبعة يظلهم الله ١٧٢
سورة القيامة وسورة العجلة واللوم والندامة ١٨٣
ترابط النفس اللوامة بيوم القيامة ١٨٩
لا تحرك به لسانك . . ترابطها بالسورة ١٩٤
سورة الناس والبرمجة المضادة ١٩٩
أساليب الشيطان وأفانينه في الوسوسة ٢٠١
شياطين الإنس والتلفزيون والفديو ٢٠٤
شياطين الإنس والتنويم المغناطيسي ٢٠٥
الرب، الملك، الإله . . لماذا؟ ٢٠٦
الهندسة الإلهية في أركان الإسلام ٢١٣
النفي والإثبات في الشهادتين ٢١٨
أركان الإسلام إخوة متحابّون ٢٢٦
مخطط أركان الإسلام ٢٣٠

رجعات البصر الثلاث في سورة المُلك ٢٣٣
النظرة الأولى إلى الجمادات ٢٣٨
النظرة الثانية إلى الأحياء ٢٤٣
النظرة الثالثة إلى الجمادات والأحياء معاً ٢٤٥
آيتان لامعتان من سورة آل عمران ٢٥١
فكرة المُلك ٢٥٣
فكرة الحركة الدورية ٢٥٥
فكرة العلو والانخفاض ٢٥٩
فكرة الدخول والخروج ٢٦٠
بصمات يد القدرة الإلهية في الكون المتحرك ٢٦٧
التسبيح في البدء . . والحمد عند الاكتمال ٢٧٠
دورة الحياة الإنسانية الكبرى ٢٧٨
الحركة الانتشارية ٢٧٩
الاختلاف والتنوع من آيات الله ٢٨٣

□□□□□